نعناعة الفِراق

مختارات قصصية

طبعة جديدة، مزيدة ومنقّحة

الطبعة الأولى: ٢٠٢٢م

تأليف

هدى توفيق

نعنانة الفِراق

مختارات قصصية

تأليف

هدى توفيق

الطبعة الأولى : ٢٠٢٢م
طبعة جديدة ، مزيدة ومنقّحة

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

رنا عماد

الطبعة: الأولى

كتاب مختارات قصصية نعناعة الفِراق

المؤلف: هدى توفيق

التصميم والإخراج: حسن عبد الحليم

المقاس: ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع: ٢٢٣٧٩ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولى : 2 - 510 - 993 - 977 - 978

العنوان : ٣ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : Yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

إلى أمي

نُخَب الدائرة المستديرة

كم هو قاسٍ عشقنا لمن نحبهم ويدَّعوا حُبَّنا ، ونحن نجلس حول المائدة نفس الجلسة نعاقر ترياق الجنون ، والخبل ، والهبل . نقسم الأدوار بالتساوي كأنها أرغفة خبز ملحمة الجوعى ، نستنشق مشاعر الشفقة ، أحاسيس الجراح الآثمة ، نتجاذب أطراف الحديث شاحبين ، مبهوتين ، عنيدين ، متلصصين بمآقي صقرية وتزدحم أنفسنا بحسابات دنيئة. مصرين على الإفصاح البشع ، معبَّئين كبراميل القطران ، والزفت مرصوفة بحالات عالية من الكراهية ، وجراح العشق ، ورغبة الانتقام .

أهمس فى أذنك المتآكلة :

ـ في زمن مضى يا حبيبي مارست روح الإله. أحببت كل المخاطر ، راهنت بحياة بشر آخرين معاقين من وجهة نظرك ، لهوت بمشاعر من أحببنك. تآمرت على هذه ،

وتلك ، اقتسمت اللّذة مع أصدقائك ، صاحبت وحوش الدخان الأسود ، كان يطلق عليك الرجل الذى لا يتألم .

ثم فى نهاية الأكلشيه المزيَّف : " عاشقة واحدة في حياتي ، رغم كل ممن حولي من جميلات ". وتستطرد في زهو :

ـ " أنا أسطورة السوبر مان . أنا دون جوان عصري . أنا.. أنا .. أنا. من لا يعلم من أنا ؟! " ، ومع كل هذا لا تدرى تمامًا أن هناك أيضًا العيون التي تبغضك.

نرصد سريعًا صاحب الدور التالي إلى جوفنا المتحمس ، على مضض نمرره كدواء مُر لابد منه ، نرتب الأحكام ، ننمق الكلام باستعارات ، وكتابات تشاركها حركات أيادينا العاجزة ، ملامح وجوهنا المثخنة بنتوءات الهلاك تسعى إلى الاعتراف ؛ الذي يلتف حول أعناقنا مثل أوراق سلوفان ذي ألوان براقة زائفة ؛ تبرق كلمعان عيون قطة أفزعتك ظهورها في عتمة الليل. لكنك تظل تنجذب بإنبهار مأخوذ إليها ، ولا تدرك أنك على شفا الهاوية ، وصمود أجسادنا وعقولنا الخبيثة يطرح فقط من يخرج بأقل خسارة .

كفاك زهواً ... كفاك تباهيًا ... لا تنكر فسقك . لا تكرر علينا أقوال مثاليتك الكاذبة . ليست كائنات الحياة

الجميلات مجرد مفردات ، لعادات تمارسها وتحطمها كما تشاء . ليست ألعاباً سحرية ، لست حاوياً يتعفف كما يشاء.

انظر إلى المرآة وقل :

- " أنا لست المثالي الكامل " وتنحى عن مقولة : أنا برئ إذا الكل مُدان .... من الأفضل يا حبيبي أن تلوذ بصمت حقيقي دون زيف ، دون البحث عن أن تحظى بشفقة أحد .

مقلتي عيناك المتقاعسة تهذي :

- أنا اليأس ، وأنتِ كمن تنادين فى الجبال على العدم .

أنظر إليك بحب دفين ، وأقول :

- عليك أن تعيش هذه الهوة بعمق .

تقول :

- لم يبق الكثير من دمي بدون أن يصله سم زعاف .
- حبيبي نحن لا نرى ، لا نسمع ، لا نلمس ، لا نفكر ، لا نحب ، ولا نكره كما كنا . هكذا تتعدد لغة الرحمة ، فكرة التسامح ، نحو عبث عالمنا ، كي نحصد مذاقاً جديداً عن مغامرات أخرى عذراء .

لكن التفاصيل عسكرت عند تلافيف عقلك حتى امتزجت ، وتحوَّلت لنسيج هلامي متفرع بأياد ، وأرجل ؛ كالأخطبوط تريد أن تنتقم من الجميع .

- أنت محتاج لقارب نجاة فضائي ، تتلآلآ فيه عينيك المنطفئة بوهج البرق . ربما ترقص طارداً دوامة عشق وصلك الباخوسي ، حينئذ سيغدو تعبيرك المأسوي أكثر سكونـًا .

.... أنت عابر .... عابر ....عابر .

انتظر .... هل فاتتك رؤية المسيح بالأمس ، وهو معلق كجثة واهنة مُساقة للصلب ، ومن جواره الّلصان الشهيران !!!

كان المشهد غريبـًا ، ولإن شئت صاعقـًا ، لكنه ما عاد يدهشنا أكثر من لحظات ، وبعدها يمضي .... ويعبر .... يعبر........ يعبر.

عَابر سبيل

مدينتي تسكن على حافة القلوب ، تزدحم بكل التعاسات ، والأفراح ، وحالات العشق ، والفتن ، والأفكار. بكل هذا الجحيم ، ولا ينبعث صوت البحر الهادئ الصافي ؛ إنه صافٍ لأنه يحتضن كل الكوارث بأمواج متدفقة. تاركًا للشاطئ ذاكراته العطرة. أما الناس في بلدي ؛ فهم يعشقون حكاوي المصائب ، وGrass (المخدرات) ، والنساء اللاتي يتهامسن بها في الصباح ؛ حيث تنسكب ككوب الماء مع الإفطار ، ورشفات الشاي ، ودخان السجائر. أما في المساء يلوكون فراغهم واكتئابهم على المقاهي والنواصي . إنها تمارين للعيش من أجل التكيف مع الحياة بأية طريقة. حتى لو كان عمدًا مع سبق الإصرار والترصد .

إذا ركبت طائرة ، ومر جناحها سهوًا على مدينتي ، ونظرت عن غير قصد . أول شئ سيجول بخاطرك أن تطلق عليها اسم " عابر سبيل " ، لقربها من محافظة القاهرة. تتركز حيويتها في شارعين : الرياضي ، والبحر ...

عند الساعات الأولى من النهار يتجمع الرجال على قهاوي : عمال مصر، والزجاج ، والعهد القديم. خاصة العمال الذين يعملون باليومية ، في انتظار عربة تنقلهم لمناطق العمل ، وتحتويني لغة التأمل عند محطة القطار. أروع ما أنتمي إليه بجسدي وروحي ، إنه المكان الوحيد في نظري ؛ الذي يمنحني بعض التعاطف لهذه البلدة المسكينة.

في فترة الصباح الممتدة إلى الرابعة عصرًا ، تعج المحطة بالطلبة الآتون من المراكز ، والقرى ، والنجوع. للذهاب إلى مختلف المدارس من : الثانوي العام ، والصناعية ، والتجارية ، والجامعة. أغلب قاطني بندر المحافظة يعملون في مهنة التدريس أو الوظائف الإدارية ، لانتشار المصالح الحكومية ، والمدارس ، ولا يوجد بها مصانع كثيرة ، ولا مسرح دائم ، ولا سينما ، غير سينما درجة ثالثة لأعمار الصغار ، أما التجار، وأصحاب الشركات أصولهم ليست من هذه المدينة ، إنما من الصعيد الجواني ، فالمدينة خليط من الصعايدة والفلاحين ، ويتفاخر الصعيدي منهم بهذا أثناء حواره محذرًا :

ـ خلي بالك أنا من قنا ...

ـ خلي بالك أنا من أسيوط ...

إذا أمعنت النظر لدقائق ، وأدرت رأسك يمينًا وشمالاً ستجد أن البلدة يغلقها ويفتحها خمس مداخل أساسية : الطريق السريع ، والصحرواي ، والزراعي، ويوجد آخرين يمر القطار من خلالهما على شريط السكة الحديد الممتد باتجاهين قبلي وبحري ، وإذا توقف فجأة ، وخاصة قطار البضائع ، يشل حركة المرور والناس تمامًا .. وأحيانًا لا تقف فيها بعض القطارات بعينها ، ويبقى سؤال لراكب متطفل فضولي ألح على مخيلته .

ـ بلد ايه دي ؟!

أرد بروح ابنتها البريئة من ذنبها :

ـ مدينة بني سويف... التي هي كعابر سبيل .

تقول ساعة المحطة ، أن الساعة الحادية عشرة مساءً. متوسط كسر الانتعاش والضوضاء في ليالي الشتاء القاسية، ويسيطر صمت يُمزق القلوب . عندئذ ألجا للتمشية على الكوبري لأرى مجرى النيل – أكبر اتساع له في تلك البلدة العابرة – المسمى مجازًا شارع البحر. أراه معتمًا ، حزينًا ، رافضًا ورد

النيل ؛ الذي يعوق جريانه ، ويُعاديه بنباتات شيطانية . كنت أفعل هذا بشغف لكي استحم به من كل غباءات العالم حولي ؛ حتى يهدأ عقلي ، ويمنحني تلذذ خاص عندما أقوم بحك تفاريك تعاريج جسدي المشتاقة إلى مياه بحر حقيقي. وأشعر داخله أنني امرأة متوحشة قادرة على فعل كل شئ.

فجأة أنتعش في إحدى صباحاتي الباهتة. أضحك ، وأتحدث ، وأكل ببلاهة ، وتكون نيراني خامدة ، وتياراتي مكبوحة ، لذلك رأيت أن يجب أن أدرب نفسي على اكتساب ميزة الانفصال عن عالم الضجيج ، ويصبح هو طبيب نفسي المتعبة ، لأدرك به أن التعب مع الوقت سيصبح مجرد زيف ، وسراب ، وسيتبخر مع إجراءات تبديده بمدى صمتي وقوتي ، ويصبح بوسعه أن يتخذ الإجراءات اللازمة ليتلاشى هذا الحزن والألم .

وليكن ما سأفعله الآن ؛ أن أضغط على زر تشغيل الكاسيت (الوكمان). لأنصت لضجيجي الخاص.

حُلمٌ كوميديٌّ

تحت تأثير المخدر الفتاك المصاحب لخيالات العقل الباطنة يظهر المحظور كاملًا ، وأنا أحلم أن أجاذب رجلًا من الرجال الذين اعتدت أن أقابلهم فى حياتي اليومية ، ولا ينشغل عقلى بكثير عما يقولونه أو يفعلونه ، هذا عادة يحدث لي ولغيري .. يتجسد الحلم حين أعيش معه حالة حب خارجة عن مقياس " كيف ، ولماذا ؟ ".

أخذتني اللحظه ، وتذوَّقت حنان الحب فى الحلم ، حتى ذاب جسدي العاشق. فجأة هكذا غاصت نفسى بجرأة فى حضنه ، لمحت نظرته تخترق قلبي ، يمنعني بلمسة من يده أن أكمل أي تبرير ، أي تحليل يفسد هذا الطقس الذي يجب ألا يفسده شئ مهما كانت حسابات العالم الخارجي ، أفقت مندهشة شاعرة بظمأ شديد ، متخيلة أنني أسمع أصواتا ً تحاول أن تخيفني ، اعتقدت أنها أرواح شريرة تبعث بداخلي

روح الشر ، ليصل إلى أعمق أعماق حلمي المستحيل ، نظرت إلى السماء ، لم أجد سيدها الليلي : القمر، ولا حراسها من النجوم ، فزعت من هذه العتمة التي تغمر السماء.

كنت مليئة بالنعس الشهواني .. لم أستطع أن أقف أمام تيارات عقلي الجامحة ، وقلبي يعتلج بحديث له صبغة شوق يكاد أن يفتك بي كندف السحاب ، لا أعرف كيف أمسك بها ؟ نمت ولم أستعذ ، فالحلم كان متجسدًا بداخلى من رأسى إلى أخمص قدمي ، تكررالحلم ، وفى كل مرة أحبه أكثر، ويتسع انبساطى به .

هذا الرجل الذي أعرفه من سنوات أراه كثيرًا فى العمل ، بيننا مودة وألفة ، وخوف كل منا على مشاعر الآخر ، ضبطت نفسي فى لحظة متلبسة ، أنظر إليه بشدة ، تكاد عيناي أن تلتهم عينيه .. روحي هائمة تريد أن تدخل إلى أحضان جسده ؛ بل أريد أن أندفع نحوه ولو سهوًا ، فيحضننى حضنًا كبيرًا طويلًا ، أعترف فيه : أننى لا أعلم كيف لم أحبك من قبل ؟! وبى الآن ما يجعلك تتلذذ به ، ألذ من مزة تعاند بها طعم الخمرالاذع فى فمك ، فأنا دفؤك فى ليالى شتائك ، ولطف فى جفاف حياتك

التي تشمل أمرين : العمل الذي لا تؤمن به ، وتمارسه بقدر عالٍ من الاستخفاف .. وجلوسك على القهوة لتفني وقتك ، كما يفني القمر الشمس ، ويغمره بالغروب ، " أحبك ولا أجد ملاذًا " أقولها ببساطة ومستحيل أن أفعلها فى حياتي العادية ، وعندما أبحث لك عن ميزات أجد أن أهمها فى نظري أنك مسكون بمعرفة العوالم الجديدة ".

يتقلص الحلم المتكرر عند مشهد واحد ، وأنا نائمة فى حضنه لا أفيق من إغماءة الحب العظيمة ، بينما كان عقلي بشكل لا إرادى يعيش حالته الواقعية ، ولا يقدر على استكمال حالة امتلأ بها جسدي بشكل لا إرادي ، أيضًا يمارس عقلي الحرج الواقعي .. نفسي مشبوبة كجمرة ملتهبة تحاول أن تدفعه ، فيقف المشهد عند هذا الحد على غير خاطري ، يدور الحلم فى دائرة مغلقة ، لا أدرى كيف أفتحها طوال الليلة الملعونة ؟ أستسلم ، أحاول أن أعلل لنفسي ما أفعله ، إننى أقترف إثم اللحظة المحظورة.

لا أفقه صنع علاقات اليوم والساعة ، وإن كانت صديقاتى ممن تربطني بهن علاقات قوية ، قد حكين لي ما يشبه ذلك ،

فواحدة منهن أخبرتني أنها حلمت بأنها نائمة مع " آلان ديلون " ، واستمتعت جدًا ، وتمنت لو تحلم به كل يوم ، رغم أنها لم تصرح بذلك إلا لي .. أخرى حلمت أنها تعيش حالة خيانة زوجية فى الحلم ، دون معرفة زوجها بالطبع ، وتحاول أن تطرد هذه الفعلة الأثيمة بوابل من المشاعر ، والإخلاص تجاه زوجها ليغفر لها عن حلمها الآثم الذي لا يعلمه .

عندما قارب النهار على الانتهاء ، ظننت أن طيفه سيتركني ويذهب ، فالليلة الأخرى آتية وعذابي يشتد ، وجسدي يتوجع ، وقد كنت مملوءة بالرغبة فيه ، كلما همست همسة أو نظرت خلفي رأيته يناديني ، إلى أن جاء الليل فكنت كمصاصي الدماء .. هكذا مارست الليلة التالية أستمتع بالحلم ، ومشهده الواقف عند حدود يبخل فيها أن يعطيني أكثر .. أكثر كما أرغب أنا .

لم أشعر بأي إحساس بالذنب كما حدث لصديقاتي ، قررت فى صباح اليوم الرابع أن أذهب إليه فى مكتبه الجديد ، قبل ذلك كان يعمل بجواري فى نفس القسم لسنوات من العمل ، والألفة ، والانسجام ، والضحك المتبادل ، إلى أن ترقى فَنُقِل َلقسم آخر .. دخلت مباشرة دون أن أطرق الباب ، نظرت إليه

قائلة : " هيا قل ما عندك ! اجذبني إلى الحلم الجميل " .

كان مشغولًا بالمكتب الجديد ، ورسم دور جديد يليق بالحجرة المتوسطة الاتساع ، ولكنها له وحده ، قابلني بنصف ضحكة ، وترحاب ، قائلًا باستغراب : أي حلم . ثم تجاهل الإجابة ، و طلب لي قهوتي المعتادة .. صمت برهة عن الكلام ، ثم أخذ وأخذ يتكلم عن العمل ، وحقد الموظفين ، والمشاكل التي تركها له المسؤول القديم .

تركزت فى بؤرة عقلي الأسئلة .. ماذا يحدث لو فعلت ذلك ؟ أحسست أن الكلام سيمحو كل ما حدث ، تمنيت لو كان باستطاعتي أن أكون صماء بكماء .. لكنت أهلا للعيش حتى المائة من عمري ، لا أثق فى الطرف الآخر ، أخشى العشق إلى حد الامتلاك والوصاية الملحة .

لن أعيش فعلي الحر كما أريده ، ما حدث كان حلمًا، وإلى النهاية يجب أن يظل مجرد حلم. ينتهى بمجرد أن أفيق منه ، وأعيش الواقع.

يبدو أنني سأصل إلى نصف الحدث ، عليَّ أن أكتفي بهذا ... لا ... بل سأخبره أنني أحبه. لا .. لا .. لن أخبره ..

تأهبت لأفتت النفس المعلقة كيمامة .. استيقظت على استمراره فى الحديث نفسه ، يتشدق بالكلًام ، يفعل حركات مضحكة ، يسخر بشدة دون أن يضحك ، فضحكت ، ثم ضحكنا ، سألنى :

- " في إيه ؟ "
- " أبدًا ، أصلك تشبه ممثل كوميدي قديم قوي قوي .. يا أخي " .

تحت نفس الشمس

« لقد اختفت حشيشة القنطريون المقدسة من التلال، ولم يبق لى سوى الشمس الحارقة »

و . ب . ييتس

جلست على كنبة الأستوديو رافعة ساقها اليمنى كطفل تُحفضه أمه ، شابكة به ساقها اليسرى ، فأبان ذلك عن بياض تائه ملبد بعرق أفرزه خروجها غير المعتاد نهارًا ، أدى إلى نوم مُضمخ بألم الحر اللافح ؛ الذي عانته طوال الساعات الخمسة التي قضتها بتأفف مع صديقتها غير المحببة الشمس فى هذا الوقت من الصيف .

لم تشعر بأصدقائها وسط إغماءة النوم البائسة ، تجربة رعديدة ماكرة ، تقتلع زهور فتنتها ، وتقطع أنبل تعبيراتها بشكل أخرق.

كيف لها هذا ؟

كل شئ فى شقة صديقها : الجدران ، الوسائد ، الماء ، وملمس الأثاث المتواضع ، كأصابع شموع ملتهبة ، كأن الشمس قابعة وسط الشقة ، كغراب فاتح فاهه للانقضاض عليها ونهش ملامحها الصغيرة بتوحش بالغ ، أكلت سمك القرش الذى رغبته من فترة ، زادته البيره نصف المثلجة طعمًا ماسخًا . تتناول لحم السمكة الهائلة ، المفروشة على السرفيس متلألئة مستحوذة بشكل مخروطي على كل الطبق الصيني ، مستسلمة ، كبنت جديدة فى العشق تُخترق من كل الجهات . تنافر يعانقه تنافرات أخرى تجعل اللقمة تثبت فى حلقها .

تناولا الغداء بسرعة غير مقصودة لمأدبة حافلة باجتماع الأصدقاء الأربعة ، شعرت بوعكة فى جسدها جعلتها تسير بترنح بليد دون أى تعبير أو إيماءات محددة عما تسعى إليه بالضبط ، عقلها يتدرج في الاشتعال ؛ كورقة تحترق من العرق يتفصد من أعضائها كتغلغل نباتات طفيلية. يجب بترها لكي لا تعوق نمو النبات الآخر الخير الطيب .

رأت أنها قد وضعت حدًا باتًا قاطعًا لأي علاقة بنفسها ، أي

ثقة بجسدها ، وفجأة فقدت شعورها بالألفة تجاه العالم.

دلفت للاستكانة فى نفس المكان بنفس الجلسة الغريبة الموحية بلقطة جنسية واضحة ، قفزت بخفة ، ضاحكة ساخرة من زوج صديقتها الوحيدة ، فهو يمارس حياته الآن بآلية مفرطة ، أخذت تتكلم بهذيان محللة سلوكه قائلة :

– لابد أن ترسًا من تروس عقلك قد خرب أمام إصلاح بقية الصواميل ، تخريب ما أدى إلى إصلاح ما ، دفعك إلى الاعتناء بعملك ، فتبدو كإرستقراطي القسمات ، منتشيًا ، لكنك أيضًا حاد الاستجابات تجاه الأفعال ، والأحاديث ، التي كانت تُضحك وتُجلجل في أوقات سابقة ، مع إدمان الخمر ، وكل أنواع المخدرات المتاحة اليوم ، والمنتشرة بين عامة الناس .

رماها بنظرة باردة ملؤها الامتعاض ، ضحكت أكثر، واستأنفت بقوة أكبر سخريتها ، أحاطته هذه النظرة تأكيدًا ، كان صديقها لا يسقط نظره عنها ضاحكًا باستمتاع ، ومأخوذًا إليها تمامًا ، كأنه يتفحص تحفة نادرة على شفا شرائها ، واقتنائها كاملة فى داخله الأجوف . عرض عليها الزواج أكثر من مرة ، رفضت ، ونظرت بتعالٍ مبالغ فيه مقتحمة عرضه ؛ كمن يشق

بطن الذبيحة لاستئصال الضار منها .

- أنا أريد أن أكون صديقتك . لا أكثر. أريد نصيبى الكامل من المتعة ، لا إذن من الأوراق دون قرار غير قراري ، أريد أن أمسك بزمام الأمور بيدىّ هاتين .

لم يعط جوابًا ، ووجه نحوها عينين صقريتين ، ثم نظر إلى قبضة يدها المرفوعة فى الهواء كعلم طليق ، تلبس وجهها برهة تعبير عميق الجدية به شعيرات دقيقة جدّا ، ينتظر من ينقرها نقرة صغيرة ، فينساب هدير الدم الحي ، ليتوهج جنس لا مثيل له ، يفتح الشهية لامتصاص ينزف حتى النخاع .

جاء حبيبها متسلّلا ، وهى لاتزال منهمكة فى قراءة " الغريب " لألبير كامو ، ترقد نفس رقدتها الأولى كمولود رضيع . رحل أصدقاؤها دون أن تبالي ، أو تشعر حرارة الفراق ، منعها كسل الحرارة الساكن فى جسدها ، كخفاش يقظ لا يهمد أبدًا ، جبينها متورم ومنتفخ من جراء وطأة الشمس ، فكل هذه الحرارة تنوخ فوقها وتقف فى وجه إقدامها على أي فعل ، أو ربما من الأفضل لها أن تنظم المكان الذى فقد اتزانه فى تعاملها معه بفوضى .

جلس قُبالتها ، لمس جلد ساقها المشوه رغم بياضه

الناصع ، المرفوع بإثارة ما داخلتة ، فجأة همس ، وقد وصلت يده إلى آخر ساقها عند سروالها البنى غامق اللون ذى المقابض البلاستيكية على هيئة فراشة ، يكسوه عند منطقة الفرج وردة ستانية ، يلمحه غير مكترث ، ممتنع عن أي حوار معه.

هتف بحبور :

- يبدو أنك متعبة .

أعقب كلامه يقول :

- العرق مازال ينز منك ، كأنه غزو لا يقهر .

بادرته بتململ :

- للاستحمام .

نظر للحظة صامتًا وصرخ مبتهجًا :

- لقد أخذت بيد صديقنا لقاع مدينة موحلة بأقوالك الساخرة .

ضحكت مجاملة :

- لم أقصد غير الضحك وملء الوقت ، لقد صبَّت الشمس

فى عقلى شواظًا من نارها ، كأنه طعام يُطهى على نار متأججة منهورًا منهوكًا . لا أستطيع أن أفرق أهو حي أم ميت . عقلت بذهنها كلمة ميت فارتجفت ..

أردف بود :

– تعبيراتك مخيفة ، هيا انهضي للاستحمام ، فصباح اليوم آت علينا أيتها المزعجة .

وإن كانت قد اقتنعت أن الحل هو الاستحمام ، لكن دلفت إلى حجرة النوم ، ودون مقاومة ألقت بجسدها على السرير بخفة ودلع . يقابل نظرها دولاب بني صغير على شكل مستطيل . لا شك أن هذا ما يُطلق عليه دولاب العزاب . ذي ضلفتين بإنغلاقهما يتجسد ما هو أشبه بلوحة كبيرة ، لجمع من الصور مصنوعة من الورق المقوى (لفان جوخ) ، قد ألصقها حبيبها ، كم فتنتها هذه الفعلة العالية الذوق بالفن الأبدي ، والإحساس الكامل بالتواجد الحياتى المميز وسط الآخرين اللاهين . تطلعت إلى الرسومات ، غاصت داخلها تفكر، وتحلم أحلامًا متفائلة، تنظر إليها بالساعات تتملى كل صورة بألوانها القوية اللامعة كذهب خالص ، كأنها رسمت أمس أو

قبل أمس فقط .. يا له من عبقري !!

أخرجت قميصًا من ملابسها الداخلية التى تحتفظ بها بجانب ملابسه القليلة المهندمة ، وإن كانت تتسم بنكهة خاصة ، فهو يهوى البنطال القماش ، والقميص المقلم والسادة ، يشاركهما عادة رابطة عنق لونها بعيد تمامًا عما يرتديه ، فيحدث فى نظرك لفتة مدهشة ؛ كأنها فرقعة سقطت عليك من حيث لا تعلم .

تلكأت فى سيرها قاصدة باب الحمَّام ، نزعت جلبابها بإزاحة الحمالتين عن كتفيها النحيلتين كجسدها ، رغم أنه أخبرها ، وهو يقبلها خلسة عند حافة الحوض فى المطبخ ، أنها سمنت قليلا عندما لامس بكلتا يديه مؤخرتها ، ترنحت سائرة فى الحمَّام غير أنها لم تتمكن من فك مغاليقه البدائية ، فهي تخشى الماء ، وبالتالي لا تستعمل " الدش " مطلقًا . اعتقادًا أن مياهه تسحبها للغرق .

سألها متوقعًا إجابتها :

- إذن أنتِ لا تحبين البحر ؟!

أجابت صارخة بالرفض عكس ما توقعه :

- كيف .. إننى أتمنى لو سافرت لأي مدينة في سفينة بعدة أدوار ، أرى البحر ، أعاشره ، ألمس وجهه الضخم ، وأقف على أعلى حافة في السفينة ، وأجمع هواء العالم فى فمي .. ليتني أفعل هذا .

نسي سؤاله وانساب مع حلمها واعدًا :

- سيحدث يا حبيبتى قريبًا .

حاولت ذات مرة بنصيحة منه أن تخوض تجربة " الدش " ، ارتعبت وكاد أن يُغمى عليها ، يجذبها برفق مرة وبعنف مرة ، إلى حد ما تناست ، والقبلات ، الرفيق المتوحد مع قطرات المياه المنسدلة بهديل الرغبة ، تهزم الخوف الكبير، لكن فى النهاية لم تتكرر بمفردها الجرأة لتفعلها مرة ثانية ، وعندما يئس لم يعد يسألها .

بدأت طقوس استحمامها ، اقتعدت على كرسي الحمام الخشبي ، أفردت شعرها. بدأت تغتسل باللوفة فاتحة الصنبور المتجه إلى الدلو ، انزعجت لخريره القريب إلى أذنيها ، فاجأتها مياه شديدة اللهب ، فأصابت أصابعها لسعة حارقة ، صرخت وتأوهت ؛ فالسخونة كغمة جثمت على قلبها النازف

من ألم الحر المفجع ، أحست أن هناك ناموس يحيطها من كل جانب ، ويهاجمها ، باشرتها الدموع .. اتكأت بذراعيها على ساقها العارية ، منكسة رأسها كمريض نفسي ، يلوذ بجلسته المفضلة .

أخذت تغمر جسدها البض بمياه فاترة ، ناعسة الجريان على الجسد الساخن ، حكّت جسدها بعناد حتى تذهب قطرات العرق ، صادفها شعر خشن أسفل فرجها ، فابتعدت عنه بتقزز كمن يطأ قدمه سهوًا خراء فى الطريق لحيوان ضال ، كثافته ولونه الأسود كطعنة نجلاء ، أربكت الصدفة قلبها الشاحب .

هتفت بإجفال تشنجي :

- لا .. لا ، بل سيقوم بعمله على أكمل وجه .. حتى لو عج الشعر أعضائي ذاتها .. فأنا مشتهاة له فى أقذر حالاتي .

تضاربت الأفكار ، والكلمات ، والأحاسيس ، وكل تلك المشاعر داخلها ، ملأت عقلها كأصوات " حلة " نحاسية .. قرَّرت الفرار من هذا الحمَّام المتآمر بعد أن سمعت " خرخشة " فى مقعد الحمَّام فأحست بأنه فأر يستعد للظهور ، بهتت للحظات متذكرة يوم كانت تغط فى النوم ببراءة طفولية ، وإذا

بها تُفاجأ بفأر نائم بجوارها ، هرعت مذعورة إلى خارج المنزل بقميصها الأصفر ذي الأكمام الشفافة ، حينئذ كانت أمها أمام البيت ، تشتري من بائع البرسيم الذى يمر كل صباح ، لتسليمها وجبة الطيور المعتادة .

ما أجمل هؤلاء الناس الذين يستيقظون مبكرًا فى الشوارع والبيوت ، مهللين بالشمس الجديدة ، والنهار العاجي المرمري ، استعدادًا لتقصي بواكير النهارات الغائبة عن أذهان النائمين العابثين .

صرخت أمها بشكل غير معهود عليها :

- ماذا تفعلين أيتها السافلة ؟!

بينما تسمر بائع البرسيم مكانه ، الذى لم تلمح غير عينيه الحولاء الضيقة ، تلعثمت ، والخجل يملأها ، ولا يمنعها من الهرب ، والاحتماء بأمها بعيدًا عن الفأر ، حتى لو كانت عارية.

هتفت تبكي :

- فأر يا أمي .. الحقيني كان نائمًا بجانبي .... يالهوي .. يالهوي .

جذبتها أمها بغضب ، واشمئزاز أهدر معه كل هدوء الصباح المرتسم على وجهها المعبق برضا عالٍ بعد صلاة الفجر الطاهرة ، طار الخبر كحمام زاجل بين أهل الحي بمداعبة ساخرة ذات مغزى :

- ألم تر " إغما لا دوس " صباحًا ها ها .... ها ها ؟!!

هرعت من الحمام مرتدية قميصها وروب كشميري اللون ، دون أن ترتدى سروالها ، فكل ما فى الحمَّام يهدف إلى مناورة متقنة التدبير .

انطلقت بأقصى سرعة إلى الشرفة ، نظرت إلى السماء نظرة ثاقبة تريد بها أن تمخر عباب السماء بجرأة أفعوانية إلى أقصى حد ، فرغم عريها الداخلى لا تستطيع أن تتنفس الصعداء ، الغيوم الملبدة تملأ سماءها ، نسمات الهواء مخنوقة ؛ كأن هناك من يحجزها عن المرور ، من خلف المساكن كانت تلمح نور النهار الحاد القادم بقوة ليفترش صباحًا ثقيلًا على النفوس ، ينزلق العالم مبتعدًا ، تبتئس كل الكائنات عاجزة عن إقامة أية علاقة ، فهو وقت لا تنفع في مكافحته إرادة أو اشتياق ، واللهب الشهير المنبعث من عيون الشمس ، ينتشر بوحشية ،

والجو صامت صمت العجائز .

أرسلت تنهيدتها العميقة إلى الشمس التي ضيقت على النفوس ، وتشبثت بسياج الشرفة ، شدت أعصابها كلها كي تحاول أن تنتصر على الشمس بخمارها الثقيل الذي تصبه فوقها ، رافعة وجهها محدقة إلى السماء ، وقد تلبس وجهها تعبير مشئوم الانفعال ، تاقت نفسها إلى الفرار من الشمس ، ومن الجهد ، وصبت إلى الحظوة بالظل ، إلى الراحة.

لم تعد تشعر إلا بدقات صنج الشمس الهائلة على جبينها ، هذا الحسام المحرق سينهش أهدابها ويفقأ عينيها المتوجعتين ، إنها نفس الشمس ، نفس الضوء يتفقان لحرق خديها وجبينها ، وقطرات العرق سوف تتراكم فى حاجبيها ، إنها بعينها تلك الشمس التى أصلتها نارها اليوم ، وعروقها تنبض تحت جلدها بابتئاس أمام تلك الحرارة المحروقة ، وقد غشتها بغلالة سميكة على جفونها ؛ ذلك النقاب الحارس الأمين . بدا التنفس شاقّا عليها ، جمعت شتات جأشها وضحكت تهذي :

– لن أسأل نفسى أبدًا ...... ذلك السؤال الساذج ، من يبعث الشر ناحيتي ، الوجوه الماكرة المرتعشة ذات التصرفات

المتعجرفة ، تضرب بأعينها الميتة ، فتغمر السماء بالبريق الأسود ، فيرتفع عاليًا فى السماء عبر السحابات ، وعبر الهواء الساكن الترابي الملامح ، فللشمس اللافحة زبائنها ، ينسلخون مكممين بفوهات الداء اللعين ، ينظرون إلى اللاشئ ، بأجساد ملتصقة وإحساس وحيد :

الانتظار ، الانتظار.

رسوم متحركة

(١)

كان اللقاء مبهوتًا بوحشة الليل ، وشوق باعه أطول وأطول من لقاءات التوجس والفزع ؛ الذى يحولنا إلى قطع صامتة . تلك الشعيرات البيضاء ، وأنت تنظر داخل جسدك وقلبك وتستفهم : هل سريعًا هكذا تستجيب للمشيب داخل مفردات حواسك العافرة مع زمن الطغيان ؟

قالت : هل أعجبتك الكنافة والكعكة ؟

قال برد بارد : جميلة.

قالت : لم تتذوقها بعد ..... كذاب .

نظر إليها باستعطاف الصدق وقال : صدقيني كمرة أولى خطيرة . دلفت إلى قبلة عابرة لا تداوي ولا تمرض ، وتمنت

أن تكون قبلتها كرذاذ ساقط من فم السماء الواسع دائم ودائم إلى الأبد .

خرجت إلى الشارع لوحدها على اتفاق أن تتقابل معه بعد عشر دقائق فى المكان المعتاد . كان الجو منعشًا لافحًا . تصورت كأن أوراق الشجر تسقط ، فسقط عقلها فى هذيان قائلة : أريد أن أطير. أن لا أعود ، وأحلق خلف نسمات الهواء ، فأنين جسدي الممتلئ بحرارة التوجع ، والبعد القاهر داخل قاهرتي الصغرى . في مكاني هذا الذي لا يحتويني أنا ، وباعثي الغائب.

إليك قبلات السماء والأرض . وأخيرًا قلبى أنا فقط .

(٢)

كان كثير الكلام شكا أنه يعيش هيستريا الحديث والتناقض يومًا بعد يوم ، ولكنه يراه تناقض ضروري لأنه فى النهاية يبتدع حل نهائي ، وربما صحيح لآراء كثيرة فى قضية واحدة . صمت فجأة ، فشعرت بهوس الفقدان وثبات المكان أمامها ، وعقلها بات لا يحمل شئ كأن الدنيا رسوم متحركة ثابتة ، تتألف من حياة مصنوعة من نسيج خارجى لا تعرفه ، ولكنه مغزول بنسيج

يحمل تواجدها الداخلي بداخله ، فتشعر بأعضاءه ، وحواسه امتثلت داخلها ، وأصبحت روحًا تحمل جسدين يسير بها شخص ما لا تعرفه ولايعرفها ، و يداها لا تصل إلى الحقيقة بالضبط . فتساءلت قائلة: هل أقتله ؟ ترى هل زمنك وزمني قد مرَّ أم حلمى بزمن الفارس الشجاع هو الذى مرَّ وضاع ؟ لم يبق إلا فهلوة الحديث ، وكذب آلي ، ووشوش متعددة لكل موقف و لكل شخص ، يبدو أنه اعتياد الواقع المرير، والذكاء الاجتماعي ، أكلشيه جوفه كجوف سمكة القرش ؛ الذي يبتلع بلا توقف لحلَّق حوش .

ولكن لا !

زمن الفارس لم يمر ، ربما أصبح سوبر مان . لا يهم التكنيك والتفاصيل مادامت النتيجة واحدة لي ولك ٠

أليس كذلك يا حبيب عمري وقلبى وجسدي المؤتلفان داخل بعضهما فى بحث دائب عنك ؟

الحائط القديم

« إليك فمازال العالم ، يحتشد بك »

أصورة هي لك ؟ .... معلقة على الحائط القديم ، يزيد رونقها ، وسام أخذته لشجاعتك المرافقة ... مرتدياً زيك ترفع بشارة التحية العسكرية المرغوبة ، وفي الصورة اللامعة أنت هو من تنظر بروح ابتسامتك الشجية ، واكتمال نصاعة الحيوية في وجهك ، أهو أنت من فعل فعلته الانتحارية لتتحول إلى صورة مرسومة بريشة فاحمة السواد ، بجوار صورة زوجتك التي سبقتك إلى الموت ؟! لتذهب إلى العالم وحيداً مع صوتك وأصواتنا .. برأس تشغله ملكاته القديمة وحدها .

لابد أنك وريث أمك ، التي كان يأخذك حضنها بهالة من الأحجبة ومبخرة نحاسية عتيقة بزمان الجدة السالفة تجول البيت صباح كل يوم ، لتطرد العين الحاسدة ، لا شك لديها قوة

السحر، والعين ، وقدرتها على صنع المعجزات .

فأنت فى كل لحظة سيئة ترصد أخطاءك بأنك أحيانـًا ما تنسى تعويذتك تحت الوسادة ، أو ترتدي فانلتك من غير أن تشبك الحجاب بدبوس في ملبسك الجديد بعد استحمامك ، تؤمن بغضب الله ، الذي أحاطك دون ذنب .. في الحرب رأيت أحد أصدقائك وهو يموت ببطء ، عذبك إحساس البطء المميت ، تكاسل الزمن عن أن يعفيك من استرسال الدم أمامك إلى أن أطلقت الرصاصة الأخيرة المميتة ، كأنك تقتل عن عمد مهراً جريحـًا عزيزاً عليك ، يستجدي رحمتك بعد أن رأيت تباشير عذاب الموت البطىء فى عينيه المغرورقتين بدموع الانتهاء .

تهرع إلى غير رأسك باحثـًا عن خلاصات أخرى ، لتدور ماكينة العقل الحياتية ، هرعت إلى أمك راكبـًا القطار ، وأنت تسأل نفسك مرارًا وتكرارًا كيف هجرتها ؟ تملأك وحشة وحزن طاغ ، حين اكتشفت للحظة أنك تحبها جداً ، تحتاجها الآن ، إنها هناك ، ثم للحظة آخرى تذكرت تلك الليلة التي كنت فيها معها ... حيث انتهى كل شئ .

كانت عيناها تقول حكايا قديمة ، لكن حينها لم تستطع أن

تنبس بأي كلمة ، كانت عيناها حزينتين ، كقمر يقهره حزنه ، وأنت كنت هزيلاً ... هزيلاً جداً ، لم تستطيع الحراك كما لو كنت طفلاً يحتاج إلى من يخطو به داخل البيت وهو يتشبث بجلباب أمه و للمرة الثانية تعاني إحساس الموت البطىء الأليم ، وقد تحقق رجائها الأخير برؤيتك كمن كان ينتظر تنفيذ حكم الإعدام ، فأحكمت أنت مشنقة القدر حول عنق أمك .

ماتت زوجتك دون سابق إنذار ، فقدت بعض ممتلكاتك ، بطيبة قلبك الذى عانى من فكرة الحرب والدمار ، كرهت العنف ، ولكن حياتنا أيضًا أيها الرجل عنف لا يخمد أبداً .

لقد ماتت من أنت ذاهب إليها .

أثناء هذا أيضًا ستكتشف أنك ترغب في كوب الشاى الذي كانت تصنعه لك ، وستكتشف للمرة الألف أنك ترغب فى تقبيلها على ملأ من الناس ، بل تقبيل قدميها ، وستحزن لأنك لم تفعل ذلك من قبل .

تنظر حولك فتجد آلافًا من البشر الممتلئين ، عندئذٍ ستنزوي وحيداً بجانب باب القطار ، خارج العربة ، لتدخن سيجارة ، وبينما أنت مغرق في التفكير ، إذا بوجه ليس بوجه

أمك يبتسم لك ... ترتعب محدقاً النظر إليه وجوفك يصرخ :

ليس هذا وجه أمي .

يملؤك الغم بكثافة ، تتغير ملامحك ، تنظر إلى القضبان رائياً نفسك فيها كأنها مرآة أبانت لك عن وابل من السخام يملأ وجهك ، وقلبك المهترئ بالاكتشاف المفجع بأن أمك ماتت .

تلح عليك فكرة صنع اللحظة الانتحارية ، وقد أدركت أيضًا أن اسمك أصبح في سجل القدامى ، لا يتذكره أحد كقاذورات الطعام التي تغوص فى مياه المجاري العفنة ، لتصرح بكل فجاجة أنك قديم ... قديم .... قديم ياصديقي .

نظرة الزمن .. رؤساؤك والناس المعتقلون بصراع الحياة يهتفون بوجوب وضعك على الرف ... يا صديقي ... مضت الحرب .. مات ناس ، وعاش ناس .

إذهب بعيداً ، لست في الصورة الجديدة الملونة بغنائم الحرب ، عيناك اللتان لم تمل قط فيما مضى ، التحديق فى عيناي ! هل تستطع أن تجب على سؤالي الحائر، كنجمة فى سماء معتمة تبحث عن رفيق للأسى الذي يحتويني :

كيف فعلت هذا ؟

هل علمتك قسوة الحرب أن الجسد لا قيمة له ، عندما تُنزع منه الروح ؟

ينهمر المشهد أمامي كدلة ماء بارد يسقط على رأسي بغتة ، وأنا في ليل شتائي عصيب أبحث فيه لأطراف يداي وقدماي المعذبتين بصواريخ تعلو وتهبط من برودة لا تهمد أبداً ، عن دفء تنسكب خلاله الراحة السريعة ، وعندما أدقق النظر يهتز المشهد أمامي ، وأكاد أصرخ جزعًا ، وأنا أراك تلقي بجسدك تحت لعنة القطار ، التي فصلتك عن أي زمان كان لك فى هذا العالم ، وأي مكان عشت فيه مع من تحب وتكره ، انتصر القطار عليك وكنت مزهوًا بذلك ، كأنك مازلت تدور باطارات الدبابة القديمة ، التي تقتل صاحبها فى حرب داخلية مع نفسك الممزقة تماماً .

ألا تتذكر يا حبيبي أنني عندما أحببتك أحببت جسدك ، إن له حقاً وديناً فى عنقي ، في ذاكرتي الزمنية ، ومكان كنت أضع فيه رأسي وقلبي وكل جسدي .

أنت في ذاكرتي بقعة مضاءة تملأني بالبهجة اللذيذة .

أنت في قبرك بقعة معتمة تملأني بالرثاء الحزين .

أنت بهذا ، وذاك تصنع لي ما أريده في الكمال المتوحد .

لكنك اغتصبت حقي أن أجلس بجانب جسدك الذي استحوذ عليه الدود الآن، ولن أستطيع أن أمنعه ، ولو بسحقه من كل المقابر ، أنظر ببلاهة إلى القبر الملئ بالأوهام الخالي منك ، فجأة يعمل عقلي بنشاط ، يتراجع عن فكرته المجنونة ، إنه من المستحيل أن أقدر على فعل هذا ، لما لا ؟!

أظل قابعة بجانب لحمك المنهوش ، أظل أفكر ، ينسال تفكيري بهدوء إلى حقيقة بعد عراك شديد ، سيترك لي الدود العظم ، حاقداً فى دخيلته على ما تركه لي ، أما أنا ... الإنسان العاقل ، الحيوان الكبير ، سأكتفي بأن أقضم بأسناني العظم ، فيسري داخلي كدواء يفتت ألاماً فى صدري ، يبصق بصقاً ضاراً من فمي ، يشبع نفسي المحترقة بلهيب الفرقة، وأن ما برز بعد انتحارك جمجمة مهمشة ليست لها ملامح ، وتنطق : إنه أنت من فى الصورة المعلقة على الحائط القديم .

إذن أيها الدود أنت صديقي ، ولكن عليك أن تكف عن شراسة أفواهك النهمة ، عذابات أشياءك الصماء تنتهكني ،

وتلبسني روحك فأسير بإحساسها العظيم الثابت ، أنك حي ، مازلت نعم .. بعيداً عن سجلات الموتى ......

كان كل شيء يبدو معاديًا وقريبًا جداً إليك في نفس اللحظات ، تعلمت كيف يموت الناس بسهولة ، أحببت الموت ، ولكن دافعًا خفيًا يقول لك إنك تحب الحياة كما يحبها القديس والعاهر. كم هو صعب أن تترك كل شيء مهما قلت لك !

تنظر فتجده المساء ... تتحدث عنه دومًا حتى عندما يحل الصباح ، ذلك لكي تقنع نفسك بأن الليل سيأتي حاملاً الراحة ، قد تكون ولت سنواتك الجميلة ، عندما كنت لا تزال هناك تعيش مع زوجتك الوفية ، تعالج مصائب الحياة اليومية بقليل من الغضب ، كانت لا تزال هناك فرصة للسعادة ، لكنك ما عدت تريدها ، لم يبق لك ما تقوله ، فكل ما عليك أن تقوله قد قيل ، ولا تدري كم مرة ... الواضح الآن شيء واحد فقط ، أن اللحم يعج ويتعفن بفعل الديدان ، وبحساب الزمن القاسي يحمل الفناء التام .

أحضر(راديو) صغير كنت تحتضنه في ليلك الجاف ،

منزويـًا بجانب الحائط ، على حافة السرير. فيبدو للناظرين أنك تكاد تلتصق بالحائط المجاور لفراشك ، تتشابك أعضاء جسدك داخل بعضها كأنك توجه الجسد والروح للحائط والراديو والغطاء الذي إعتدت أن تغطي به نفسك كاملاً حتى في أيام الصيف الحارة ، كذبابة التصقت بالضوء حائرة ، ماذا تفعل معه ، وقد فاتها ضوء النهار؟ فتركها أصدقاؤها تعبث بفكرة البقاء ، فتكتشف الليل المضاد لحركتها العادية منتظرة الفرجة الصباحية ، لتلتقي بالأحباب ، وتدخل الصباح الآمن ، تعاند به خوف الليل الذى يملؤك سكونه المريع .

أمامك رفوف مكتبة خشبية صغيرة بها بعض الكتب ، فوق الرف الأول والأخير ، يتوسطها رف زجاجى ، به أشياؤك الضئيلة ، كأنها قطع من الماس تعبر بها عنك ، ولاعة فضية على شكل قنبلة ، تستعملها دائمـًا فى إشعال سجائرك " البورسعيدية " ذات النكهة النعناعية" ، وتعتز جداً أنك من القلة التي تدخنها ، حصان خشبي صغير عندما يرحل عن جفنك النوم تنظر إليه ... تعتليه ممتطيـًا خلفك فتاتك العاشقة ، تطير بها بعيداً إلى حيث ينتشر اللون الأخضر في مساحات واسعة ، وشلالات المياه

الرقراقة تنزلق كانزلاق رغبات جوفك الباحث عن السفينة ذات القلوع البيضاء ، لتجد فى نهاية المطاف نفسك ... الحقيقة الوحيدة العاقلة . كحقيقة أن شمسـًا لا تزول نهارًا ... وتنتظر لمعان القمر الحبيب صاحب العشق الخفي ليلاً .

يقولون باتهام أن لوثة أصابتك من تكرار العذابات في حياتك الخاصة . لم يعوا أنك محتاج فى الحقيقة لأن تسكن رأسـًا ما .. وأن هذه اللفائف الجهنمية التي تعج بها جمجمتك قد هشمت وتناثرت كزجاج مكسور استحال التئامه مرة أخرى ، هكذا كنت تمضي في الضياء المخيف متلفعـًا بإهابك العتيق مشدوداً إلى اليمين واليسار ، فكرك يلهث وراء هذا وذاك ثم تندفع دائمـًا إلى حيث لا تجد شيئـًا . بهذا ستصبح محايداً خامداً ، وسوف يكون ذلك هين ومريح بالنسبة إليك ؛ لأنك ستموت فاتر دون حماس .

إلي برموزك .... تخلد وتبقى داخل قبرك المدعى في عقلي .

هل كان لابد أن أذهب إلى حوش مقبرتك الذي دفنت فيه أجساد أحباءك وغير أحباءك ، يندفع الدمع ، وأنا وسط مكانك

أحاول أن أؤنسك في ليالي وحدتك هنا .

أضع الراديو، وولاعتك القنبلة ذات اللون الفضي اللامع ، وحصانك الخائب ، وعلبة السجائر ، التي لن تفز بملمس شفتيك ، لأتذكرعبق النعناع الذي كان يملأً حواسك ، أرفع رأسي إلى السماء ، تملأً أنفي رائحة الياسمين والريحان المفروشة على جنبات الحوش الكبير ، أبتسم بارتياح ، أقرر أن أدفن أشيائك مائلة على أصيص نبتة مازال وليداً يبذر رائحة ذكية النكهة ، أسير خطوات ، يستقر هنا جسدك ، وأهم بكل حماس أن أشمر أكمام قميصي الطويل ، وأثني أذيال بنطالي ، وأحضر " الفأس " .

يتسللني شلل يؤخز يداي .... تسقط الفأس من يدي ، وإن كان ثقلها غير المعتاد علي قد تزامن مع عجزي الوليد ، فأنهار سقوطًا ساترة بيداي وجهي .... متشنجة ببكاء مفعم .

وفجأة تسقط خيرات السماء المعجزة تهمس لي :

- عليك أن تنتهي من مهمتك أولاً .

أشعر بالخوف ، أرفع يداي ، أنظر فأجد رجل يرتدي

جلباب بني محروق ... **يغرق عيناي** ، فتغمرني سطوة اللون ..

- من أنت ؟

قبل أن يجيب وبعد أن ملأ عيناي بملامحة الطيبة ؛ التي تسلمك بهدوء واطمئنان إليه ، كأنه طائر حكيم يلتقط الخير من القلوب ببساطة ، نازعـًا أي شر ما بداخلك .

- هل أنتَ صديقه ؟

ينظر إلي وهو مازال واقفـًا ، وأنا مازلت أتفحصه بدهشة وطيبة إخترقتني بلطف ، فقربتني من صوته ذي النغمة الطيبة ، جلس بهدوء من يريد أن يروي حكمة ما .

ـ قائد كتيبتي فى الحرب ، كنت أهابه وأحبه ، كان يرى في ما لم أكن أعلم بمقدرتي عليه ، إلا عندما عصيت أوامره للمرة الأولى ، ذهبت بمفردى عابراً للزورق بعد أن أرهقه تشنج أحد الجنود إمتلأ برعب العبور المؤدي إلى الموت ، وبريق المعجزة أن ننتصر .... بل ونحيا وعندما رأيت نظراته العسكرية الآمرة تتحول إلى فرح ، والكتيبة كلها بمن فيها الجندى المرتعب تهلل : الله أكبر .. الله أكبر ... الله أكبر ..

يتدافقون كالنمور المفترسة يطأون أراضينا المغتصبة ، مهللين بالفرح الذى عز دهراً .

أجبته بإعجاب أثير :

- لابد أنك نازعت قائدك في وسام الشجاعة .

أجاب بفتور :

- نعم ... لكن من يذهب للحرب ، لا يبالى بالتحيات المزخرفة المنسية ... مهما تكن .

تذكرت فجأة الحقيقة الثابتة : هل تعرف أنه مات منتحراً روحـًا قبل جسدًا ؟

قال بفخر : أعرف أنه عبر على كل دروب حياته الوعرة ، الحرب .... النصر ..... السلام .... الموت ، وعندما قابلته قبل موته عانفته عناق الفراق ، دون أن أدري. ثم سألني : ماذا وجدت لتعيش ؟

قلت : أعمل ساعي بريد لأقتات العيش لزوجتي وأطفالي تجاه مصاعب الحياة .

عانقني مرة أخرى ، وسأل بلهفة : كيف تسير الأمور يا

اخي بطل الحرب ؟

- تمر كالقطارات ... تنقل الغادين والرائحين .

هبطت مستسلمة فوق الأرض ، مستندة على الحائط ، دمعى يجف رويدًا... روحى تهدأ ، وكان هو قد فعل جلسته المحببة ، وإن كانت غريبة علي ، جلسة الصعايدة الحكائين ، أبناء الليل والحرب ، وبراد الشاي الصعيدي المر؛ الذي لا يتوقف .

عاجلت بطلبي : لماذا لا تبقى لندفن أشياءه ؟ ربما تأتي رحمة ونوراً عليه .

دون تردد رفع جلبابه رابطـًا وسطة بحوافها ، منتزعًا حذاءه المعفر القديم ...مستعداً .... أخذ " الفأس " وبدأ يرفع التراب أحسست أنه سرق برهافة رغبتى القديمة ، في دفن أشيائه بيداي ... مشيت بفرح ، أبحث عن " فأس " أخرى .. وجدتها ، وقفت برهة واضعة رأسها الحديدية على الأرض ، ساندة بيدي على الساق الخشبية .

نظرت إلى اسفل ، وسألت بخجل : هل مازلت تحبها ؟

قال دون أن يرفع النظر :

- ما هذا السؤال ، وهل نملك أن ننتزع من عشق ترابها ؟

تظاهرت بالثبات لأمنع دموعـاً برقت فى عيني : لماذا جئت هنا ؟

فقال غير عابىء ، بينما يحفر التراب : لقد مر علي قبل أن يسافر سريعـاً .... ودون أن يعانقني .... طلب أن أقوم برعاية الحوش براتب شهري ، وحين يموت أكون لحاده فى القبر. ثم أنه قائدي وصديقي .

صمتت نفسي تمامـاً ، وقف مثل وقفتي واضعـاً يديه على الساق الخشبية قائلًا رفقـاً بحالي وحاله :

ـ لم لا تتركين دموعك قليلاً ... لنجفف الدمع بالغناء ؟

فقال مؤديـاً : " صباح الخير على الورد اللي فتح في جناين مصر ، صباح العندليب يشجي بألحان السبوع يا مصر " .

شعرت برغبة تحرضني على الابتسام بقوة ، دفعني دون أن يطلب أن أرفع " الفأس " مثله منشغلاً عني بالغناء والحفر ، دخلت عالمة أرفع التراب ، فى المرة الأولى ، الثانية ، الثالثة

عندما يرفع التراب أكون أنا ألقيت ما رفعته ، صممت على أن ينسجم الإيقاع وكان لنا ، فصرنا كجنود ببذلة خضراء ، بقلب واحد نشد أطراف العلم ليبقى شامخًا راقصًا فى الهواء الحر ، نزداد حماسة ورغبة ، كلما إنزاح التراب توغلنا عمقًا فى الحفرة ... أراه صاعداً يقوم من رقدته مرتديًا بزته العسكرية المخصبة بخضار ورق الزيتون البهي مهرولاً إلى أمه ، يحمل رشاشته المزهوة بوسام أخذته لشجاعتك فى صورة لك معلقة على الحائط القديم هناك.

تنشد بأنفاسك وتغني :

" ورجعت بلدنا على الترعة ، وبتغسل شعرها " .

قلت ألاحقه : " جاها نهار قدر يكفي مهرها ".

نرجس العاشقة

إنه عقد برمه الأحول مع الشيطان ، توضأ باللبن ، وربط وريقات سحره على قدمة اليسرى، والتقى به في مكان مهجور، كلما فعل فعلة شريرة ازداد قوة، ورضي عنه شيطان السحر الأسود.

ـ هو ده اللي بيكيفني يا باشا.

وقفت تهب هبوب العاصفة الهوجاء ، تعصف بردائها الأسود القطيفة ، وطرحتها السوداء يتوسطهما وجه مستدير ذو

بشرة سمراء سمرة خمرية ، وعينان صغيرتان كالعيون الصينية ، مكحلة بأسرار السحر الأسود ، القريب من عالم الممسوسين بلطشة خارج وسادة الزمن المنسي .. إنه عناق ممزوج بغضب ويأس ، وعشق نموذجي .

أدهشت وبعثرت أشلاء المحامي المذعور؛ كفأر وهو يتساءل مع نفسه الشقية : كيف بدأ الحديث ؟ كيف سار الحوار هكذا ؟ كيف لها أن تنهي حديثها بهذه الجملة الفجة هذه المرأة الوقحة ؟ ألا توقن أنني محام ذو صيت وشهرة ، وما كان لها إطلاقـاً أن تكتسح كياني ، وتهدر مناقشتي معها ..هكذا ؟!

صمت المحامي ، صمت من خدش جرح غائر ، وتركه ينزف ببرود ، حاول أن يستقيم فى جلسته ، أن ينهض أن يعبث بمحتوياته الصغيرة المتناثرة على المكتب . بذل جهداً أن يتجاهل عينيها ، وفمها يتفوه بالجملة الأخيرة ، تعبيراً مبرحـًا في أمواج الدفاع عن شهوة الحياة التي تبلغ حداً من العرامة إلى درجة أن تطلب الموت ، وتنفذ القتل ، من أجل كل هذا بذل مجهوداً ، وقد شعر بها تشحنة عاطفيـاً ، وتنقعه فى برميل الاستطلاع والفضول ، هاج وماج، أحس بفوضى المكان ،

والزمان ونفسه ؛ بل والعالم كله ، حينئذ أدرك أن استقرارة النفسي سيعود إليه حينما يقطع صدى جملتها فى أذنه ، ويفتح ملف القضية ليترافع عنها .

هذه المرأة النحيفة ، الكثيفة الملامح ، الأخاذة بنظراتها الدقيقة الممعنة الفصيحة اللسان عن عهرها الأنثوي ، تسكن تحت عروقها وأوردتها ، كالكهوف بدماء مختلطة ، تنم خلسة عن توالد غريب ، وشذوذ مخيف ، إنها كما يقولون نبت شيطاني ، وإنها كما أقول مهرة يانعة بعشق محرم .. يا لها من نرجس جموح !! نرجس عاشقة الأحول.

جاءت نرجس تبحث عن براءة أبيها الأحول ، المتهم فى قضية قتل ولده عبد الصمد ، وعُثر على جثة الابن فى إحدى قرى المدينة عند قرية أبو سليم التابعة لمركز(مدينة بني سويف)، عند مدق ريفي يخترقه طريق دائرى طويل يبلغ طوله حوالي ثلاثة كيلو مترات ، مدق يربط قرية أبو سليم بالمركز تمر عليه كل أشكال المواصلات الإنسانية ، والحيوانية ، وخاصة البهائم ، تم القبض على الأب ، أي الأحول ، نتيجة اعتراف الابن المسكين ، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد محاولة إنقاذه

من حريق هائل قبع فيه ما لايقل عن عدة ساعات أطاح بأي أمل أن يحيا ، فقد كان أشبه بجمرة فحم سوداء ، وقد أكلت ونهشت النار ملامحة تمامـًا، نعود ونذكر النقطة المهمة فى جعلها قضية قتل متعمد. أن ظل يردد وهو فى عربة الإسعاف إلى أن زهقت روحة :

- أبويا اللي حرقني ..... أبويا اللي حرقني.

عبد الصمد هو الأخ الأكبر لنرجس بحوالي خمس سنوات ، وهذان الطفلان كانا حصاد زواج فاشل تم بين الأحول ، وامرأة عرفها صدفة فى العياط التابعة لمحافظة الجيزة ، أثناء إحدى تنقلاته التي يقوم بها على الطريق السريع ، حيث يعمل سائق تريلا ضخمة ، لهواجس مرتبكة ، وشكوك متتالية من الأحول نحو تلك المرأة ؛ التي تشبه الغوازي في حركاتها وكلامها وأفعالها ، طلقها ، وأخذ ابنه عائداً إلى نجع القرملاوي التابع لمركز أهناسيا المدينة في المحافظة . بعد خمس سنوات تقريبـًا ، جاءته دعوى نفقه علم بها أن له ابنة أيضًا ، ارتاب تنكر من نسبه إليها .. لم يستطع ، فالمرأة كانت من السطوة ، بحيث فرضت عليه أمرها ، استسلم وأخذها ،

وقد أغبر لونه وصاحبه شحوب مرير مستديم بسمرته القروية ؛ التي تقترب إلى دكنة باهتة ، وغارت عيناه إلى داخل محجريهما وزاد حولهما ، وإنخسف قلبه ذلاً ومهانة يتأجج ناراً وحقداً معجونـًا باحتمالات تعج بعقله المتشابك ، كالأسلاك يتساءل ابنة من هذه ؟ (بنت القحبة)..! لن أجعلها تمر بفعلتها الآثمة ولو مر دهر.

ظل ليال طوال مزمنـًا تجربته المعذبة ، يخطط ويعيد لنفسه التي أصبحت كالطنبور يزن داخل عقله صباحـًا ومساءً أمر من أي سحر كان يجيده أبوه (شيخ الطريقة) ، وسيدهم جميعا من وجهة نظره ، لا ولن يمل من الحكي عن بطولات أبيه الموثقة بتواريخ تتضمن غالبـًا أوقات مناسبات مهمة ، وبطولات قومية وتاريخية منها مثلا : أنه كان يدعي أن أباه ولد يوم حادثة دنشواي.

دون قصد تترقرق الدموع فى عينية ، وينتفض بما يشبه الحشرجة ، ويضاء الخلل العظيم ، ويشعر بغلظة الذنب الذى انتبه إليه ؛ فتنهمر دموعه لتعلن عن نفسه القاصرة عن صنع مجد أبيه القديم فى أعمال السحر والأحجبة ، يرتفع النشيج

قائلًا : نعم أنا الأحول ، العاجز عن قمع تلك المرأة الفاجرة ، قرر أن يقتل زوجته بعد علمه بخيانتها ، وقد تزوجت من أحد أصدقائة السائقين بعد طلاقها منه مباشرة، تراكمت اللحظات تراكمًا بشعًا ، جعلته يتيبس ويصير كالحطب المتأهب أن تشعل فتيل الإهانة نارها فيه كلما طالته .. فقد أنزلته الشكوك إلى نهاية التعب.

الأحول من فينا يستطيع أن يصفه ، أن يشرحه بمشرطه ، هو الأحول بحول تام ذي شعر كثيف ، أكرد ، أسود ، يزخرف عيناه الحولاء حاجبان كثيفان ، وشارب سميك يتدلى على جانبيه ، بشرته سمراء ، جلد وجهة به جلافه ، والتهابات ، من كثرة تعرضه للشمس ، تلبد به نتوء ، تعصمه من أي تعاطف بأنفه الشبيه بأنف القرده ، إنها خلقة غريبة الشكل ، لا تفصح عن ملامح البشر المريحة ، بل تبعث فى النفس انقباض ، وسوء الطالع .. إنها ملامح حيوان أكثر منها إنسان .. أظن ذلك.

والده كان يمارس طقوس خاصة بأعمال السحر الأسود ، وله جذور وذرية وسطوة بين أبناء قريته ، وله أوضاع فى ممارسة معيشته فقد كان يستحم بلبن أنثى الحمار ، يهوى

شرب دماء الدجاج والطيور الطازجة، مغرم بهتك عرض الفتيات الصغيرات بسحره اللعين، ويجيد عمل الأحجبة، خراب المنازل، إنعاش الحالات الجنسية للرجال و النساء سواء، جلب الأطفال للعقيمات، ولو بمزاولة الفعل الجنسي معهن تحت تأثير سحره الأسود.

إنه في النهاية ائتلاف شاذ، ودافع مثير وقوي لارتكاب الجرائم.

رغم مرور الوقت أزفت اللحظة الحاسمة، وتلبسته حالة شيطانية أن يثأر لشرفه المثلوم، ارتدى جلبابه الرصاصي، وتلفيحته البنية الشائع ارتداؤها عند الفلاحين، أخبأ في سيالة جلبابه فرد ناري صناعة محلية، مدية قرن غزال، تحفة الشكل، البركة كما كان يطلق عليها، ونادراً ما ترك بركته دون أن يضعها فى أحد جواربه عاقداً النيه لقتل زوجته، فتح الباب متأهباً لأي فعل، وأي شر، لأي كائن حيواناً أوإنساناً، لابد أنه سيكون يوم نحسه وشؤم حل عليه من حيث لا يعلم له تفسيراً ولا رداً للقضاء والقدر.

اصطدمت عينيه الحولاء المفعمة بالشر، والغيظ المتصعر

الواضح بنرجس، فزعت نرجس التى كانت تبكي فقط، ثم صرخت صرخة مدوية، أرجفته، وأرجعته عن هيئتة (الدراكولية)، حملها ممتعضـاً، وهى ترفع صوتها بألم :

- بطني اتموتني يا بوي ... آه .. أه ... أه ...أه ... أه ... أه..

- إنزعج، ألقاها على سريرها، وقد تدفق له شعور بثقل أنثوي، وداخلته أسئلة، تغاضى عنها وهى لا تتنازع بصراخها عن كلمة :

- بطني يا بوي ... أه ....

توترت أعصابه أكثر، ورأى الدنيا مقلوبة مع انقلابها الأساسي، نهرها وهو يجذبها بقبضة يديه القويتين متسائلاً :

- مالك يا بت فى إيه .. حصل إيه ....؟

- تلعثمت وسط الدموع الغريزة، تهرف بكلمات غير واضحة الدلالة، أمام الإعياء والألم يطحنها بمتراس ثقيل الوطأة على الجسد الصغير بعد، يحولها فى لحظات لا تطاق إلى حيوان جريح مصاب فى عمق حياته وصميم قلبه، فازت اللحظة بنرجس التي كانت للحظة سابقة زهرة حوشية مروراً

بالمحكات المثيرة إلى أن نطقت وتفوهت بجملة نفاذة الرائحة.

- تحت يا بوي ... تحت آه ياني يا بوي ...

خرج من حالته القديمة، ودخلته روح أخرى حقيقية تبحث عن صفاء للشبق الكثيف الدفاق بالحياة، والتخوم الغامضة بحضور لا غلاب له مع نرجس، ولا مغالبة للشر الآتي.

نزع عنها زيها المدرسي الأزرق حيث عودتها المفاجئة منها؛ حيث كانت لازالت في المرحلة الإعدادية، يتبقى على جسدها قميص شعبي رخيص ملون بالورود الحمراء، والصفراء والخضراء باهتة داخل جسد خمري لزج طري به قليل من السمنة المتلصصة بنضج أنثوي، ونهدان لم يستديرا بعد، يرتعشان مع باقى أعضائها، غارقة فى بركة من العرق الساخن.

احتار معه الأحول حيرة ممتعة إلى أخر مدى ارتعاشاتها، واهتزازاتها؛ الذي بدأ يتحول إلى أنين مكتوم، تجز على أسنانها، تتشبث ذراعاها بصدره كي تبحث عن ملاذ دافىء.

نزع عنها القميص الشعبي المبلل بغرض تبديله بآخر جاف ، وجد لباسها أيضًا مبللاً فنزعه أيضًا ، ورأى تجويفًا مبللاً مفتوحًا ينبض نبضات متواترة تحت هذا البطن الطفولي. تسقط بثقل قطرات دم قاني اللون ينزلق على ثنايا الفخذين. نذير شؤم أن مصيبة ستحدث. هكذا انزاحت الغاشية ، وبانت نرجس عارية إلا من بللها ، ودمها ، ونشيجها ، وعيونه الدنيئة تشاهد الأمور الآن باستقامة لا مثيل لها ، وفي عصف شهوة محرمة تراجع لبرهة يقول لنفسه حائرًا بالشك اللعين :

- إنها ليست ابنتي .. هذه المرأة العاهرة ألصقتها بي فُجرًا منها ، وأحس أن المهانة تغوص في أعماقه ، ويتشبع بها حتى قمة رأسه ؛ الذى يكاد أن يجن من فرط تمرده وشعوره الذليل ، استجاب للذته المريعة والمتعة الخالصة ، وهو يحتضن نرجس التي ترتجف قائلة :

- بردانة قوي قوي يا بوي ....

تعانقت لحظة الامتزاج الأبدي ، وشوق غير مبرر، وارتدت روائح القلق والترقب ، وضع يديه على كتفيها ، واحتضنها بين ذراعيه ، ارتفع الوهج ، تأوهت وفتحت عينيها ..

رصد الأحول التأوه في العينين اللتين يكتسحهما الوهن بلحظة بدء الرغبة. حتى اشتعلت فيه كل الرغبات التى لم يكن يدري بوجودها ، وكلما امتلأت الفراغات بتعاريج فعل الحب تسقط نرجس فى هذا الركام المستعصي ، وترتعد بقوة وهى تشعر أن شيئًا قد تملك جسدها ،اخترقها وسكن ، ارتجت له أوصالها جميعها ، وأن روحها استلت منها ، وأن سرها الإلهي قد صار معلنًا ، منطلقًا يحصد أي متاهات مع انسياب المزيج التشكيلي الأعجوبي.

أقف بنوع من الجمود واللامبالاه أمام اندفاعات النفس ، واختراقاتها المختلطة ، العبثية من أضخم الحقائق.

لكن يظل قول واحد ، أن دم نرجس الملوث الملطخ قد شابه براءة ما طهرت به قلب أبيها الكئيب ، ودماء طمثها الأنثوي تمتص به كل عصارات رجولته ، وحقده وثأره المدعى على ضفاف خيالات جسدها المتوفز؛ الذي ينضج ويكبر تحت لمساته فكانت معشوقته التى لم تستطيع عوادي الزمن أن تمس طابعها الأصيل داخله وجلالها المكنون ، دم نرجس الوثير البرَّاق أنقذت به دم أمها الشخص البعيد أمام القدر بأمور

أخرى ، وتكون نرجس القربان الذي استباح دمه بكل رضا ، وقد ابتعدت عيناها في إغماضة خجولة مسلمة طريقها الحياتي كله للمجهول .. مجهول الأحول .

جلس على كرسي خشبي مقابل لنرجس التي أغفت فى نوم عميق كمن ينتظره من سنوات . اشتبك في تدخين سيجارة كان يمضي وقتاً فى لفها وتدخينها ، يسترق النظر لوجهها النضير الطفولي مخترقاً بياض دخان سيجارته الملفوفة ذات الطعم اللاذع ، وقطرات الدم الفاسد بين أعضائه تضايقه.

بعد يومين ساءت أحوال نرجس الصحية بما أدى إلى استدعاء الطبيب؛ الذى أخبره أنها تعاني من التهاب حاد باللوز، ويلزمها عملية هذا بالإضافة إلى آلام التغيير الجديد من الحيض.

" المتهم بريء حتى تثبت إدانته " !

بهذه الجملة هدأ المحامي من هواجس الأحول ، وعشيقته نرجس ، وزوجته العاقر الصامدة الشامخة القامة ، ملفوفة بالبردة السوداء التي انحسرت عن رأسها المحاط بالشال القطيفة الرصاصي ؛ الذي يضفي على ملامحها القروية جمالاً

بلديـًا ، ثاقل الظل بنسبها لهذه العائلة المنحوسة ، التي تأتي بكل الأخبار المشؤومة .

دخلت العاقر عالمهم بحظ سيئ، ولم ترحمها قلوبهم الخبيثة ، وعقولهم الخَرِبة ، وكان عليها أن تدخل بوتقة الصراع .. تمتزج قلبـًا وعقلاً وجسداً لتشرب من نفس الكأس حتى تصير ريشة سوداء ، هفهافة تطير فى أفق تظراتهم المنحرفة والذاتية الأنانية.

أثبت المحامي ،بمعاونة الأحول الذكي ،أنه في يوم الحادث بالضبط ، كان مسافراً عند أقاربه فى المنيا لعقد إتفاق عمل حيث تم تأجير سيارته لشحن بضائع ، هذا ما أكدته التحريات ، أما ما تكنه العقول يتجاوز إرتفاع السموات السبع ، ويشيب له شعر الرأس، الأحول ذهب فعلاً عند أقاربه الذين تعودوا على تأكيد المودة ، و" تربيط " العمل ، والاحتفاء ببعضهم لبعض ، وقضاء ليلة ساخنة تهترئ بها هيبة أعظم الشوارب تحت تأثير شرب " الجوزة " الممزوجة بقطع الحشيش النقي ، تسلل ليلاً بعد نومهم المخدر تمامـًا ، وارتدى ملابس سيدة ترتدى النقاب .. وأنجز حرق ولده عبد الصمد ، وعاد لأقاربه بنفس الملابس ،

وبات ليلته ، وكـأن شيئـًا لـم يكن ، هذه التمثيلية البارعة لم تكن تعني المحامي والأحول أمام تحقيقات النيابة لذلك لم يعلق المحامي المتجهم تجاه الأحداث كاملة ، إنما هو يخربش فى أمر واحد وهو نرجس ، أين حلقة البداية معها ؟ وكيف تنتهي الأحداث بها ؟!

نظر المحامي بعيون مترقبة قلقة ، يريد إجابات عن مضمون المحضر؛ الذي لاحق مقتل ابنه عبد الصمد تقدم به زوج نرجس السابق متولي ، بأن العاقر ليست الأم الحقيقية للطفلين ، وإنهما من نرجس والأحول التي تعاشره معاشرة كاملة ، ويطلب تدخل الطب الشرعي ، وعمل تحليل الجينات من الأحول ، ونرجس ، والعاقر، والطفلين لإثبات أقواله ، التي أدلى بها فى النيابة ، لأنهما ليس من العاقر.

تلعثم الأحول ، وأسرع يقول :

- إنت بتقول إيه يا بيه ؟

- ده الكلام اللي إتقال ياروح أمك ، والحقيقة أعرفها منك دلوقتي ، وزهقًا قال المحامى ملقيـًا بدوسيه القضية :

- لا .. لا .. إما تأخذ القضية دي من هنا.

اعتدل المحامى لزوم الشغل، وأرخى عضلات وجهة المشدودة وكلامه الحاد مسترسلًا :

- أنا اللي هدافع عنك يا أحول يا غبي ألا تثق بي !

- بدون توقع رد الفعل بكى .. ولانت نفسه، يتهدج صوته مستعطفـًا :

- يا بيه دى مش بنتي والله العظيم .

مضى يروي ملفقـًا تفاصيل، ومعاذير وتفسيرات .. لتردع من أمامه، وتُخضعه لمنطقه، وكان هذا تبرير لحالته، ورغبته الشهوانية الجارفة الشاذة، ولم يكن من تفسير واضح لأي موقف أو حقيقة.

أثناء حوارهما الذي كان أشبه بجلسة طبيب نفسي مع مريض، فى الخارج تنتظر العاقر زوجها المستعار، والديكور فى حياتها، هذا مع تذكر أن هذه المرأة، هي الأم المسجلة لهذين الطفلين، ومنه انطلق بلاغ زوج نرجس السابق لتكذيبه وفحصه، بذرة العلاقة الغرامية التي بين الأحول ونرجس

ابنته العاشقة ، وبالتالي الطفلان لا يختلفا فى ملامح وجوهما (الملخبطة) المتنافرة وخبلهما عن الأب والأم الحقيقين .

كيف تشعر هذه المرأة ؟ وهي تجلس بهدوء تام مع ابنته وعشيقته والأم الحقيقية للطفلين ، تتسامر معها كخل حميم ، تنظر إليها بعينين واسعتين لا مشاعر فيهما ، حيث لا أثر فيهما لكره أولغضب أو تمرد .. كيف أبدعت حياتنا تلك الأصرة الغريبة التي لا يتخيلها عقل قط ؟ تتبخر كل الكلمات ، وأي معان في لون عينيك الباهت الكريه كصدفة سوداء ، وأنت تلعقين فتات الأحول ، تعيشين تحت سفحة في آخر قعره القاحل ، سوى امرأة فقيرة ، مطبقة الفم لا تزايلها جهامتها وصلابتها لحظة واحدة غير أن تتدحرج من عينيها دموع نزرة شحيحة صامتة ، أنت امرأة موصومة برحمك العطب ، ودم فاقد لأي خصوبة ، ونماءً. أنت امرأة مضروبة على يسار قلبك بسكين عميق ، وعريض يغوص ويطفو ليلاً ، ونهاراً على سطح بركة آسنة تسكنها تماسيح مفترسة تحيط بجلال موقفك الفاشل ، تجلسين كالمشدوهة دون أي حق لك ، تبتسمبن ابتسامات قليلة لعل النهاروالليل يمران ، لا تهزك أي خطوات جسام غير أنات الليل وآهات لذة الحب من نرجس المولعة ،

التي بالفطرة تعلمت حب مغتصبها وعشيقها وأبيها ورجلها. وقد اختارت أن تتفوق على القوانين والنظام، وأن هناك طغيان آخر ينضوي تحت نيره أيقونة مغايرة وراء ساحة الواقع الذي استتمنا إليه، وركنا إلى مألوفه المريح .. لابد أن نرجس تراجعت بنفسها، وطبيعتها للحظات لكن أيضًا شيطان الغواية يتبعها .. فقد تزوجت متولي صاحب الأربعة فدادين، المتيم بنرجس التي كانت أهم طموحه بعد الأرض، ولكن نرجس كانت مدفوعة بقوة راسخة داخلها لا تفهمها ولا تقرها، ولا تملك لها دافعـاً، إنه سر غامض يتعالى على الحب الجسدي فقط، يتجاوز محدودية الذات، وكنه مجرد التذاذ حسي

أيتها العاقر .. كفاك من كلمات عابرة تخمدين بها عذاب ضميرك .. أليس كذلك ؟!، فتسطيح الأمور لا يمحو كمدك وقهرك المطلق، وأنت تضعين بهمسات لا إرادية وإلحاح يديك على فرجك الخائب العاطل، وينبسط ذراعاك يمهد لبتر آلام المعدة المستحيلة، والمستفيضة بمشاعر القبح، تشدين من أعصاب ذراعيك حول بطنك المخسوف المترهل الطري. تبنين به سداً تواجهين به كراهيتك لهذا الليل المتفاني فى خدمة هذا الساحر الأحول الأسود القبيح .. كائنات الليل البوهيمية،

وكل الأشياء تجعلك تنعقين كغراب ، يبرز معه عظم وجهك ، كأنما تعرى من اللحم ، وكل متاهات الحياة .. تجتاحك نوبة عنف تفقدك التحكم في نفسك .. تتلعثمين في الكلام وسط البكاء. بعد دقائق تهدأين .. بعد دقائق أخرى تجف الدموع .

ويظل نعيق الغراب ..

يا إلهي ... أيتها العاقر كم هو فادح ثمن اشتهاء الجسد الذي لا يوقفه سرج أو لجام.

انهار الأحول فجأة ، وبدأ ينوح كالنسوة باعترافاته التي ضيقت الخناق حوله كمن يربط حبلاً سميكـًا مشدوداً حول رقبته.

أشعل المحامي دخانه الكثيف ، ودون أن ينظر إليه ، وقد مَرَّ فى خياله ملمح خاطف لظلال هذه المرأة الشرسة نرجس ، وقال بمكر :

- ليه حرقت ابنك ؟

رد وهو يعتصر حزنـًا وهمًّا ، مرغمـًا على القول ، كأنه أمام قديس يجلس على كرسي الاعتراف.

- كان عاوز فلوس ... مقدرتش أبيع الأرض .. هددني إنه هيبلغ عني الجماعات الإسلامية ، ويقولهم عن العيال ونرجس ...

خرج الأحول ممزقـًا يرتدي الحياة فى كفن ينتظره ، غداً هو ، والعاقر، ونرجس ، والطفلين صباحـًا سيذهبون إلى النيابة ، ومنه إلى المعمل الجنائى لأخذ عينات من الشعر، وجزء من الأظافر منهم جميعًا ، لإثبات صحة ما قيل فى المحضر الذى تقدم به متولي زوج نرجس السابق ، لغة انتقام تبحث عن خطها على الورق لينال متولي من نرجس ؛ التي دمرت طموحه ، وآماله ، وحياته كلها بحبه لها . بل وقتلهم للشاهد الوحيد على إثمهما عبد الصمد.

" لابد من الاستعانة بخبير معمل الجينات " .

كرر المحامي الماهر الساحر فى عمله الذي يضاهي به الأحول والعالم ، وإن كان فى صراع آخر ، ردد جملته الداهية للأحول الفاغر الفم كالمعتوه ، ودون أن يشرح المحامي القناص أي تفاصيل ، ألمح بخطورة موقفه من القضية هو ، ونرجس ، وزوجته الشريكة فى جريمتين " نسب الأطفال ،

وقتل عبد الصمد".

إندفع الأحول يهوي كصخرة على حافة السقوط .

- يا باشا .. يا باشا أنا تحت أمرك .. إن شاء الله أبيعلك فدان .

أرشده المحامي اللئيم عن خطة يقوم بها أثناء ذهابه ، مدعيا بتفكه مع توفيق من عند الله ، ولكن تلزم عملية التنفيذ اللقمة السائغة فى فم أي محام مخضرم ، قام الأحول بتأجير سيارة على حسابه الخاص لأخذ العاقر ونرجس والطفلين إلى القاهرة ، حيث معمل الجينات ، وهذا مسموح به باعتبار الأحول مازال متهماً بعد أمام النيابة.

أرسل رئيس المباحث عسكري يقوم بالحراسة مع بعض الأوراق والأوامر ، وأثناء سير السيارة قام الأحول بأعمالة القديمة المتوارثة عن أبيه بالتأثير على العسكري ، استدراجة بالكلام من خلال السجائر، والطعام ، والحديث الودود ، وإن كان وجه العسكري المشوب بتلافيف العمل المنهك ، والخدمة الطويلة بطاعة رؤسائه بلا أي جدوى أو قيمة ، والعمل الشاق ، لا تبالي كثيرًا ، رغم ذلك يحظى ببعض

البشاشة ، والتسامح ؛ الذي لا نجده إلا قليلاً فى وجوه رجال مثل هؤلاء.

برزت أهم عناصر نجاح القصة .. عند مركز (الحوامدية). وقفت السيارة فجأة ، وتعلل الأحول بأن يرجوه أن يمر على أخيه ليطمئن عليه ، فالمسافة إلى المنزل قريبة من هنا ، وافق العسكري بعد أن أطبق يده ببعض النقود ، ذهبوا إلى منزل أخيه المدعى ، وهناك كان الأحول يرتب كل شىء تقابل الأحول ، وأخوه بالسلام والأحضان ، وبعض التوابل لفتح الشهية. كبكاء الأحول وأخيه ثم العاقر ثم نرجس ثم زوجة أخيه ؛ التي فأجأتنا بعدد لا يقل عن تسعة أطفال بأعمارهم المختلفة ، دخل العسكري ، والسائق ، والأحول ، وأخوه يشربون الشاى سريعـًا كما شرط العسكري ، على الجانب الآخر مشهد نرجس ، والعاقر، وزوجة أخيه ، وضجة ، ولغط هؤلاء الأطفال الكثيرين يوحي بعكار غريب تفوح منه رائحة السحر الأسود الخبيث ؛ الذى يملك معطياته فى نظرية الصراع الإنساني ، لم تقل نرجس للعاقر كلمة ، ولا هى قالت لها حرفـًا .

كل شىء كان يدور فى مدارالمشهد بحنكة شديدة ؛ تفصح عن قوة هذا السيد العبقري الأحول ، فهو سيدهما ، ورجلهما ، وأبو أطفالهما لكلتيهما.

بعد نصف ساعة تقريباً ، تعجل العسكري الأمر، وكأنه كان تحت تاثير منوم مغناطيسي. استيقظ منه ، وأمر أن يذهبوا فى الحال ، وخرج العسكري والسائق والأحول ، والعاقر ونرجس وطفلان آخران متقاربان فى الأعمار ، والزي مختلفان إلى حد ما في الحضور والانطباع عن طفلي الأحول المنحوسين ، ذكراً لحقيقة بسيطة أن العسكري نظر أكثر من مرة إلى الطفلين ، وهما يركبان السيارة نظرة مباغتة مليئة بالسؤال والتشوش ، أطلق الأحول توسلاته ، ورجاءه المزعج متشاغلاً عن نظراته :

- والنبي .. والنبي يا حضرة الصول .. ما أقدرش أخد أخويا معايا إيه .. والنبي ..

- نهره العسكري ، وقد انقلبت ملامح وجهه إلى الوجه الآخر. المعروف متغيظًا من شئ خفي داخله دون أن يلمسه أو يعيه قائلًا بضجر :

ـ ما قلتلك .. يلا بقى إنت ما بتفهمش .

أخر تعليق يمكن أن يُقال عن هذه الخطة ، أن الضابط كان من المفروض أن يختم الطفلين حتى لا يتم تبديلهما .. ورداً على هذا ، أن هذا لا يحدث إلا فى الحرز (لفافة مخدرات ، ملابس ، أشياء مادية) ، وليس البشر، وبقية الإجراءات تم التعامل معها بطريقة ما أو بأخرى .

المهم أن القضية حفظت ، ولم تعرض على المحكمة ، وحصل الأحول والعاقر على البراءة.

وعلل المحامي أن ماقاله ولده عبد الصمد فى أثناء إسعافه من الحريق ، بأنها حالة هذيان من هول المفاجأة ، والصدمة العصبية من جراء الحريق المروع.

ذهب الأحول ونرجس التي كانت أشبه من تكون فى ليلة زفافها تلمع كالأضواء ، دونما العاقر .. العاقر من أي مطلب ، فهي العاقر، ولم يعد لها دور ، ورصيدها الحياتي صفر ، ناول الأحول المحامي أتعابه التي يستحقها ، وخرج تاركاً نرجس فى مكتب المحامي الكبير ، وأخذ يداعب المحامين الصغار ، وطقم العمل ، ويضحك ضحكات عالية يصاحبها سخاء

نقدي ، ونكات ، وقفشات ، وشتائم وسخرية تلعن الدنيا وما فيها.

طرق المحامي يسأل نرجس ، وهو يضحك ضحكة ثاقبة حادة ليست كأي ضحكة ؛ رفيعة مسنونة كحد سكين وقال :

- مبسوطه يا نرجس ؟

وقفت دون أن ترد ، تصافحه ، تنظر إليه بعينين جاحظتين تتفوه بسرية مفضوحة ، ووقاحة وحب ، ورغبة ، وحياة ؛ ينفرج من فمها ابتهاج عظيم يصرح عما بداخلها :

- ما قلتلك هو ده اللي بيكيفني يا باشا .

قص ولصق

كانت تبحث عن أوراق ملونة بألوان الأحمر، والأزرق ، والأسود ، والأبيض ، فقد قررت أن ترسم أشكالاً فنية من هذه الأوراق الملونة المتناثرة على أرضية حجرتها، جلست متكئة على جدار الحائط ، عيناها زائغتان لا يحملان أي دهشة أو حماس لعمل شئ . تعجبت واندهشت عن ماذا تبحث بالضبط لتشكل هذه الأوراق الملونة ؟! تجاهلت كل ما هو ضروري أن تفعله ، وذهبت تبحث عن مخيلة أخرى تفكر فيها ، وهي تتساءل قائلة : هل كان لابد أن أغترب هكذا عن كل أحلامي ، وآمالي ، وأتوارى في نهاية الأمر داخل حجرتي ؛ كجرذ صغير ينقر بعينيه الدقيقتين اتساع عالم لا حدود له ؟!

نظرتها عانقت الجدار الذي أمامها ، متراصة عليه صور الأحباء القدامى ، وبنظرات طويلة قرأت الذكريات داخلها بشكل واضح ، فكان الانهيارالكبير ، وهي تغوص فى محيط

الذكريات الواسعة، تخيلت كل صورة فيها بلون مغاير من صنع تخيلها، وهم يشكلون المعنى والمغزى الأهم . قالت تخاطب الذكريات بتحد: إذن عليّ بصياغة ماهو ملائم من أشكال، وألوان أخرى غير حقيقتها؛ لتعبر عن أرواحهم، وملامحهم كما أراها بتصور مختلف يناسب مدى ارتباطي بهم.

تذكرت حبيبها، وضحكت من سخرية القدر، وما حتمه عليها الفراق الكبير، الآن ... وهى تعايش نفس الموقف لها من قبل، لكن الفارق هائل. هي وحيدة الآن وتبحث عن أفكار جديدة مبتكرة لعمل لوحات فنية؛ للإشتراك في المعرض السنوي . وأصبح حاضرها بدون حبيب بعد هجرها. بجانبها كل أوراق القص واللصق الملونة مهيَّأة كسمكة شهية المذاق للاقتناص، نظرت مرة أخرى إلى صورة حبيبها على الجدار، تذكرت ما كان يفعله بحوائط المنزل، كان يلصق لوحاته الورقية الصغيرة من اسكتشات، وعندما يفرغ منها، ويجد المساحات بعد فارغة، يطلي الحوائط بألوان، ورسومات مستوحاة من بعض المجلات، وأحيانًا من نظره إليها . تأوهت بحرقة الجمر الملتهب، أحست كأن قلبها كرة متأججة الاشتعال

تكاد أن تنصهر ، بكت واضعة رأسها داخل راحة يديها ، ثم داخل قدميها ، وهكذا تتالت أشكال الاختباء والهروب .... حتى كانت الطامة . غرفة بيكاسو ، أصرت أن تدخل النعش المغلق ، انتفضت قيامًا كمن يأمرها دون ارادة منها أن تذهب إلى هذه الغرفة المغلقة .. اللوحات منسقة فى منتصف الجدار على مدار دوران الغرفة ، واتساعها ، تذكرت رقصة الحب مع " بيكاسو " العظيم .

عندما كانت تقف لتتأمل تلك اللوحات، التي تحيط دوران الحجرة ، فتدور فى أرجاء الغرفة ، ويوحى لها هذا الدوران أن ترقص مع نغم إيحاءات لوحات بيكاسو المتراصة على الجدران بانتظام ، وتجذبها تفاعلات حلقة المشاهدة في هذه الغرفة أكثر بمجرد أن تضغط على زر الكاسيت ؛ فتنصت وتتفاعل روحها مع نغم الموسيقى الذى يتدرج فى صخبه ، ليحول عالم الغرفة الفنية إلى وطن محبوب متجانس الأطراف ، منسجم ، وتتدفق أطياف الفن داخل همسات قلبها المشتاق إلى كل حركة جسدية تدور بها مع حبيبها ، وتحولها إلى جسد ، وعقل حر يشهق ارتفاعًا وهبوطًا بحثًا عن شهوة طاغية ؛ لاستحواذ أكثر من مذاق الحياة الشهي.

خرجت من غرفة بيكاسو ، وذهبت تجلس عند الجدارالأول ، ساقاها ممدودتان ، وقد احتوت العالم فى غايته لها الآن ، وعينيها متوهجتان بألق ذكرى رقصة الحب ، ثم تربعت فى جلستها ، وقد حسمت قرارها داخل نفس اطمأنت أخيرًا تهمس بخفة :

بألوان حبيبي السوداء ، والبيضاء ، والحمراء ، والزرقاء سأشكل بها أرقامًا وحروفًا ، وأشكال عن ذكريات أرواح باتت ماضي بعيد ؛ لأستدعي بها روح الحياة الجديد بكاملها ؛ وداخلي العميق يستعيد أرواحهم ، وروحي بين القص ، واللصق.

عصا الشيخ مصطفى

أيها القارئ المغمور، واللاقارئ المقهور هل تقرأ قصتي ؟ هل تعتقد في حقيقتها ؟ هل لديك ظنون في أن أكون معتوه ، مجنون ، أو أن أكون كائن غير موجود ، أرتدي " ميكرسكوب " الحياة ، أدخل منظاراً في أمعائك الدقيقة ، ستدرك أنك غائب ومُغيَّب ، تعيش فقاعة هائلة شفافة بالتفاهة ، تشاهد التليفزيون. تقتل عقلك ، تسمع أقوالًا ليست هي بأقوال الحياة ، هيا انتبه واعرف أن الناموس ، وأنت تغط في لغز العقل الباطن بإرادة نائمة يا مغفل ، قد أسبح جبينك ، بحبوب حمراء ، لا تبث الألم أو الشعور بالقحة ، إنما مشهد محبط على جبينك ، لا تنكر أن الناموس قد امتص دماءك كما يريد . أثناء حياتك المتسربلة بالعار ، المستسلمة لعالم البعوض ، وعالم سنواتك المضطربة ، بينما أنت تغدو، و تروح بلا استقرار بين الشوارع ، والحارات ، والبيوت مثل أفعى لا تمل من تغيير جلدها ،

تبحث عن حاجاتك بمخلب وحش أناني ، بتشوهات صريحة ، جارحة بين خلايا قلبك الشاكي دائماً .

مطر.. مطر

قد يميل بعض القُرَّاء غير المعتقدين بتعال في العفاريت ، والجان إلى الظن بأن الشاب الذي أتحدث عنه إنسان مريض ، ذو طبيعة قاحلة بصحرائها الممتدة في خلاء مهجور، من كثرة امتلاءٍ هتك خلايا قلبه وخربه ، إنه واحد من أولئك الذين نحكي عنهم بشغف مستنكرين (يا لهوي .. يا خرابي .. إزاي حصل كده. أبصر إيه .. إيه يا ختي .. والنبي حصل .. اوعى لحسن الواغش بعيد عنك جه). أولئك الحالمون المتيمون بالنظرات الصاعقة نحو الحياة.

في الواقع أن مطر كان في تلك الآونة عكس ذلك ، إنه رجل فى أواخر الثلاثين من عمره فياض العافية ، شديد العذوبة ، مشغول البال دائماً بشىء ما ، ويتطلع إلى بلوغ هدف لعله رفيع جداً أو صعب جداً ، مضىء النظرة بلمعان وجه جميل مبهر من النظرة الأولى المغرضة ، وتخترق سهم القلب الأهوج ، قوي البنية وهو مربوع القامة ، بني الشعر ، له وجه متناسق

القسمات . يسير على خطين متوازيين ، كقطار يمر عبر الدلتا والصعيد بركناته وسرحاته التي لا تنفد ، مشحون بإحساس التفرد العالي تجاه نفسه ونفوس الآخرين ، يبتلع إهانات الحياة كلقمة سائغة ، يقدر ظروفهم ، يشيح عنهم بوجهه ، إنه إحساس لا يشعر به إلا الممسوس ، تسطع منه عينان شهباوان تطلق نيرانـاً خيرة. تفيض بحالة وجدانية شجية لها صفاء لحظة الكشف بتميز لا يستهان به.

يا مطر، وأنت شارد الذهن ، وكثير التفكير ، ظاهرك هادىء هدوءاً كبيراً طويلًا ، كنجمي عينيك الداكنتين بلون أخذ زرقة السماء وسط واقع سمارك المبشر بشىء غير عادي ، باستطالة وجه يناسبه أنف مدبب بكبرياء عزيز.

– ها.. ها نسميه إيه ؟

انطلق ألم المخاض يهتف :

– مطر عينيه لون السما. هو قلب السما نفسه مطر .. مطر .

من يوم مولدى ، وأمي تشعر أنني كائن غير متكيف تجاه عالم الأسرة المجيد ، وربما كنت بذرة شؤم أو بذرة نجاح ،

ألصقتني باسم من أسماء الطبيعة ، كأنها تريد أن تخلدني بعنوان الشتاء المرادف الحبيب لنا ، آلت إليها وجهة النظر أن تحمينى من رجاء تمنته بعد عشر سنوات ، كنت ضعيفًا كورقة شجر يابسة . تم وضعي في الحضانة. لا مشكلة ، أخيرًا فازت بلقب الحاجة أم مطر المتدينة ، ونالت بركة بناء أول جامع في الحارة ، دين عليها وأوفت به .

حاولت الانتصار على الأكذوبة المحفورة في ذهن أمي ، بأنني طفل غريب. كثير البكاء تفقد معه حدود الرضا كله ، تعلمت الأقوال ، قرأت النظريات . كنت يساريًّا مخلصًا وسط المدَّعين ، عملت مهندسًا معماريًّا ، أحببت بقوة ، وبسبق الإصرار والترصد هجرتني ، هجرتها ، وماذا في هذا ؟ مع الأيام نسيت ، كما تلاشت من حياتي القصيرة اجتماعات الحزب ، وشلة الجامعة ، والاتحاد ، وجمعية الأصدقاء ، وحفلات (الشيخ إمام) ، وحفلاتنا السينمائية الخاصة ، وكل الناس أصحاب لهجات الحماسة العظيمة تحت مقولة تغيير جذرى شامل سيحدث يا إبراهيم ، يا محمود ، يا علي ، يا محمد ، يا غداً ، أليس كذلك ؟ يا أصدقائى المنزوين عني الآن ، وأنا بمفردي فى الوقت الحالي ، أسير بواقع حالتي النفسية المعقدة

بعد رحلة علاج فاشلة مع الأطباء ، وقد اعتراني كالأشواك انطواء ، وأذناي لا تتآلف إلا مع أصوات الأشباح ، والظلام ، و الصراخ ؛ كأنه يعبر عما بداخلي ، كلما رفعت صوت الكاسيت لشريطين أفضلهما ل(Pink Floud) ، (ياماجاما) ، عيناي مسمرتان بدهشات مخيفة مقلقة للغاية ، أتخذ أسفل السرير مخمدي ، وأشعر بهذه المساحة المربعة قادرة بجدارة على حمايتي من كل العالم الخارجي ، مهما شكا الجيران ، وزعق أبي يقول :

– يا ..أخي بطل تمثيل بقى.

أمي تبكي مستغيثة :

– سيبه يا فتحي دا ركبه عفريت. دا عيان .. حرام عليك .. ربنا يزيح عنه .

لم أكن أعلم إلى أي حدود تنصاع لها الحياة ، وكيف تمر الأشياء عبر مفاهيم الإنسان المشوهة ؟ عبر سكون الوجوه المظلمة ، المكبلة بخطوات الزمن الهادر ، تنبجس لغة السحر ، والعفاريت ، والعصا و (الآي آي) ، والألم العقلي المروع ؛ الذي ينطلق فى الغالب ناحية الوجه الآخر للعقل الذي يحمل

له كل : الشرور ، والمحاذير ، وماذا أفعل أمام كل هذا ؟ وهو يلوح بيديه على مروج عصا اللعب السحري خلال سحابات من حزن ، وأرق ، واضطراب معنوي .

عبر باحة ترابية يقع منزل الشيخ مصطفى المحاط بأشجار الساسابان شديدة الارتفاع ، قديمة السن بجذورها اللولبية حتى لو زال كل الناس ، هذه الباحة عند منعطف الطريق ، نعبر إليها عن طريق معدية خشبية متهالكة وسط مجرى ترعة صغير ، فيبدو كمبرر فادح نتعرف فيه على مدخل العالم المقروء ، والمكتوب ، والملموس ، والمهووس ، خارج حدود القرية التي ينتمي إليها الشيخ مصطفى ، السيد المطلق في أحكامه ، ويستطيع أن يسيطر على النفوس ، والإرادات بكل ما تجيش بها من صبوات ، وأفكار ، يجيئون إليه فاتحين قلوبهم ، راغبين رغبة قوية فى أمر ما ، يشير إليهم بنصائحه ، ويشفيهم بأقوال العصا .

هذا ولا ننسى أنه اكتسب قدرة عجيبة على معرفة النفوس من النظرة الأولى حين يلقيها على أي وجه زائر مجهول ، بل ويحدد بنظراته الطويلة المتفرسة من يأتي بداعي الفضول الفظ ،

وحب الاستطلاع ، ومن يأتي بروح الباحث عن الحقيقة ، مما أدى إلى ذيوع صيته ، ودعا الأقارب والأحباء للبحث ، والانتظار أياماً عند باحة الشيخ مصطفى .

- صباح الخير يا با شمهندس.

- صباح الخير يا سيد ها..ها .. إيه أخبار الكيمو ؟ .. ها ها.

- والنبي اسكت يا با شمهندس. أحسن جسمي متكسر .

يمر فى موقع عمله كأنه أسد فى مملكته حتى أمام رؤسائه ، تحت يديه أكثر من مائة عامل وعاملة ، وماكينات لا حصر لها ، عالم عملاق من الحدادين والنجارين ، على قمته يجاوره شيخ النحاتين ينظر إلى ماكينة (البامب) الهائلة الحجم ، بإعجاب ، وهي تصب الخرسانة على الحوائط ، والعمال يقومون بضبطها بالتساوي ، هيا أيها العامل ابنِي الدنيا العظيمة ، ما أجملها ، وما أشد سر العنف ، وأنت تبتر البناء القديم ، وتشيد الحديث تماماً.

كان بيت الشيخ مصطفى يتكون من ثلاثة طوابق ، أقربهم إلى قلبه المشتعل بأعمال الجن ، وعقله المدخر لإفضاءات

العصا . الطابق الثالث به زوجته الثالثة . كانت من لاجئات (البوسنة) ، البارعات الجمال ، وتختص بطيف يتألق دومـًا ،أشبه بفتنة تدور بين تلك الحجرات الباردة ، وعذابات الألم البشع للفراق عن وطنها الأم ، أصابها بالخرس التام ، وشاء القدر أن يفسح الطريق أمام الحسناء ، (اسمها الجديد) ، وتدخل عباب الشيخ مصطفى ، وقد حولت عصاه خرسها التام ، إلى امرأة أخرى يكسوها شعر ناري الشهوة ، عيون خضراء تلمع ببريق غامض يخذلها إلى بؤرة الحقيقة ؛ أنها سبية من سبايا الحرب لسوق الرقيق الأبيض ، وجه مخضب بحمرة الورود ، لكنه شاحب متوقف نموه . يتقهقر خلفه جسد شامخ شموخ كاذب مع زوج ملامحه تعج بالتجاعيد ، وروحه مليئة بالتخاريف ، لا يتحكم فى نفسه كلما رآها ، فيسيل لعابه .

- آية في الحسن يا بت .

لم تكتف بدور اللآجئة المنتهكة ، وأصبح الامتنان هو الوشيجة الوحيدة بينهما ، تمصرت لغتها ، تثقفت دينيـًا ، شاركت زوجها فى معرفة أسرار عالمه الآخر الذي ينفرد به ، تجالس الفلاحات ، فينجذبن إليها للسؤال والمشورة فى أمور

تؤكد موقعها بجانبه في عالم السحر، والدجل .

أصبحت نادرة القرية ، تملأ عيون من ينظر إليها بالعلامة الوحيدة على قوة وسر الحياة التي تدب فيها بعنفوان ، وهي كالفرو المتغضن ، تتكشف أسرار البشر وسط القرية ، والقرى الأخرى بميزان الشيخ مصطفى وحسناء ، الكفتان متعادلتان بدفء. حول حوار خلاب منبعث من أجهزة العقول الريفية ، والحيوانات المدللة بمشاعر التنافس مع أصحابها الفلاحين .

انتهى تشخيص الطبيب إلى أن السبب كان وعكة صحية ، هل يحدث هذا يوم حضوري إليه ، أية لعنة أصابته مني ؟ على رأي أمي.

- كنت ها تموتْ الشيخ يا فقري !

دون إدراك مني أصبح قلبى منذ زمن معبأً بحوار خاص مع شيخ النحاتين ؛ الذي قابلته من خلال عملي ، شخصية مرعبة وسط عماله وصبيانه ، وأوصافه لن تكون غريبة عليك إذا قمت بتفسير صفته ، إنه ليس نحاتً أو فنانً ، وإن كان قول غير هذا ، فيه ظلم له . إنه ينحت قلوب الصخور الصلدة ، وأعمدة المسلح الصب الخرسانية ، إنها قدرة فوق الطبيعة ، ذراعه

ترفع (الأَجَنَة) لتطرق بقوة سحرية ، ويصنع أشكالًا فنية ، كلما هز خياله هيكل الصخر ليوقظ حبه الغريزي له ، ويتسرب إلى كيانه كله أصوات النحت ، فتصبح كنداءات من الأعماق حافلة بأنين التمزق الذي يكتمه ، ويقسو عليه ليجبره على أن يحيا بمفرده ، ووجهه أشبه بصخرة سقطت سهوًا من جبل فجأة ، يرتدي لاسة ملفتة للنظر يشاركها ملابس غريبة ، يرأس جماعة يسكنون الصحراء ، يطلق عليهم أحيانًا عرب جسر السويس ، سباع الليل يقومون بكل أعمالهم تحت إمرة شيخ النحاتين صاحب الأسرار والحكايات ، إنه رجل لا يبكي ، لا يشكي ، فلا سبيل أمامه إلا الاحتمال ، والبحث عن مفر مهما انطلق صفير معذب متألم ، إنما ينحت فقط كمحارب لا يمل على الدوام ، تدعمه الثقة بالنفس مع التقوقع والوحدة وقيود (الأَجَنَة) . الحفر بقلب من معدنه الصخري .. النحت لهجته الأبدية التي اختير لها إلى النهاية ، كلما أحس بمأساة تجذبه إلى أسفل .. أسفل الصخر و العمود المسلح ، بقرار حاسم باتر منه أن تبقى له حياته الخاصة ومشاريعه وطموحه.

هل كان تفسيرك صحيحًا يا شيخنا أن سبب التباس صديقك سيد. بجن يظهر له على هيئة الكيمو هو حادثة

حرقه ، جنية النار كانت تريد روحه ، وأُنقذ على أخر لحظة ، ومازالوا يعاقبونه بالضرب المبرح إذا مروا بخياله صدفة ، تعلو داخلي همساتك ، أنفاسك ، رائحتك كنزيف أصابني دون دماء ، بجرح لا ينفتح ولا ينغلق كامن فى عقلي كلما تذكرت (الآجنة) ، وجن (الكيمو) .

فى تلك الليلة ذهبت بدعوة من شيخ النحاتين. إلى حَضْرة لمحاولة شفائي ، جعلتني أرى دخان سجائري كمشاهد لا تفارقني ، أستنشقه مرة أخرى من الهواء ، وأنتعش وأرى مالا يُرى . يوم موتي ويقظتي الجهنمية ، كعفريت يتلوى من عصا يصاحبه غناء ملحمي عن حكاية أبي زيد الهلالى ، ورواية المواويل ، وسيرة النبي والصحابة ، وتاريخ البشوات الإقطاعيين ، والحكايات الشعبية ، وأتخيلك تتشدق بأحبالك الصوتية فى عبارات بعينها تارة بالعصا ، وتارة بجسدك ، لتخرج الكلمات من فمك لذيذة محلاة بعسل النحل ، فلا تملك إلا أن تحبها وتحب رعشتها الزاخرة بالرنين ، تهيم كروح مهيمنة ، لا تقاوم أمام عشرات الطواقى الصوفية ، وخلفك زقزقة النساء ، وبسملاتهم ، ودوامات الذكر ، وزغاريد الفتيات ذوات الجلابيب الفضفاضة مفتوحة بقصد أنثوى عند بدايات

الصدر ، التى تُلهب المشاعر مع ذلك الدوران الفسيح خلف مواويل الذكر، والبركة ، فهو شيخنا ، ورجلنا ، وحاكمنا ، ومغنينا المفضل ، ونعيش فى حضرته .

أسجد على السجادة كأنني ورِع زاهد ، أشد جلد وجهى كطبلة تدوي إيقاعات اهتزازتها. تُحدث داخلي هنات زلزال ، قائم بالفعل ، لكنه أيضًا خبيث كالسرطان ، يتخفى للوقت المناسب ثم يظهر فجأة ، ربما للحظات لم أكن أبالي لهذا اللقاء الحافل ، لم يكن الليبرالي على طراز سنوات الثلاثينيات المتحرر من العقائد ، الكافر بالأديان ، قد ساهم في هذه القضية أي مساهمة فعالة ، ربما عن رغبة ملحة في الشفاء ، والنجاة أن أقبل رجاء أمي ، وألف شبكة صيد حول خصري ، وأن ألبي دعوة شيخ النحاتين ، و أن أذهب إلى الشيخ مصطفى .

لا يخلو اليوم مع مجدي الكوماندة (شيخ النحاتين) من قفشات ، ونكات ، واستفسارات عن سير العمل ، وردع أي تقصير ، ولو بقوة السلاح ، إلا أنه ليس بأمر استثنائي فى هذا العالم وهذا المطر ، أن يقول مجدي الكوماندة :

- الرأس بألف جنيه يا با شمهندس بس أؤمر .

- لا يا مجدي مش مستاهلة .

- على قولك يا باشمهندس .. ألا إيه أخبار الدبايح ؟!

لا يرد مطر، وعلى فمه نصف ابتسامة ، ثم يتغاضى عن هزاره على فتيات المصنع ، ويتذكر الكوماندة ما جاء من أجله .

- بمناسبة الدبايح فرح رجب، الصبي بتاعي النهاردة .. إنت معزوم يا باشا .

من أين جاءني؟ لا أتذكر جيداً الأسباب التي دفعتنى لبوادر الوجع الشديد من اكتئاب حاد . يرقد كخبز عفن مع زميله المرض النفسي المحبوس ، كما لا أتذكر ماذا فعل بي الشيخ مصطفى ، نعم ماذا ؟

أدخل عضلات القلب الضعيفة عبر النفس الممزقة ، يا لها من ليلة قمرية كانت أو معتمة ، لا أتذكر. كنت أستشعر رائحة الموت ، وكلما اقتربت مني تلك العصا ، أحس بنفسي تنفتح أكثر، وتتعمق لتقوي صلتي بها ، حتى لكأنها تقرأ ما أسر به ، ترفل معي كتعويذة قريبة من قلبي ، لا بل هو قلبي نفسه ، أشعر بروحي تعانق الحياة والموت معـًا يعيشان في جسدي كرجل ذي شطرين . عيناي تعملان بنهم في استخلاص أحكام الحياة ، أتأمل أصدقائي الأذكياء ، وأتحين الفرصة لأسلك سلوكهم ،

إنني لا أمتلك ، ولا أستمتع إلا بحاسة الشم النفاذة ، بأنفي المدبب كسن السكين يحدد خطاي ، ويشم رائحة القلوب عن بعد مئات الأميال .

ها أنا ذا أرى دنيا أخرى غير الخلاطة ، الدبشة ، السطل ، الونش ، عفريتات العمال ، ملابس العاملات المنهكات ، ماكينات لحم ودم تتآكل ، و تصدأ مع العمر وسط آلات لا تنطق إلا تكات و شروخ تفصيلية ، يتبادلان المقايضة بالإحساس كالأشياء المجففة المحفوظة فى علب كراتين متراصة مع كتل بشرية خاضعة لها .

وجدت نفسي وسط جمع غفير من أصحاب رجب بمهن مختلفة ، يتبادلون ذكريات السنين بفرح ، يتخدرون حتى يشطح العقل تماماً ، ثم يتناوبون الدخول على امرأة ما.

- لا يا باشا دي قشدة .. اتفضل .

على الضوء الباهر الصادر من أعماق الشيخ مصطفى إلى أعماقي. أرى امرأة نائمة على أُهبة الاستعداد ، إنها هي نفسها ، من أسندها على هيكل حافلة لأحد الحاضرين للإستشارة .. يا إلهي أي كرب استبد بي هكذا ، أي بأس مضن يجعلني

أرتجف كالمحموم ؟ أشار إليها بعصاه ، وعيناه تلتهم كل من حوله بانسيابية كرادار يرصد بمائة عين وعين ، كعينان غائرة فى وجه مومياء خارجة لتوها من القبر ، ورغم ذلك ؛ يطل منهما ذكاء نفاذ ، والقدرة المعجزة على الاختراق ، جبهته ممتدة ، صانعة الظلال على عينيه كساتر أمين ، ينطق الكلام كمتأمل ، بالضبط ما يجب أن يُقال ، و ما يعجز الجميع عن قوله ، إنها كلمات قوية ومحرضة بتحريك مؤثرات العصا ، وتتساءل في تؤدة من خلال السكون الحزين المدهش الذى فتح أفواه الحاضرين كالبلهاء ، نعم هي نفس الفلاحة التي أرقدها على التراب ، وعرف داءها بالعصا ، ودفعها لرجاله الأقوياء لإنزالها فى الترعة ، وقد تراخت كل ملامحها ، وانزاح عنها كل ما فيها من صرامة ، واتخذت طابع بالسكينة والرضا، بعد أن هامتا عيناها فى سماء العصا المروعة ، المرفوعة بكل عنف ، تهشم عضلات الجن والعفاريت القابعة في جسدها .

استرد الشيخ لسانه ، وإن لم يسترد مفاصله ، محدقاً فى ملامحي الشاحبة ، ووجهي الملىء بالعظام الناتئة الذي تكسوه غلالة من مهابة ما حدث أمامي ، إلى أن حدجني بعينيه دون أن يتكلم ، لكنه صمت الصوت القادم ، الذي لا فِكاك منه

كالطوفان الهادر .

ولوح بالعصا :

- أنت.

لحظتها انخلعت عني نفسي كلها ، وأنا أرى نفسي من يوم ميلادي إلى يومي هذا ، كشريط سينمائي مبتور؛ ليس لى به أدنى علاقة داخل ناقوس عينيه الصقرية .

وقال برهبة لن أنساها :

- موعدك صباح نهار الجمعة القادم بعد الصلاة .

ثلاثي أضواء المسرح

انتظرتُ طويلًا جيئة وذهابًا أن يأتي سرفيس، كي لا يفوتني ميعاد ذهابي إلى بروفات المسرح، جلست في المقعد الأمامي .. انتعشت نفسي، أحب أن أجلس بجانب السائق، أرى الشارع، والعربات، والمارين بأحجامهم المختلفة بوضوح . نظر إليَّ السائقُ بمعرفة سابقة، سلَّم عليَّ بحرارة، وكأنه وجد مراده، أخذ يتحدث طوال السكة عن نفسه، وعن علي، وعيد، وما كانا يفعلانه من عشر سنوات على المسرح، كان وجهه مصبوغ بحمرة أشبه بالحروق الخفيفة، من جراء عمله المستمر على السرفيس في شحن الأنفار طوال فترة النهار، أخذ يتحدث بلا أي وقفة، حديثه .. كان شيِّقًا . أخبرني أنهم كانوا يعشقون المسرح بوله، أصدقاؤه الآن يعيشون في مسالك الحياة القاهرية، التي قهرت أحلامهم، وإن لم تقهر مخيلته عن ذكراها، وفخره بأنه فعل هذا في حياته السابقة. كانوا ثلاثة، يعيشون في بلدة صغيرة، أحدهم يمتلك بيت ريفي

كبير أرضه أسمنتية ، حوائطه غير مدهونة ، بناؤه من الطوب اللبن ، به " مندرة " واسعة ، لا يوجد بها ، إلا فرن وكنبتان بلدي ، يغلف هذه الأشياء باب خشبى طويل معروف عن بيوت الفلاحين القديمة .

استمر يحكي بنشوة كأنه يعانق زمنه القديم مع المسرح ، لا بد أنك كنت الثالث الصغير؛ الذى يؤهله وجهه أن يكون الأكثر كوميديًّا بجانب موهبته فى اسكتشات نقلتموها كما هي عن فرقة ثلاثي أضواء المسرح القديمة ، أو شيدتها بعد التعديلات من مخيلتكم : كإسكتش الآلة ، وأبو العروسة ، وعودة الندل ، والصعيدي ، وأولادنا في الخارج ، والتمثيل والغناء من خلال مفردات الحياة الصغيرة .

تطور الأمر إلى الأفراح ، ليالى الحناء ، الكازينوهات ..

تقدمتم إلى إعلان فى القاهرة عن طلب وجوه جديدة للمسرح برسم جنيهين ونصف ، كانت الشقة تطل على ميدان التحرير ، داخل عمارة شاهقة بجوار البيوت الأخرى ، فتبدو كبيوت النمل ؛ التي تكتظ بآلاف المكاتب والأماكن والأسرار ، أكثر ما لفت النظر رجل كبير يحب المسرح بشدة ،

له حكمة فى حضوره رغم الغرابة ؛ التي بدت على معظم الحاضرين من الشباب له ، كنتم أخر من قدم أنفسهم ، لمن تراصوا على منصة ، كمنصة المحكمة ، أخبرتني أنك كنت خائف ليس من نفسك وموهبتك ، بقدر ما كنت خائف من كثرة عدد المتقدمين للإعلان ، وتتمنى في لحظة ما أن يقلوا إلى الربع ، لتكونوا أنتم في بداية هذا الربع .

ظللتم لمدة نصف ساعة تقدمون أفضل ما في اعتقادكم أمام اللجنة المدعاة ،وفجأة رأيتم خلفكم ضابط . لم تعِ أنت بالذات هذا الكسر المسرحي ، ظننت أنها تمثيلية تقوم اللَجنة بمفاجأتك بها ، لم تصدق نهر الضابط ، وشتيمته الفجة للثلاثة الجالسين بمقابلتك .

ضحك أصدقاؤك بسخرية عالية ، لكنك بَهُتَّ فزعت من إحساس الغفلة ، جنيهان ونصف. سألت : لماذا لم يفش السر، ويحضر الضابط بعد انتهاء الامتحان أو حتى قبله ؟ لماذا ؟ لماذا تكمن المطرقة خلفي ، وأنا غارق في حلم العمل والشهرة ؟ إحساس أليم بالخيانة المقصودة .. نزلت السلالم ، تصطف على جوانبها الجماهير ، كأنها تحمل نعشًا مسرحيًّا

تزعق ، تضحك ، تسخر ، تطلب جنيهان ونصف .

لاحظت بعض الأسى أثناء حكيك ، أقلعت سريعـًا عن هذا بالضحك الباهت ، لم تتقبل الحقيقة ، ماذا تفعل غير الاستنكار ، لا بد أنها كانت كالرمال المتطايرة فى عيونه، إن لم تعمه تمامـًا ، فلا جدال أنها أغشت عينيه عن حلمه ، وانتهى باكتمال الحلقة ، وأنت سائق على السرفيس الآن تقول :

- يا ه دا كان حتة موقف .

تنكره على الزمن والدنيا التي فعلت بك هذا ، لكن داخلك لا ينساه ، وعندما قمت بفتح الشكمجية القديمة ، صدفة ، تذكرت .. حزنت ، تهت مني ، أحسست أنك فى نهاية الحوار ستأتيك ميتة غبية مفاجأة ، كلامك يشير إلى أن أصدقاءك هضموا موقف معتاد حدوثه ، وأصبح الموضوع برمته كتذكرة سينما أحبوا فيها الفيلم ، وتأثروا به بعض الشئ ، ثم انتهى أمره.

كان الطرق قصيرًا، وانتهى سريعًا ، رغم ما تمتلأ به روحك ذات الظل الخفيف ، إلا أنك كنت تخمد كإطار سيارة ، لتستريح من فكرة الحب ، حتى بعد أن تزوجت ، وأنجبت ، وتركت الوظيفة ، وعملت سائقـًا .

لا شك أنك تبحث عن الطريق ، عن المسافة الطويلة إلى حد ما ، التى تذيب يومك ، ربما تقضي على حياتك بخطأ ما ، رغم وجهك الباسم من أول دقيقة جلست بجانبك ، أعرف أنني بمجرد نزولي ؛ سيطفو على وجهك غمام شديد ، تركن العربة وتنتظر دورك فى امتلائها بالأنفار ، توصي الصبى أن يغسلها جيدًا ، ويعتنى بها وقت ذهابك لتشرب الشاى مع أصحابك السائقين ، لكنك لن تفعل هذا ، ستذهب إلى القهوة البعيدة بعض الشىء . تجلس ، بوجه نصف غاضب ، تبتلع برشامة أو برشامتين مهداة لك من سائق صديق ، ترتشف الشاي حتى لا تحس بمرارتهما ، وتكمل آية التعامل مع البرشام ، بأن تشعل السيجارة الكيلوباترا البيضاء .

تتذكر بعد وقت وصيتى الأخيرة ، وأنت تحرق الدخان داخل صدرك :

- لازم تيجى المسرح يا محمد وتكمل ...

تضحك بصوت عال جداً مستهزئًا بي ، و تلعنني ، وأنت تبصق على الأرض .

حذاء جدتي الذهبي

إليكِ رسالة من رسائلي القليلة التي لم أعتاد أن أكتبها كثيرًا ، إلا عند إحساسي بالشوق ، والحزن الشديد عليكِ ؛ فقد انقبضت ضلوعي داخل جسدي ، وأحسست أنني أعاني من ألم موجع يبكيني . لم أعرف أي الطرق أمامي أسلكها ، وأنا ذاهبة لوجه الجحيم ، أثناء ركوبي سيارة عمي الميكروباص ؛ لأذهب معهم إلي بلدة جدتي التي تطارح الموت .

كان جسدها مفروشًا على أرضية الحجرة ، وظهرها " تقرح " من فعل " قرحة الفراش بالتهابات حادة "، وكنا ننقلها من الفراش إلى الأرض حتى تستريح قليلاً .

غابت عن الوعي لأيام طوال ، أكثر من عشرة أيام ... لم تقل لي : كيف حدث هذا ؟! لابد أنها كانت تريد الموت دون أن أعلم ، منحتني فكرة الهدوء والاطمئنان ؛ لكونها حية ترزق ، في حين أنها تتأهب للموت ، تحجب عني نظرات العجز التي

ربما ستذبحني بسكين حاد بقدر ما تراني أنظر إليها بيأس ... أأسجد لحبك هذا .... أم ألومك ؟!

طلبتْ أن أدعو لها بالموت ، هكذا أنت ياجدتي كعهدك القديم معي ، تأمرينني أن أكل ، مادمتِ قد وضعت الطعام ، تأمرينني أن أبيتَ في حضنك ، وأنسى العالم ، مادمت قد أردت ذلك . لا يعلم أحد شيئًا عن شبابك العفي ، وأنت بعد امرأة في الأربعين من عمرك ، تتوقين إلي رجل يُعطيك الأمان والحب الرجولي ، أأنا أصبتُ أم أخطأت ظنوني بما بينك ، وبين أخ زوجك ؟ . كنت أمقته لأسباب ليست واضحة أمامي ، لابد أن غيرتي دفعتني دائمـًا إلى النظر إليه بإمعان ، وإلى كل حركاته وإيماءاته بمجرد أن يدخل بيتك . كان يفضح عيوني ويتجاهلني ، حتي في حقي كطفلة أستحق مجرد لعبة صغيرة أو حتى ابتسامة .

عندما دخلت عليك الحمام فجأة بقصد طفولي ، رأيتك تمارسين حقك الطبيعي بشئ غامض لم أتبينه ، وتتأوهين بصوت خفيض ، وفخذاك منفرجتان على آخرهما ، عارية بيضاء ، تعرفين أنك قادرة لا زلتِ... ليلتها لم ينم لك جفن ،

إلا عندما أخذت مني مائة قسم ووعد بأنني لم أرَ شئ ، ألقيت بنفسي في حضنك أبكي ليس كما توقع حدسك بأنني خجلت منك ، بل لأني افتريت افتراءً ضخمًا أخرني ، ولو شيئًا بسيطًا أن أحبك أكثر .. أن أبعد ابتسامة راسلتني بها ، ولم أرد إلا بجفاء عالٍ .

كانت الخامسة صباحًا حين تمتمت بكلمات قال : الأقارب والجيران إنها شهادة الإيمان ، ومعبر الدخول إلى الجنة ، ابتسمت لي ابتسامة عنيدة ، وماتت أخيرًا. كنت في حضنها الشامل ، على الرغم من فراغه من أي روح ، أدعي النوم ، أدفس نفسي داخلها كقوقعة في قاع بحر حالك الظلام ، أحس تارةً بأنفاسها ، وتارة غائبة عن الوعي ، وتارة أخرى تكلمني بصوت منخفض، تحكي حكاية من حكاياها القديمة ، احتضنت بعنف الجسد الميت ، لم أقل إنها ماتت ، ظللت في حضنها ، أعايش اكتمال الموت بجسدها الخامد البارد ؛ الذي بدأت زرقته تنتشر ، شعرت ببرودة شديدة تنتقل إلي لأموت أيضًا ، حين رأتني عمتي أبعدتني قائلة :

- اوعي يابت ... إوعي أحسن تتلبسي .

أخذتني إلى الناحية الأخرى من الحجرة . وعيناي تبرق كاللهب ، ألاحق بها الجسد الذي كان معي منذ لحظات ، رأيتهم يحملونها بهمة إلى الحمام نازعين عنها رداء كان مملوءًا بالدم ، خاصة في نصفها الأسفل ، وبدأ تغسيل الجسد المرمري المستسلم ، وكلما دفعني أحد كي لا أدخل أرفض الرد عليه ، وأدفعه بيد تحمل قوة غريبة ... ملأوا الجراح بالقطن ، الذي مازال يقطر دمًا ، وآخر تحت إبطها .. فمها ، وفرجها ، ودبرها ، وردفيها ، وغاصت داخل لفائف القطن كطفل تائه ... ثم يلفحونها بأقمشة الدمور، والدبلان ، وأخيرًا قماش حريري متوسط الجودة ، وفي النهاية أصبحت داخل خشبة الموت .. كاملة الهيئة للذهاب إلى المثوى الأخير .

جاء الرجال وأخذوها ، بدأ دور النائحات .. كان ابن عمي ينهرهن بشدة ؛ كلما علت حدتهن. انهال عليهن بالشتائم ، فاستعضن عن ذلك بالبكاء بصوت عالٍ ، ولطم على الخدود ، وصدورهن. جلست على السلالم أتابع كل رجل كان وراء النعش ، دفعتني الحقيقة الثابتة بأن هذه الروح قد ماتت إلى الشعور بالهوس ، قفزت من جلستي كمن تذكر شيئًا ، ارتديت جلباب جدتي الأسود الذي كان يناسبني إلى حد ما في الطول ،

وإن كان شديد الإتساع، اعتصبت بمنديلها، وحرملتها السوداء ثم نعلها الأسود ذي الخيط الذهبي .. كانت تحبه جدًّا، لم يخل حذاء من أحذيتها القديمة من ذلك الخيط، ولو كان بسيطًا، ليعطي البريق لحياتها الجافة. حاولت السيدات العجائز منعي حجة أني صغيرة، إلا أنني مرة واحدة أصبحت ذات ملامح جافة، وتصلب جسدي صلابة هذه السيدة العجوز التي ألمحها بملامحها المنحوتة الغائرة، ولا زالت تنظر لي من داخل النعش. وفجأة غابت ... نعم غابت عني تمامًا. وهي تودع ابنة المدينة الرومانسية، العاشقة داخل جلبابها الفضفاض الأسود.

عشت حالة درامية كاملة؛ ظللت أصرخ من داخل جوفي، وألطم، وأهيل التراب على رأسي أولول جارية وراء خشبة جدتي، وفجأة التقطني أحد الرجال، أحكم وثاق يديه عليَّ حتى كاد أن يكسر ضلوعي ... أمر أبي أن أعود مع أمي فورًا .. ظللت ليلتين تقريبًا على السرير لا أعي ماذا حدث؟ بات رحيلها حزنًا مغروسًا في قلبي، كالقطع الذي لا يصلح معه ترقيع أو التئام. في اليوم الثالث أفقت على حقيقة الخواء؛ وهي ماذا أفعل بنفسي؟!

كنت كسكين ظل لفترة مخزون بطاقة أن يمزق أي شئ ، وفي الوقت ذاته غير قادرة ؛ فالسكين ظل بارد ، ويحتاج لسن شديد ، عرفت ساعتها أنني أحتاجك ، فكم من المرات عندما نكون أنا وأنتَ معا. أريد أن أتكلم ، أن أفصح عن أشياء عظيمة وتافهة في نفس الوقت ، كم أشعر بنشوة عالية لأن جدتي أخذت مستقرها الأخير كما أرادت ، وارتاحت من أوجاع المرض ، وللحظات ملأتني سعادة لكوني سأراكَ ، وتأخذني بعيدًا ...

وقفت لبرهة أستنشق نسمة هواء من الشباك ، وكأنني صندوق ذكريات فرغ لتوه.

وكل ما أشعر به الآن أن جدتي لم تمت ، لقد استقرت معي في ذاك الجلباب الأسود ، والعصابة السوداء الملازمة لمقدمة شعرها ، والحذاء الأسود ذي الخيط الذهبي ؛ الذي كلما تلألأ خطه تحت وهج الشمس ... رأيتني في عينيها الراحلتين .

نادية وصفي

كنت أراكِ ، وأنتِ تخمدين كل حلم قديم ، وتقبلين بكل ماهو عادي ، ورغم ذلك أستشعر البهجة ، والتفاؤل في قلبك دومًا.

ـ اربط الحمار ... مطرح ما صاحبه عايزه .

مقولة خاصة بالأستاذة نادية وصفي ، وهو اسم مركب يُكتب في بطاقة الهوية نادية وصفي محمد إبراهيم الدسوقي . وهذه المقولة هي مبدأ إداري يجمع كل الأفكار الإدارية العبقرية ، التي تمرر ؛ لتسيير الأمور بأي شكل ، وتقول كلمتها المعتادة :

– ايه اللي بيجرى في العالم .... القيامة قربت ولا إيه ياجماعة ... ربنا يستر .

نادية وصفي السيدة الشقية المرحة الضاحكة كثيرة الحركة

والثرثرة ، وقد أحيطت بعناية بالغة من أسرتها لاعتلال صحتها منذ الصغر ، المولعة بالعمل الإداري، والتغيرات السياسية التي تحدث من حولها ؛ حيث اعتادت على شراء مختلف أنواع الجرائد اليومية ، وعلى الرغم من تحذيرات الجميع لها بعدم الحركة كثيرًا ؛ إلا أنها كانت تندفع بطاقة لا تنفذ للحياة .

مديرة شئون العاملين بمديرية التربية والتعليم في بندر(بني سويف). معروف عنها الالتزام الشديد والتفاني في العمل ، الوحيدة تقريبًا التي لا زالت تلبس " البونية " على رأسها ، على الرغم من انتشار ظاهرة الحجاب ، واستهزاء الأخريات من صديقاتها :

- يا أبله نادية غطي رقبتك. عيب دا إنتِ ست كبيرة .... ومسلمة يا شيخة .

أما عن اختيارها لأزياء ملابسها ، فهذا أيضًا شئ غريب ، فهي غالبًا ترتدي (جيب) بين الطول والقصر بعض الشئ ، مع ارتداء بلوزات قصيرة تتعدى الخصر بقدر ضئيل . وغالبًا ترتدى شرابات الشبيكة على جميع أنواع الأحذية في فصلي الشتاء والصيف .

تعشق عبد الحليم حافظ ، وتضع له فى كل مكان بمنزلها الكثير من الصور المبروزة بالإطار الذهبي الخالص وتقول :

– عبد الحليم ما متش ... احنا هنموت ، وهو ها يفضل عايش .

تفتخر وتشيد بحصولها على رخصة القيادة ، ولديها سيارة ١٢٨ موديل حديث ، وأنها وهي صغيرة كانت تتعلم في مدرسة داخلية مع ابنة الفنانة الكبيرة (عزيزة جلال) ، وكان أبوها يعمل مهندس زراعي ، ويرسل لها سيارة خاصة مصحوبة بأخيها لتذهب بهما إلى المنزل في نهاية كل أسبوع حيث الإجازة ، جاءها عريس بعد حصولها على الثانوية عامة ، كانت تشعر أنها تريد أن تتخلص من سلطة الأب والأخ الأكبر ، كانت تأمل في الحب ، ففشلت ؛ لعدم جرأتها على صنع أية علاقة مثل الفتيات الأخريات في المدرسة . فقررت أن تتخلص من كل هذا بالزواج من رجل يكبرها بتسعة عشرة عامًا ... يا لا فارق السن ، فارق في كل شئ ، حتى في طعم الأحزان بينهما ، تقول أنه لا يتحدث إطلاقًا معها ، يتقن عمله ، ومسؤولية الأطفال فقط. منذ ذلك الوقت خاصمت الحياة ، وتعترف

أنها تربت في بيت تنتقل فيه النساء من المنازل الرفيعة المقام دون أن تسألهن ، يعاشرونهن دون أخذ رأيهن ، ويلدن منهن دون استشارتهن ، وأيضًا يسحبونهن إلى الجبانات الضيقة دون سؤال عن إن كانت سعيدة أم لا ؟ هنا في هذه البلاد : بلاد العالم الثالث يجب أن نعمل ، ونعيش ، ونلد ، أو العكس نعيش ، ونعمل ، ونلد .

تتحدث بطلاقة في أي موضوع خاصة الآراء السياسية ، وقد استمدتها من خالها الذي كان يعتبر أحد القيادات الكبرى بحزب الوفد ، هذه الأيام اهتمامها كان موجهًا إلى (الكادر) الوظيفي الذي سيرفع مرتبات كل العاملين في التربية والتعليم ، ومن شدة اهتمامها ، وهوسها بما يحدث اشتركت في خدمة Egynews (خدمة توفر الأخبار السياسية بمجلس الشعب) على sms الخاص بها ، وكتابة تواريخ الأحداث المهمة خلف أوراق النتيجة التي تنزعها فى بداية كل يوم ، وتحتفظ بها في درج مكتبها الخاص ، ولنأخذ مثلاً :

جاء اليوم الموعود من خلال رسالة sms خدمة Egynews ٢١ / ٦ / ٢٠٠٧م. الساعة السابعة والربع مساءً تقريبًا ، ووافق

مجلس الشعب نهائيًا على تنفيذ " الكادر الوظيفي للمعلمين والإداريين " . قفزت كالأطفال ، وكاد قلبها يقف ، وشعور بالبهجة والانتصار يملؤها، وكأنه شعور الانتصار في معركة كبيرة . قامت بعمل حفلة لصديقاتها بهذه المناسبة التي ستحقق أحلام جميع زميلاتها بالعمل . الأستاذة رحاب التي تخطت الخامسة والثلاثين ستتزوج ، الأستاذة جمالات عاملة صرف المرتبات ، ستقوم بإجراء عملية لابنها المريض بالقلب ، الأستاذ ماهر سيحقق حلم حياته ، ويفتح مكتبة للأدوات المدرسية .

لكنك لا تدركين أيتها السيدة الإدارية الأولى في ديباجة السندات الورقية قانونيًّا ، وإداريًّا أن كل هذا وهم ، معركة مع من ؟ و ضد من ؟

أنا وأنت وكل هؤلاء الذين يجلسون على مكاتبهم القديمة ذات اللون الرصاصى الباهت ، بأزياء ووجوه ونظارات عفى عليها الزمن ؛ ما هو إلا ديكور رخيص لم يعد له عملاء . جاءت اللحظة الحاسمة ، وأنتِ تتقاضين راتبك الشهري متوهمة أنه أصبح أضعافًا مضاعفة ، وابتسامة لا تدركين هل إشفاق أم

شماتة على وجه عاملة الصرف ، وتتساءلين :

- ما هذا ؟ ... إنها ٢٧٥ قرشـًا. أهذا هو الكادر الوظيفي ؛ الذى كان حديث مصر كلها لمدة عامين ؟

أنت يا نادية وصفي داخلك شيطان التمرد والمقاومة لا يهدأ ، وخبرتي الطويلة بك ، تؤكد لي أنك لست بالمرأة الضعيفة ؛ فأنت كنت ومازلت نشيطة وتقومين بأعمالك بنفسك ، ولن يمر وقت طويل حتى تستعيدي نفسك وتدركي أنك لست بنت هذه الحياة وسط تقاليد الأسرة والعمل وأجوائها ، وتمزحين بطابعك الهستيري الذي تعبر عنه ملامح وجهك الحادة ، وإشارات يديك المنفعلة قائلة :

- في العمل يتحدثون لغة أخرى لا أعرفها ، على الرغم من أنهم يتحدثون باللهجة المصرية مثلي ؛ فاللغة تعبر عن أفكاري ، وليست مجرد كلمات لا هدف منها أو روح فيها . فاللغة هي الأفكار التي لا بد أن نحيا معها بالتساوي مع ما بداخلنا وحديثنا ، وليس مجرد ترهات ، مثل التي يقولها الجميع من حولي في البيت والعمل والشارع.

فجأة هكذا هزت كتفها ، ثم انصرفت تتبعها برودة

مصحوبة بغموض ما حطمها ، ورأت فيه أن الحياة طريق شديد الانحدار .... ماهذا الذي يجول بخاطرها ؟ يتملكها الحزن ، ودون أن تدري سقطت يداها على سطح المكتب تتمتم أو تهذي ، بأصوات خافتة تشعرنا بالرهبة قائلة :

ـ أشعر بالمقت من كل شئ حولي ... سأصنع دمية محشوة من هذه الأوراق الكثيرة ، المتناثرة في كل أجواء الحجرة تمرح داخلها أفكاري. وتنبؤات عن عالم أفضل ، وأملأ الأوراق بالسطور ، ثم أمزقها ، وأطيح بقصاصاتها لتملأ المسافة ما بين موتي ، والميلاد .

الأوراق تبعثرت ... والقلم اعتراه الصمت ، الجريمة تتكرر كل يوم ، شردت بفتور، وتذكرت قسوة الإحساس بالظلم من كل الحياة التي عاشتها ... ، وأخيرًا بدأ قلبها يرتجف .

واستطردت تتحسر قائلة :

ـ ما اقترفت أو فكرت في اقترافه ، ما تصاعد من رأسي وقلبي يقف الآن حارسًا صارمًا على بوابة السماء الإدارية ... أي شجاعة ! آه أيها الموقف الصعب . ها هو مصباحي الصغير يوشك أن ينطفئ ، وفتيله يمتص في نهم قطرات الزيت

الأخيرة ، هكذا تخمد حياتي أيضًا لينفتح تجويف القبر أمامي أسود ساكن . وأنا أتخيل أن في الخارج تحت النافذة الطويلة العالية في مكتبي ؛ التي هي أشبه بنوافذ المطابع في مبني من أقدم المباني الإدارية في المحافظة ، ألمح كلب أجرب ينفض عن جسده الحشرات ، ويضرب بقدميه على الحائط ، على الناحية الأخرى المقابلة لتلك النافذة ، أسمع رنين الساعة بصوت الآذان ؛ حيث دقت عقارب الساعة الثالثة عصراً .

استدارت بفزع ثم استقرت على مقعدها الجلدي الوثير كقطـــعة خشب صامتة ، ثم فجأة شئ ما هزَّ كيانها ، جعلها تشعر بوخزات مؤلمة في جميع أعضاء جسدها ، والعرق يتفصد من جنباته ، وتوتر يغمر جبهتها ويديها ، يتردد في داخلها سؤال أعزل :

- لماذا يحدث لي كل هذا ؟! .. لماذا.. لماذا ؟

حارة سَدّ

" الشارع قال للحارة

إخييه...

ريحتِك طعمية وفول وبصارة

***

ستّاتك بلدي ليل ونهار ع العَتَبة

رجالتك نكته وعجبة

ولا يعرفوا ذوق

***

الحارة ردت ردّ...

خلَّى الشارع ينسدّ"

صلاح جاهين

بعد وفاة زوجي المفاجئة في (محافظة الجيزة)،عدت إلى منزل أمي الصغيرفي مدينة بني سويف ، بخطب جلل، يلفُّني السواد من قمة رأسي إلى أخمص قدمَيّ، حتى الجوارب كانت سوداء، بدوت كشبح في الظلام أجرُّ ابنتي الصغيرة ذات الأربع سنوات جرًّا أعاند به طفولتها البريئة وابتساماتها العابثة. ها هي ذي الحارة. هل تغيرت كثيرًا ؟! وها هي ذي فتيات صغيرات لم يعرفن بعد ثمن المرارة والهزيمة ولا أعرف بنات مَن ؟! وهل هناك طوابير للخبز والفينو يقفن بها ؟!

استقبلتني أمي بعينين دمويتين من كثرة الدموع والحسرة أزالتا أي ملامح باقية للنور والرضا ،اللتين كانا يملآن وجهها من قبل ليتحول إلى وجه كامد، متجهم، ذبلت عيناها وبرزت عظمتا خديها بشكل واضح، وضمر لحم شفتيها خصوصًا عندما تغلق فمها ثم تهمهم في كل لحظة قائلة :

- أستغفر الله العظيم... يا رب لا أسألك ردَّ القضاء ، وإنما أسألك اللطف فيه.

زاد نحولَها أعراض مرض السكر، وقلة طعامها، إلى أن فرَّت الدماء من وجهها الشاحب وجسدها النحيف ، فبدت

ممصوصة الدماء، رابطة بحزم منديل رأس أسود في مقدمة شعرها الأبيض بجذوره السوداء قديمًا، وإن كانت آثاره تظهر في أطراف ضفيرتيها اللتين ما زالت تجدلهما وتلفهما خلف ظهرها ضيقًا وتبرُّما. كلما عاكستاها في شؤون البيت أو الالتفات أو الحديث مع أحد، وهي تقول لنفسها مخاطبة صورة رجلها المتوفَّى سي محمد بن سليمان أحد رجال الصعيد " اللي راحو وراح زمانهم " :

- كان شهم وجدع عمره ما دخل بيته غير القرش الحلال... الله يرحمك يا سي محمد، كنت بتموت في ضفايري وتزعّجلي لو جصّيت طرطوفة منها... والله يا سيدي ما عايزة أجصهم بس انت رحت ، وراح معاك كل حاجة حلوه.

كانت أمي من عادتها أن ترتدى جلابيتين، واحدة ملونة للحركة داخل المنزل ، والسوق وللنوم، بينما الأخرى التي ترتديها فوقها للعمل والخروج ومقابلة الأغراب ، ولا تنسى ارتداء بنطلون كستور في الشتاء، وفي الصيف بنطلون دبلان أو من البفتة تحوكه بما يتبقى من قماش، بأي الألوان، من زُوَّادة حياكة الجلابيب أو السراويل الرجالية ، وفساتين البنات التي

تضيف إليها كرانيش أو ستان بألوان زاهية. وعندما تتكوم وتزداد القصاقيص، ولا تصلح لعمل شيء محدد، تجمعها أمي وتدسُّها مع أي حشو قطني أو خرق بالية تصنع منها شلتة أو وسادة صغيرة لنا. لم أتذكر أنني رأيت أي جزء من جسد أمي عاريًا ، دائمًا مستورة بالجلابية الطويلة المفتوحة إلا عند الصدرعلى شكل مربع يُظهِر جيدها بعقد ذهبي حباته مستديرة يشاركه حلق مخروطي كبير، فهذا مهر زواجها الذي لا تتنازل عنه أبدًا مهما ساءت الظروف ، واشتدت الحاجة.. ظل لأكثر من أربعين عامًا يلتف حول رقبتها بفتنة، إلاَ حينما علمت ما حدث لي، ضربَت على صدرها بقوة ، وصرخت بأعلى صوتها وشدت شعرها وعقدها الثمين حتى تناثرت حباته الذهبية تتدحرج وتفرُّ أسفل ثنايا الكنب البلدي في حجرة الجلوس ، وهي متربعة الجلسة على كنبة منها، وقد تلاحقت ضرباتها لصدرها تولول :

- يا خراب بيتك يا فتحيه... يا لهوي يا فتحيه .. كان مكتوب لك فين دا يا اختي .. يا عيني يا بنتي .. مالكيش حظ زي أمك الغلبانه.

كان منزل أمي في إحدى الحارات السد لحي شعبي كبير يطلق عليه سوق أو شارع الخضار، مليء بأشهر محلات العطارة والذهب والفضة والقماش بكل أنواعه الرخيصة والغالية الثمن، معظم ملكيتها لصعايدة مسلمين ومسيحيين أتوا من " الصعيد الجواني " ولهم نسل ممدود من بدء الصعيد الذي تمثله مدينتي إلى نهاية خط الصعيد ، حيث جذورهم وأصولهم الأولى إلى أن كبروا وهاجر بعضهم وبقي البعض الآخر، والتنقل والترحال ينحصر في اجتياز خط الصعيد الممتد رسميًّا من محافظة الجيزة إلى محافظة أسوان والهجرة إلى العاصمة الأم القاهرة .

على حافَّتَي الشارع الطويل الواسع يُوجَد الباعة الجائلون، والبائعات الفلاحات بجلابيبهن السوداء. كُنَّ يتكسبن نقودًا قليلة مِمَّا يبعنه، وقد استغلَّ صاحب الزرع أو التاجر عوزهن وفقرهن. يضعن أمامهن السلال والقفف بشتى أنواع الخضار والفاكهة والسمك الشهي الطازج ومشنات ممتلئة بقطع الجبن القريش والزبد. ينبثق من هذا الشارع العديد من الحارات المفتوحة المؤدية إلى حارات وأزقَّة أصغر في الطول وعدد البيوت والحجم، فغالبًا ما تكون حارات مسدودة ، وتضمُّ

الحارة ثلاث أو أربع بيوت لا غير ، فيبدو سوق الخضار كلعبة "السلم والثعبان"، به العديد من المداخل والمخارج، مركزها جسد واحد هو الشارع الرئيسي سوق الخضار، لذلك كانت حارتنا السد أشبه بنقطة في بحر يعجُّ بالدكاكين الصغيرة والباعة والناس وأكشاك الغرز المتناثرة من حارة إلى حارة لعمل الشاي والمشروبات وتقديم النارجيلات لصغار الباعة، وفي المساء تستمرُّ هذه الغرز مفتوحة لجلسات السمر والنميمة والحكي عن أحداث مثيرة للتندر بها والهمز واللمز ، وفضح أسرار البيوت بتوحش وألفاظ نابية، كأنما يغسلون كدح وكفاح النهار بغل وحقد دفين تلوكه الألسنة كتعويض رخيص لأجسادهم المنهكة ، ونفوسهم المحرومة من أبهة وسلطان المحلات الكبرى لأصحابها أوائل من قطنوا الشارع الرئيسي ، واجتهدوا وثابروا ليلازم مجدهم مجد وعراقة شارع الخضار ، وقد أصبح من أكبر وأهمّ الشوارع التجارية في المحافظة كلها. غير متناسين أيضًا أنهم من عائلات معروفة الأصل ، وذات حسب ونسب وسط العامة والغوغاء الذين يدركون هذا جيدًا ، وإن كانوا يضمرون في نفوسهم سخطًا وبغضًا نحو من يتصورون أنهم أسيادهم المتعالون.

حارتي السدّ على ناصيتها منزل عمّ متولي المكون من ثلاثة طوابق، الطابق الأول به مصلًّى صغير عبارة عن حجرة واسعة مفروشة بالحصير، في جانبها عدد من الحنفيات وحوض للوضوء، تتدلى من السقف لمبات لا تشع زواياها المغبشة سوى نور أبيض باهت فلا يصل ضوء كافٍ إلى أرجاء الحجرة الواسعة، وعلى الإمام أو الخطيب الذي يسبق المصلين بخطوات ليؤمَّهم، أن يؤذن لأوقات الصلاة بصوته الجهوري. بقية الطابق فرن "فينو" ورثه عمّ متولي عن أبيه الذي علَّمه أسرار الصنعة وحمل لواءها بإخلاص ، فاشتهر رغيف عم متولي بكبرالحجم ، والطعم اللذيذ ، وبنفس السعر حينذاك عشرة قروش، حتى مرض عم متولي وشُلَّت ساقه اليسرى ، وقد تنكر أولاده لصنعته وللحارة وناسها المغمورين وسط الخراء والذباب والفقر ، وانتقلوا إلى أماكن أخرى ، ولم يبقَ لعم متولي بعد ملله من الرقاد على السرير غير الاستعانة بعكازَين حتى يستطيع السير وتسلق السلالم هابطًا من طابقه الثالث ليذهب للصلاة في المصلَّى ، ثم الجلوس في كل الأوقات على كرسيه الخشبي القصير القوائم ، والمحشوِّ بالقش المتين أمام فرن الفينو المغلق.

بجوار منزل عم متولي بيت هانم المهتورة كما أطلقت عليها أمي ، تعمل كوافيرة بيوت في أحياء الغمراوي والرحبة والخضار، لها ابنة لقبها إيمان الحولاء ، رفيقة طفولتي الأولى ، ثم يأتي بيتنا المتميز بتسلل شجرة الكافور بفروع متدلية إلى داخل بلكونته الصغيرة. ها أنا ذا الآن ، بعد سنوات طويلة ، أجلس أتأمل ذكرياتي الطفولية في فرن الفينو مع صديقتي الحولاء.

ونحن أطفال كنا نذهب يوميًّا لشراء الفينو كل يوم ، وقد كان هذا أقصى همنا في الحياة آنذاك. هذا الفرن في عهده القديم كان أشبه بالمزار لجميع الحارات المجاورة. بعد عودتنا من المدرسة نأكل ونذاكر دروسنا ثم نستحم ، وتدعك أمي فروة رأسي بالجاز حتى تبيد القمل الملتقط من عيال الحارة أو المدرسة ، ثم تغسله عدة مرات بالماء ، وتبقى رائحة الجاز النفاذة تزكم أنفي وتجعلني أتمرد .. أتملص من بين كفيها الغليظتين صارخه فيها أن تكف عن كَحْتِها لرأسي بعنف، فتهدئني وتفتح علبة الفازلين البلاستيكية ، وتدهنه حتى تخمد خصلاته الهشة والكثيفة وتجدله في ضفيرتين طويلتين لونهما بني غامق ، تتدرج درجاته إلى الفاتح مع نهاية أطراف الضفائر. بينما إيمان

الحولاء تتمتع بسمار خمري وعينين سوداوين ، وشعر أسود منساب بملمس حريري وضفائره ناعمة نعومة فائقة ، ولا يحتاج إلى الفازلين مع احتفاظها مثلي باستعمال الجاز ، كنت أغتاظ كثيرًا قائلة لنفسي أواسيها :

– بس أنا بيضه وعيني عسلي ومش حوله كمان ... يعني شقرا زي الأجانب ... أيوه أنا أحلى بكتير.. زي ما بيقولوا عليَّ عيال الحاره : الشقرا جات الشقرا راحت...

إيمان تلازمها عادة لوك "اللبان" طوال الوقت، حتى في النوم لا تفارق اللبانة فمها. وبسبب حبها المفرط، نالت علقة ساخنة، وقد عاقبتها أمُّها عقابًا مضاعَفًا عندما أحضرت سكينًا تقطع به اللحوم والدجاج وسخنت طرفه إلى حد الانصهار، وسلخت جزءًا من لحم كتفها ذاب بفعل عدة لسعات حامية دامية جعلتها تصرخ صراخًا جلب عددًا من النسوة يزعقن في الأم ويجذبنها بعيدًا عن الابنة المنهارة، بينما أم إيمان تضرب وتسب وتلعن بعبارة لا تتغير:

– والله يا بنت الكلب لاربِّيكي...

حتى دفعتها أمي دفعة قوية تجبرها على الجلوس، وأخرى

تحضر لها كوب ماء، وأخرى تطبطب على ظهرها، وفجأة أطلقت أمي فرقعتها اللفظية التي من يومها لازمت اسم هانم وأصبحت كنيتها إلى الأبد وسط كل الحارات : يجازيكي يا هانم يا مهتوره! حد يعمل كده في ضناه ؟!

إيمان كانت تتولى رعاية أخيها الأصغر منها حتى تمررت ، وملَّت هذا العناء اليومي الذي يعوقها عن متعة الطعام أو الشراب واللعب ، هي تلازمه ليل نهار حتى في نومها. كانت طفلة وأُمًّا لطفل عنوة. وتعبيرًا عن كمدها الطفولي، عندما أتاها طيف نعاس غامر تكاسلت عن إلقاء اللبانة، واضعة إيَّاها في شعر أخيها النائم بجوارها. لعدد من المرات مع تراكم الغبار والتراب، تحول رأسه إلى نفاية مليئة باللبان، حتى عرفت الأم مصادفة ، وهي تدلله في لحظات قلَّما تفعلها، فدُهِشَت وفتحت فمها مستنكرة ، وأحضرت المشط لتفك هذا الاشتباك المتغلغل في أعماق فروة رأسه، وقد اشتبك المشط داخل رأسه بغلالات، أصدرت صرخات متوالية فاجعة للطفل كلما حاولت تمرير المشط داخل خيوط اللبان العنكبوتية، فاستخدمت أصابع يديها، فغاصت في دوامة من خيوط مطاطية لم تعرف كيف تتخلص منها إلا بالماء الساخن، واضطُرَّت إلى

حلاقة رأسه حتى اصلع، وظلت برأسه ندوب زرقاء عميقة منزوعة الجلد جَرَّاء الشدِّ والجذب.

حُرِمَت إيمان لمدة طويلة من المصروف حتى لا تجرؤ بتاتًا على شراء اللبان، ولأنها صديقتي الحبيبة، كنت أشتريه وأعطيه لها خلسة بمجرد أن نتنادى من البلكونات للذهاب لإحضار الفينو، تتماسُّ يدي بيدها وتكون قد التقطت باكو اللبان فتضحك بصوت عالٍ مبتهجة ابتهاجًا صادقًا، وقد بدأ سيرنا إلى هَمِّنا السري الطفولي، وكنت بذلك أتجاهل تحذيرات أمي كلما هبطت على السلالم لمقابلة إيمان واللعب في الحارة قائلة بشدة :

- اوعي الحولا تضحك عليكي ، وتاخد مصروفك يا بت.

- اوعي حد يلعب فيكي يا بت ، ويعريكي من عيال الحارة المعفنين.

أستعيد الآن طابوران الفرن. كان كلاهما من الرجال والنساء ممتدين إلى خارج إطار حارتنا. كنا ننسلُّ داخل طابور الرجال لنشتري بسرعة، وقد أغراهم قصرنا، وطفولتنا البريئة ، وعدم قدرتنا على التساؤل أو الاعتراض، ونحن ننادي بصوت واحد :

- والنبي يا عم متولي، إديني خمستاشر رغيف فينو.. والنبي يا عم، والنبي يا عم...

بعد ربع ساعة تقريبًا، ينهار اصطفاف الطابورين، ويختلط الجميع، ويندسُّ الشباب ورجال يرتدون جلابيب وسراويل بيضاء وسط النسوة، مستغلين فرصة التزاحم ليمارسوا لعبة الوخزات داخل أجسادهن، بالإلتصاق بهن تعمدًا ظاهره سهو، وصراخ، وزعيق. داخله أنفاس لاهثة متلاحقة تتوسل رجاء ورغبة واحدة تفرغ مع النداء الأخير:

- يا عم متولي... ياعم متولي.. مش معقول كدا.

حتى لا يبقى إلاَ أصداء متلعثمة لأصوات عديدة وسط الزحام الشديد. ونحن أيضًا نندسُّ بينهم وسط هرج، ولغط الازدحام، ونُضطرُّ إلى الالتصاق بهم؛ فيشهر أحدهم شيئًا بارزًا من سرواله يحتك ويقرص في لحمي الطري الذي تنبض منه بذور الشهوة. في بدء الأمر لم تستوعب براءتي شيئًا، ولم أُعِر الأمر أي اهتمام، وقد استمرأت لعبة الوخزات المتوالية التي تعتصر ظهري وخلفيتي الصغيرة بشراسة، حتى بادرَت صديقتي الحولاء، وقد تسللت نبرة غاضبة إلى صوتها :

- فيه حاجة عاملة زي الدبوس بتشكني في الطابور.. أووف، إيه القرف دا ؟!

نظرت إليها نظرات استغراب. لم أخبرها أنه يحدث لي أيضًا ولا أتضايق مثلها، سكتُّ بخبث طفولي، لم أقل شيئًا فأنا لا أعلم ما كنه ما يحدث بالضبط. وذات يوم دفعَت رجلاً فبادرها قبل أن تنطق بشيء: ما تروحي يا بتّ صفّ الستات... بلاش مسخره .

عندما فقدت إيمان القدرة على أن تعقد أي صفقة صلح مع ما يُفعل فيها يوميًّا، جاءتها فكرة شيطانية، أن تدير نفسها بسرعة فائقة ، وتلصق اللبانة في من يضايقها من خلف الجلابية، وتجري مسرعة بمجرد أن تشتري الفينو من معمعة الطابور، لأكون أنا أيضًا على أهبة الفكاك، نتحرك مهللتين، ونحن نضع كيس الفينو في "سَبَت" متدلٍّ من البلكونة منتظرًا أرغفة الفينو اللذيذة الساخنة لترفعه إحدى أخواتنا ويرتفع أيضًا صوتنا في فرح غامر: هنلعب... هنلعب...

تهمس لي ضاحكة بخجل طفولي، واضعة إحدى كفَّيها على فمها تكتم ضحكًا، وقد اقترب بؤبؤا عينيها فاتضح

حولهما بشدة.. فكانت تنتابني رعشة وخوف كلما فعلت هذا أمامي حتى تقول: يا رب...هِهه ههه ها.. يارب يقعد ، ويلزق في الكنبه ، ومايعرفش يقوم.

لفحتني نسمات هواء عليل من فروع الشجرة العتيقة ؛ التي بذر بذرتها الأولى عمّ متولي مع حضوره إلى حارتنا السد ، وقد توارت في غياهب الزمن الجديد، و رحل الكثيرون عنها، كما رحل كل الباعة الجائلين ، والبائعات الفلاحات، بعد مطاردة شرطة البلدية لهم من رصيف إلى آخر حتى نقلوهم إلى سوق تحت الكوبري أنشأ مؤخرًا بأوامر من المحافظ الجديد، بينما ظلت محلات إلياس للذهب والفضة ، وأنطوان للقماش ، وفرج الصعيدي للعطارة محتفظة بلافتاتها القديمة بأسمائهم رغم موتهم، مستمرة مع أبنائهم أو مع مُلاَّك جدد آثروا الاحتفاظ بصيت الاسم القديم المشهور به توفيرًا للمال ، وجذبًا للزبون.

غاصت نفسي المهمومة بابتسامة مبتورة، وقد تذكرت تندر أمي على صديقتي الحولاء التي لا وجود لها الآن في حياتي : سيبك من أم كحلة ولبانه، تعمل عيانه وسهتانه طول النهار.

ها أنا ذا الآن أفكر في زوجي الراحل، وأنظر إلى ابنتي، وأتخيل طوابير جديدة في فرن جديد، فأجذب ابنتي إِلَيَّ وأقول لنفسي بحزم : لا ..لا .. إطلاقًا.. إنها لم تذهب إلى تلك الطوابير، ولن تذهب إليها أبدًا.

أنا اسمي التحرير

كلمة «التحرير» تعني «Liberation”

" فهذه هي الكلمة التي تعبر عن أن شيئًا في أرواحنا يصرخ من أجل الحرية، لذا فستظل تلك الكلمة (التحرير) Liberation تذكِّر المصريين بما فعلوه ، وبما ناضلوا من أجله ، وكيف غيروا بلدهم، وبتغييرهم بلدَهم غيَّروا العالم أيضًا ".

فبراير ٢٠١١م

ذهبت كعادتها إلى البقال الذي تشتري منه حاجاتها الضرورية سواء بالدفع كاملاً ، أو بالتقسيط إلى حين قبض المرتَّب أول الشهر، الوحيد الذي يعطيها بكل ثقة واحترام ما تحتاج إليه، كان جالسًا كعادته على الكرسيّ البلاستيكيّ أمام ثلاجة المياه الغازية، المعطاة له من مصنع كوكاكولا بالتقسيط، يغوص فيه حتى يغطّ في قيلولة نصف مستيقظ ، فقد كان عمّ محمد دقيق الأطراف، ضئيل الحجم، لذا كانوا يسمُّونه "محمد

الفار"، حتى التصق به ذلك اللقب بعد ذلك، وأصبح الناس ينادونه به مباشرة "من عند الفار"، يفتح قبل أذان الظهر بقليل إلى أخر الليل، ليس له زوجة أو أولاد، يستأجر شقة بحجرتين وصالة وَضِيعة في الطابق الأول في العمارة التي تقطن بها. عندما رأته أزاحت ما في صدرها مباشرة قائلة بتبرُّم :

- تَصوَّر رحت التموين اطلَّع بطاقة قالوا لي ماليش مع اني مطلقة واستحق! وبعد ما اتخانقت شاروا عليَّ برزمة ورق مالوش أول من أخر.. حاجة تقرف... والسكر بقى بـ ٨ جنيه.

بادرها هو الآخر بغضب قائلًا:

- بلد وسخة، أمال أنا أعمل إيه؟ إيجار الشقة ، والمحل ، والأكل ، والشرب ، والسجاير.. مش ملاحق، والدنيا بقت مولعة.. وماحدش بيرحم.. لأ وصاحبة الشقة عايزة ترفع الإيجار.

واستطرد عابرًا بالحديث إلى تفوُّه غير مُبالٍ به :

- بيقولوا على الفيسبوك. قال : هيعملوا يوم التلات مظاهرات.. في عيد الشرطة يعني.

فبادرته بتهكُّم قائلة :

ـ يا اخويا ، والنبي انتَ رايق وفايق، مش لاقي تاكل ، ومركِّب النت ، وطول الليل قاعد قدامه في البيت.

وعادت بحديثها إلى مربط الفرس ، فقالت بليونة واستعطاف :

ـباقولك إيه يا فار، والنبي خلِّي الطلبات دي على الحساب، عايزة اشتري جزم للعيال...

وتأوهت قائلة بحسرة :

ـ آه ياني، يا خسارة التعليم والمصاريف والشهادة العالية ! بقيت موظفة وكحيانة.

رغم سخريتها من حديث محمد الفار، سارت تهمهم ، وقد سرى في عقلها خيط دقيق واهٍ عن بعد غد هذا المنتظَر، وهي لا تعقل كلماته ، وتهمس لنفسها بحيرة وتشكك :

ـ مظاهرات – ثورة – دعوة على الفيسبوك... معقول يا ولاد ؟! طب والحكومة.. هتسكت ؟!

وجمت فجأة بعد أن لاحظت أن أحد المارة ينظرإليها

باستغراب ، وقد بدرت منه ضحكة استخفاف، فمدت خطوات قدميها مسرعة، خافضة رأسها، ناظرة إلى التراب الذي تسير عليه، وتتمني لو تبتلعها الأرض، من الملل والحنق على حياتها الصعبة، وهي مسؤولة عن تربية ثلاثة أطفال، بعد أن طلَّقَها زوجها، ورحل إلى حيث لا تعلم عنه شيئًا، حتى لا تطالبه بأي مصاريف، فهتفت ، وهي تفتح باب شقتها :

- يا رب ثورة، يا رب ثورة ... ربنا ياخد الحكومة ، والفقر.

في اليوم التالي أخبرها أكبر أبنائها ببراءة ، وخوف أن شاهد في التليفزيون في ميدان التحرير خناقة كبيرة بين الشباب، هرِعَت تقلب على جميع القنوات ، وتتابع الأخبار، فوجدته حقيقة تتوهج في ميدان التحرير، ومحافظات أخرى، ملأ الدنيا بهتاف واحد : (الشعب يريد إسقاط النظام...الشعب يريد إسقاط النظام ....).

شهقت فاغرة فاها، وطرقت بيديها على خدها الأيسر قائلة بدهشة :

- يخرب بيتك يا فار! دا كلامك طلع صحيح!

ثم همدت فجأة، ووحي الانكسار أتاها ثانية من اعتياد الإحباط واليأس ، وقالت بروحٍ مهزومةٍ :

- على رأي ابني، خناقة بين الشباب، والحكومه أكيد هتفضَّها.

مرَّ يوم، يومان، ثلاثة..... والمظاهرات مستمرَّة ، وغضبها يحرق رموز الحكم الفاسد، من مقرالحزب الوطني ، وأقسام الشرطة في جميع المحافظات تقريبًا، حتى أتت جمعة الغضب : ٢٨/ يناير / ٢٠١١م ، وتساقط الشهداء برصاص حي من أفراد الشرطة ، والأمن المركزي، فتأكدت أنها الثورة قادمة لا محالة ، وليست خناقة إطلاقًا بين شباب التحرير كما قال ابنها.

قررت بحزم ، وندم على ما فاتها من أيام أن تذهب إلى التحرير، بعد أن سافرت إلى قريتها في محافظة المنيا ؛ لتترك الأطفال عند أمها. متعللة بأنها إجازة نصف العام، ويحتاجون إلى بعض الترفيه والتغيير قبل العودة إلى مدارسهم، لتلحق هي بالتغيير الجديد في ميدان التحرير، وفي طريق العودة من بلدتها لم تعُد إلى بيتها، بل ركبت ميكروباص ميدان لبنان ، ومنه إلى ميدان التحرير، وبكل هِمَّة وحماسة تظاهرت مع كل الجموع ،

وتأهبت هي الأخرى لجمعة الرحيل كما تواعد الجميع.

توقف العمل في جميع المؤسسات تقريبًا، لتأجُّج المظاهرات، وهلع الناس من الفارِّين من السجون والبلطجية بإيعازمن رؤوس الفساد لترويع الناس، وقد اختفى الأمن تمامًا من البلاد، لكنها عندما ذهبت إلى ميدان التحرير، ورأت ما رأت من شباب بهيِّ الطلعة، جميل الملامح، يصرخون بغضب وعزم مصرِّين على تحقيق مطالبهم، وآخرين يبدو أنهم ليسوا بفقراء أو محتاجين إلى المال مثلها ، ومثل الكثيرين من أفراد الطبقة الوسطى التي انهارت مع وحش الغلاء، زال عنها أي خوف ، وأدركت أنها ثورة شعبية فقط من أجل التغيير والحرية، وليست لمجرد مطالب محددة، وأعلام مصرية ترفرف على البيوت ، والسيارات ، وأيادي الشباب، والأطفال، وكبار السنِّ وجميع فئات الشعب، يرفع بعضهم لافتات باللغة الإنجليزية، أو يرسمون بالأحجار قلب الوطن المقهور، ويخطُّون داخله بالأحجار أيضًا كلمات "Welcom freedom"، وآخر يحمل دفًّا مكتوبًا عليه سيرته الذاتية في الحياة: "عمري ٣٠ سنة، عاطل ، ولا أجد عملاً ، ولا أستطيع الزواج، وأريد رحيل النظام"، وأصدقاؤه يرفعونه على أكتافهم صارخًا يهتف ، وهو يطرق

على الدف في خبطات متوالية وخلفه يردد الباقون :

ـ ارحل... ارحل... مش هنمشي... هُوّ يمشي... ارحل... ارحل.. عايز حقي... عايز حقي.

وآخرون يلقون الأشعار، ويرددون أغاني الشيخ أمام، وهي تهتف وتصرخ ، وقد امتزج ألمها الساحق داخل نفسها المقهورة والمحزونة ؛ بحزن الوطن الغائب من زمن بعيد حتى إن ملامحه غابت عنها ، وكادت في لحظات بعينها تنسى اسمه فعلًا، حتى تذكرته مرة أخرى هنا في التحرير، وتدفقت دموعها غزيرة وهي تصرخ مع هتافات أمهات وآباء أبنائهم الشهداء يهتفون بحرقه وألم :

ـ دم الشهداء مش هيضيع يا ريس... ارحل... ارحل... ارحل.

وتهتف خلف هذا وذاك، ثم تجلس للراحة في جانب به زروع خضراء يجلس فيه المتظاهرون يأكلون ويشربون وينامون كأنهم في بيوتهم، حتى ثبتوا لافتة بجانبهم مكتوبًا عليها :

" بيتي في التحرير حتى يرحل... يرحل إلى الأبد ".

ثم فجأة يحضر أحد الشباب يناولها زجاجة ماء ، ويأمرها بابتسامة وأدب جم :

يلّا قومي... تعالي الناحيه دي مع البنات والستات.

فتضحك وتهبُّ واقفة هاتفة كالملسوعة ، كأنها نسيت دورها ، وواجبها ، ولو للحظات، فهتفت بكل جوارحها :

" الشعب يريد إسقاط النظام.... الشعب يريد إسقاط النظام ...."

حاولَت العودة إلى بيتها وفشلت بعد حظر التجوال. الذي بدأ في الخامسة ثم الرابعة ثم الثالثة عصرًا، فقررت بخشية وحذر التوجُّه إلى منزل أختها في عابدين للاستضافة، وهاتَفَتها بوَجَل :

- أنا جا يا لك.

قالت بذعر :

- إنتِ فين ؟ إنتِ في المظاهرات ؟! أكيد اتجننتي ! وعيالك ؟!

- إنت اللي مجنونة، مصر كلها هنا ، وانتِ قاعده جنب جوزك وعَيالك !

خفَّت نيران غضبها عندما فوجئت بردها الحاسم ، وقالت مستسلمة :

ـ طيب تعالي... ماتخافيش، هيقابلك جوزي مع اللجنة الشعبية تحت البيت.

سارت لا تشعر بمشقَّة السير، والطريق الطويل ، ونفسها فرِحة متهللة، تهتف بصوت خفيف كالممسوسة : الشعب يريد إسقاط النظام... ومصر هتتغير.. مصر هتتغير... الشعب يريد إسقاط النظام... تحيا مصر... تحيا مصر.. الشعب يريد إسقاط النظام.. تحيا مصر، تحيا مصر...

حتى لمحها أحد الشباب فهرع إليها يناديها برفق وحذر:

ـ تحبي أوصّلك ؟ ماتخافيش ، أنا من اللجان الشعبية، أوصلك؟

توقفت عن السير، وهي تبتسم له ابتسامه عريضة، وتَمنَّت أن تصافحه أو تلتقط له صورة ، وهي بجانبه حتى لا تنسى

ملامحه الوديعة والحنون، وعينيه المليئتين بسهاد السهر، والارهاق لحراسة أهله وجيرانه، لكن رغم ذلك تتوقدان شبابًا ، وقوةً ، وجموحًا ، وتحدِّيًا ، كشاروقة الفرن اللاهبة. شكرته مرة أولى وثانية وثالثة قائلة بفرح :

ـ خليك، خلاص، البيت في أخر الشارع.

فتركها على استحياء ، وقال :

ـ طيب، أنا واقف هنا لغاية ما توصلي.

في الصباح الباكر تركوا فقط زوج أختها يغطُّ في نومه من عناء اليقظة طوال الليل مع شباب ورجال الشارع لتأمينه، وذهبن جميعًا هي واختها وبناتها الشابات إلى ميدان التحرير سيرًا على الأقدام في انتظار الرحيل الذي امتدَّ لأسبوع آخر، وزاد عنفوانه بعد خروج بلطجية الحزب الحاكم مساء الأربعاء الموافق ٢/ فبراير/ ٢٠١١م لإراقة الدماء، وإلقاء زجاجات المولوتوف الحارقة، والأعيرة النارية لفضِّ اشتباك المتظاهرين، فما كان منهم إلاَّ إقامة خيام الحرية البيضاء في وسط الميدان اتقاءً للبرد والمطر ومواصلة التظاهر صباحًا ومساءً، وفي أثناء سيرها التقت بالمصادفة بصاحبَ النبوءة العظيمة، عمّ محمد الفار،

وهو يرفع لافتة كرتونية مكتوبًا عليها : " ارحل بقى، ارحل .. إيدي وجعتني .. مش معقول كدا ".

فضحكا ضحكًا عاليًا وطرقا على أيديهما، حتى جاءت جمعة " الرحيل " ١١/ فبراير /٢٠١١م، وهتفوا جميعًا يبكون ، ويصرخون بكل أرواحهم بفرحة غامرة :

" الشعب خلاص أسقط النظام... واللي يحب مصر، ما يخرّبش مصر" .

المصيدة

حياتك كلها أشبه بعلبة ثقاب مطفأة ، وأنتَ تنفث دخان سجائرك المعتاد سيجارة.. وراء سيجارة ؛ كمن يدهس الحياة بإنتحار بطئ ، عضلات جسدك كأعواد انكسر وهجها بجرح لا مفر منه ، ولا يندمل ، وقلب احترق بلا عودة ، كعود كبريت وسط شرايين ، وأوردة تالفة ، وغضب يمحق تفاصيل وجهك الأسطورية ، بدم بارد مثل حشرات ذوات الدم البارد .. إنه أشبه بكمين أفقدك عذريتك ، بل أنه كمين لا فِكاك منه يا أيها البحار...لا فكاك.

قالت : أنت مشروع غير مكتمل ، وستكتمل على يداي الراغبة بك.

قال : أنت شهية مرتجاه دومًا للاقتناص يا زينب.

إلى المتيَّمين بالألعاب السحرية ، لعبة البهلوانات الجديرة بالعقل الإنساني ، والحيواني معًا.

لنعرف كيف نستخلص سعادة طفل بعيدًا عن ثدي أمه ؟
كيف تتحول المياة إلى سحر ملائكي ، وجحيم دانتي ؟
كيف نرهف السمع لصلصلات الزمن القديم ؟
كيف تكون فعّالًا تهوى التجوال ، متحررًا من التحكم ؟
وطيبًا تعبد وجوه الآلهة المألوفة ، القريبة لقلوبنا ،
وتسرق وجوه الآلهة الأخرى ؛ لتتقمصها ، وتلبس
أقنعة الأشباح ، والبهلوانات الضاحكين ، والباكين
في لحظات حاسمة للفراق .. للنهايات .....
وأخيرًا .. ولا .. انتهاءً .. للبدايات مرة أخرى.

- البيت دا مصيدة.

أطلق البحارعلى منزلنا اسم المصيدة ، شباكها تلتقط الصالح ، والطالح ، إنه منزل بلا أسماء ، منزل الجميع ، ليس له خصوصية ، منزل ابن اللحظة التي يسجلها أحد أفراد اللوبي ، لوبي من الأصدقاء ، لا يتحرر إطلاقًا من المصيدة ، إنه بلا أبواب موصدة ، وألعابنا مفتوحة للجميع ليس لها توقيت ، تبدأ

اللعبة أجواءها بحضور جميع أفراد اللوبي ، والبحار عليه أن يخبرنا بشروط اللعبة ، وعليه أن يبدأ اللعبة ، وعليه أن يختمها أيضًا. قائلًا :

- " في المصيدة ما فيش ألقاب ، ما فيش عناوين ، ما فيش حدود ، هنا بنعالج مشكلة الكذب ، ونقول بصراحة الحقيقة ، اللي عايزين نقوله ، ونعمله. يعني نعري نفسنا قدام بعض ، مكشوفين من غير تمثيليات ، ومجاملات . خلفيتنا كل أشكال الموسيقى العظيمة ، هنا قلبنا ، وعقلنا زي المسرح ، مفتوح على المتفرجين ، لكن عارفين مين هما المتفرجين ، والممثلين .. هما إحنا في نفس الوقت " (١).

يقف على أعلى الكرسي ، ويرفع يديه ، وصوته ، قائلًا :

- نحن المتيمون بالحقيقة ،

والحقيقة متيمة بالصدق ،

والصدق متيم بصديقه العزيز الحب.

تسأل وردة بشغف :

- هنلعب إيه النهارده ؟

يبدأ اللعبة قائلًا :

- اليوم سنتحدث عن مصر ، بعد ثلاث سنوات ، ونحن من ثلاث سنوات قادمة.

- الأستاذ : معيار تغيير مصر بعد ثلاث سنوات ، هو ما يبقاش في مطبات ، تتلغي من الشوارع ، الطريق يبقى مستقيم ، ومخطط ... بداية قصة قصيرة . إيه رأيكم ؟

هكذا هو أستاذي ، كل شئ يقوله هو قصة قصيرة ، ودائمًا ناقصة .

زينب : الستات ترجع تلبس في كل الشوارع زي زمان ، قصير ، وميني جيب.

وردة : أطلع رحلة للقمر.

الطبيب الفنان : ماحدش يموت من السرطان.

البحار : نحن في هذا اللوبي سابقين الثلاث سنوات بمراحل ، ويستطرد :

- أحيانا نقول : صعب جدًا أن نتغير ، نحن هكذا أسوياء متفقون مع أنفسنا إلى أن يأتى بشر التغيير يدفعوننا إلى

عملية انتزاع مضنية ، من أحداث ، وتفاصيل سوداء عن العذابات القديمة ، أو تعاسات الحب الأولى ، فهناك دائمًا مايدعوني لعالمنا الصغير ، عالم ماتحت الجلد ، عالم المحسوس ، والمجرد ، عالم التوتر، والتحفز، والمغامرة التي أعتبرها جزء من تجربتنا اليومية الفنية ، وتحصلنا على قدر من الثقافة ، والمعرفة ، ورحابة الأفق ، فأنت ياصديقي تتنفس هواء التجارب السامة في كل ليلة ، كل لحظة ، وكلما أتاني الضيق وتسرب الضعف فى روحي ، أقاومه غير عابئ بانهياراتي ، أبحث عن شئ يجعل الحياة أكثر إشراقًا ، ولو قليلًا ، حتى ولو راودني إحساس حقيقي بالجفوة من كل شئ حولي ؛ ليصبح الخروج مستحيل من المصيدة ، شعار منزلنا المسكون بعفاريت الحكي ، ميكروفونات الحوار ، بهلوانات التغيير ، أراجوزات التحريض.

لقد كان يكتنفني البحار بروح من الفتوة ، والشباب الأسطوري المألوف بعمق ، وقد تدفقت فى عروقي دماء تلك الأيام ، وكل ماكنت قد فعلته ، وفكرت فيه ، وكنته منذ ذلك الحين معه.

مرة أخرى .... تبدأ اللعبة كالعادة قائلًا :

- (الفن هو التسلية ، فلماذا لا نحكي عن مأساة جيدة التراجيديا ومسلية). تقاطعه زينب ، وتقول بإعجاب :

- إحكي ياسيدي!

يستكمل بابتسامة :

- " ابتهج العالم عندما ولد ابنه الأكبر ، وكان اسمه الفن ، وقد كان طفلًا وديعًا ، فطري الجمال ، وفرح العالم له ، فمرة يصنع له الجبال .. ومرة يسيل له بحوارًا لا تحصى ، ولم لا ؟! فللإبن الأول معزة خاصة لا تزول مهما كبر وشاخ ".

يقول هاملت :

- هكذا تنتهي الأمور ، وأنا أقول ليس من أمور لتنتهي ، لكنها إرادة مسبقة ، ولعنة أبدية. ما الذى يعرقل حركتي لهذا الدأب المتواصل ؟ لم أكن تافهًا لأجهل أن الفن فقط هو الأداء الوحيد ؛ الذي لاتستطيع الآلهة أن تواجهه ، إنها تنتصر فيما دون ذلك ، بلا شك غرقت في استهلاك الحياة

والأيام ؛ بأن هذا البسيط جدًّا من الحقيقة ، وكان هذا لجهل شديد مني .

يسأل الطبيب الفنان بحياد :

- إيه هو الجنون يا عم البحار؟

ينظر باتجاه آخر كمن يظهر له شخص قائلًا :

- أنت .. أنت تظهر لي ثانية ، أم أنك روح ملعونة قد تكون قادمة لي من زمن بعيد ، قد يكون الشرق ، فهو يبدو لي أحيانا أنه أصل لأشياء كبيرة تعيش بيننا. تنسحب فى أجسادنا قبل عقولنا ، الإنسان الأول ، والنظريات القديمة عنه ، بأن أصله قرد يسير على أربع ، وكل هذا الهراء ، أم ما عساه. لا أعرف ماذا أقول ! ، هل أصابني مس من جنون ما ؟! أم مستني روح غريبة بعيدة تسربت لي عبر تأملاتي في المدن القصية. دون أن أنال ملاذي ؟! ويسترسل :

- الرجل يبدأ جنونه عندما يشعر بابتذال ما ، كون وجود حقيقة فى العالم لا يستطيع أن يتقبلها داخله.. لا يستطيع أن يستمر .. إنه التثبيت ، لكن ربما لا يحدث هذا مع كل

شخص.

إنني أتكلم عن الجنون الذي يخصني ، أما الآخرون فلا يرون مانعـًا من احتمال الأشياء البسيطة المبتذلة ، وأن يكون لهم حياة أخرى سوف يعيشونها ، كل على حسب عقله ، لكنني أيضًا من هؤلاء البشر جميعًا.

يسأل الأستاذ بتحَّد :

- إيه هو الموت ؟

يجيب بثقة ، ودون أن ينظر إليه :

- الأشخاص تجمعها بعض الأداءات ، والمشاعر الصبيانية ، والاستهتار، وعلاقة كل الأشياء ببعضها. في النهاية تمتزج مع بعضها إلى حد الموت ، وتبدو ملتصقة بنا ، كالجنين المجهول فى بطن أم عفية صغيرة .. من الحب ، والعشق ، والفراق ، والعنف ، إنهم جميعًا يموتون فى النهاية.

- أن تعيش فى العالم يجب أن تكون مقتنعا حقًّا ، وبإيمان أصيل أن الموت هو مصير كل الكائنات ، وأعني جرس الدخول إلى الحصة الأولى ، واتجاه التلاميذ والمدرسين

إلى الفصول .. بينما ظللت أنت وحدك فى الحوش ، لا يعبأ بك أحد ، أم لأنك أنت الذي تآمرت عليّ يا ملعون.

(مشيراً إلى الأستاذ بتحدٍّ أيضًا).

تعود زينب مرة أخرى ، وتسأل بشجن :

- إيه هي الموسيقى ؟!

يجيب بابتسامة عريضة قائلًا :

- نحن لا نشاهد كمتفرجين دومًا ، وتنقلب الأدوار من حين لآخر ، ورصيد موتي وموت كل الأشياء يمر ببطء ، على ارتفاع إيقاع موسيقي نقي وقوي .. نعم الموسيقى هي خلفية هذا الموت ، ألا تعرفون أنها أغنية القداس ، وتراتيل الأديان فى ردم الإنسان تحت التراب .. فى النهاية لقد تصادف فى حياتي أن شاهدت هذا كله.

ثم ينظر لعيناي زينب ، ويتساءل بوَله وحزن :

- أيوجد مكان فارغ لأغنية رومانسية ، أم قد ملت المدافع أن تنشد أغنيتها الحزينة ، إنها كتحفة مخبوءة ، لا أراها من كثرة الغبار، والموسيقى تحتل حجرات كاملة من عقلي.

يرتفع صوت وردة الخافت من وقت تسأل :

- إيه هو الحب ؟

- نعم .. خلقنا نحن البشر الحب ، ولكن رغم عذاباته ، ليس بأيدينا ألا نحب ، ويخرج من طوعنا التي لا كاسر لها ، ينشر الحب نفسه على المعذب ، الهادئ ، المتذمر ، البائس ....

يجلس فجأة ، ويقول بحب :

- جيل الأحلام العظيمة ، والانكسارات العظيمة تحب ، الجميع يحب ، فالحب هو :

فن .. تدفق .. زوال .. وانفصال ،

موسيقى .. انقلاب .. موت .. وذكرى ،

جنون .. وتفتيت ، مهما كان حبيبي ،

هو رغبة .. وامتلاك ، هو حبيبي إلى الأبد.

فجأة يطرح قضية أخرى جعلتنا ننظر له باندهاش أثير قائلًا :

- ماهو القصاص يا أصدقاء المصيدة ؟

- هو طرح له درجاته لكل شخص ، ابتداءً من شخص مثلي شقي ، ومقهور ، حتى رجل آبات نفسه في أكوام ، وبراميل الزبالة ، من هو هذا الرجل ؟! وكيف يعيش بهذه الأحاسيس ؟! وسط حقيقة أن : الأكل ، والشراب ، وكل الحاجات ، والكائنات تموت .. نعم .. نعم ... يا أصدقاء المصيدة ، إن كل شئ إلى زوال ، لأن أي شخص ذات نفسه عبد من عبيد الزوال.

يتجرع البحار كأسًا دسمًا أحضرته له زينب ، ويعبر دراميًا عن نفسه قائلًا :

- آذاني العالم كثيرًا بأفعاله الطيبة والخبيثة ، أنكرني العالم كثيرًا ، وها هي الحياة تقول لي : إن كل هذا قد يضنيك لمصير مجهول ، وقدر يخصك ، وعقلي ينشغل في نفس الوقت بموضوعات تافهة أحب أن أكونها الآن.

ـ معالجة قصصية مستوحاة من فيلم (الاختيار)(١) : .
من إخراج يوسف شاهين ، قصة سينمائية نجيب محفوظ .
سيناريو وحوار: نجيب محفوظ ، ويوسف شاهين. قصة

الفيلم تنحصر في شخصيتين : "سيد ومحمود" هما الشخص نفسه بوجهين مختلفين. سيد يعبرعن : المجتمع ، والقانون بزيه المهندم ، ومنزلته الاجتماعية الرفيعة ، وهو يمتلك السلطة ، والقوة ، والنفوذ. بينما محمود يعبرعن : الوجه الآخر للمجتمع ؛ بداخله الفنان الرومانسي ، والفيلسوف ، والبحار، والحياة ، والحب ، وكل ما هو غير مألوف في مجتمع المعايير المنظمة ، والقانون المتعدد الأقنعة.

الفيلم يعبرعن : ازدواجية كل فرد في المجتمع. فأنا ، وأنت وربما الجميع ؛ داخله سيد الرسمي ، ومحمود الحر، وشخصية الزوجة تمثل المرأة الحائرة ؛ زوجة سيد الشخص المهم ، ولكنها تحب الوجه الآخر؛ المتمثل في شخصية محمود البحار...

أيوب المصري

جاءني اتصال هاتفي كالمعتاد من أستاذي في مدرسة الصفا الإعدادية بنات، وهي المدرسة نفسها التي أعمل فيها الآن في مدينة بني سويف، وهي من أشهر المدارس النموذجية، وأنا الآن معلم أول على الدرجة الثانية، في حين أن أستاذي عمره الآن يناهز ٦٨ عامًا، إلا أنه ما زال يذكرني ولا ينسى أبدًا فعلتي الشنعاء من وجهة نظره ويداعبني بضحك : كيف حال الفنانة الموهوبة في رسم الخرائط، التي نقضت العهد ودخلت قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب دون رغبتي؟ وكل مرة أعتذر إليه بشدة ، وأعلل هذا أن أبويَّ هما اللذان أجبراني على دخول هذا القسم لتفوقي فيه، مثل تفوقي في مادة الدراسات الاجتماعية، وخاصة الجغرافيا... أرجوك سامحني أستاذي.

ـ ولكن ألا ترين أنها صدفة قدرية أن أدرس لك أيضًا في المرحلة الثانوية.

يومها صرخ فيَّ أستاذي ضاحكًا ومهللاً:

ـ هذا القدر يثبت أنك لا بد أن تكوني تلميذتي النجيبة الموهوبة في رسم أصعب الخرائط بشكل مضبوط، ومتناسق، وواضح، ودقيق إلى حد ما، دون قياسات، ودون أن تستعيني بالورق الشفاف لطباعتها كما تفعل زميلاتك.

– نعم أستاذي بمجرد النظر أحسب المسافات، والأميال.

– إنه حس بديهي، وأصابع سحرية، وموهبة من عند الرب.

أضحك بشدة، والحمرة تكسو وجنتيَّ خجلا، وقد كان يلاحقني بالإشادة أمام زميلاتي، وزملائه في العمل.

وقلت بانتباه: **هل تذكر أستاذي كيف رسمت إيطاليا ؟**

قال مبتسمًا: **إيطاليا أشبه بحذاء برقبة على الخريطة.**

ثم حاولت تجاهل الأمر حتى لا أذكره ثانية بفعلتي الإجرامية، ويعد إلى إيلامي وتعنيفي وقلت: **هل سمعت أستاذي عن حادثة مدرسة الشعب الإعدادية، أنا شاهدتها**

على النت في فيديو انتشر على المواقع، يصور طلابًا نزعوا ملابس مدرسهم، وحبسوه في الفصل بعد ربطه بحبال في كرسيه، وأحضروا أصدقاءهم من الفصول الأخرى ليضحكوا على المشهد .

رد أستاذي سريعًا سخطًا وغضبًا :

- الدروس الخصوصية يا ابنتي هي السبب، جعلت من المدرسين أراجوزات من أجل المال بالخضوع لرغبات الأهالي ، وطيش وتفاهة الأولاد ، والبنات من أجل المال، الله يلعن دي وزارة ، ودي حكومة ، ودي عيال... لا تربية ، ولا أخلاق ، ولا علم... كان يقدر ولد أو بنت أن يفعل هذا ، وأنا مدير المدرسة... قولي يا سلمى هل كان يستطيع... قولي...

عاجلته بنبرة هادئة وباردة :

- خلاص أستاذي... لا تغضب، أنا أحكي للتفكه أرجوك... المهم كيف حالك وحال البنتين الحلوتين والأحفاد ؟ (فقد كانتا صديقتيَّ في المدرسة الثانوية).

وعاد إلى هدوئه قهرًا ، وتمللاً من عدم جدوى الكلام، وتذكر، وتذكرت أنه صائم، فقلت على الفور لإنقاذنا من السأم والإحباط الذي داهمنا :

- وأخبار الصيام إيه أستاذي، كل سنة وإنت طيب ، وصائم دائمًا مع حبيبتك العدرا.
- هل تعرفين يا سلمى ما قصة صيام العدرا ؟ فأجاب دون انتظار جواب مني.
- يُحكى أن السيد المسيح أمر تلاميذه، ومنهم القديس توما الرسول، بالاعتناء بالعدرا المباركة... في أثناء غيابه... حتى وافتها المنية ، وصعدت روحها الطاهرة إلى السماء، وكان القديس دائم السفر، والترحال إلى البلاد الأخرى ؛ للتبشير بالدين المسيحي ونشره، وفي إحدى سفرياته الطويلة، رأى جسد أمنا العدرا والملائكة تصعد به إلى السماء، وعندما عاد سأل عن السيدة مريم ، فأخبروه أنها توفيت، وهي الآن في قبرها الكريم، فقال لا أصدق إلا حين أراه بعينيَّ، وذهبوا إلى القبر، ولم يجدوا الكفن في مكانه المفترض، فقال مبتهجًا : لقد صدقت نبوءتي، فقد رأى

جسدها وروحها تصعد إلى السماء مع الملائكة، فقالوا : لا نصدقك حتى نرى شاهدًا على هذا القول الإعجازي، فاقترح عليهم أن يصوموا ، ويطلبوا من الرب أن يريهم كما رآه بشخصه، واتفقوا على تحديد وقت حتى يحقق لهم الرب تلك الرؤية الإلهية المقدسة للعدرا مريم الطاهرة... وقد كان ما كان... وأرسل إليهم شاهدًا سماويًا بظهور أمنا أم النور، وشاهدوها تصعد إلى السماء المباركة، فكان صيام العدرا في ذاك الوقت بالذات نحو خمسة عشر يومًا في الأول من مسري (أغسطس) إلى ١٦ من مسري من كل عام.

الأُمُومة

كُنَّا نيامـًا ننتظر الكوابيس ، وما أعدته لنا في هذه الليلة ، وفي أحد الأيام ونحن ، ننتظر مفاجأت الكوابيس ، فإذا بشىء يدق بشدة قمنا ، وتفحصنا النظر حولنا كما تعودنا ، ما الذى يهتز فجأة هكذا ؟ ما هذا ؟ يبدو أنه قلبي الذى يئن بإشتياق لعينية الحائرتين والمليئتين بالدموع .

" برشامة " أخرى وأخرى تلدغ تلافيف عقلى بعيداً عن سموم الذكريات ، إنه النوم ثم الهذيان ، أرى الناس أشكالاً هندسية ، وبعد وقتً .. عرائس تتحرك ، إنه ليس أنا ، الشخص البشوش ، مهندم اللباس والوجه ، إنه ليس أنا ، تعرفين يا أمي لولا المهدئ لأجد نفسي إنسانة أخرى تطارد دموعها وسط المارين ، والغادرين حتى لتود أن تبتلعها الأرض ، ولا يعود لها ظهور آخر " مش عارفة أنام يا أمي " .

تتشابك سهام فى حضنها كهرة رقطاء مطرودة بأخطائها ،

وتسمع لغة النوم من الأم : وأنا صغيره لما كنت بنام ، كان يجيلى صوت شيطاني. أتجنن من القلق وأتضايق ، أبدأ بالبسملة ، وأعد من (100:1) لغاية ما أنعس وأنعس فعلاً .

تحاول سهام أن تنام محتضنة مربع الشمس الآت بزاوية قائمة من الشباك على فراشها مرتدية قميص نوم أحمراً قصيراً ، يظهر بياض ساقيها النحيفتين ، تغوص وتغوص فى أعماق مربع الشمس المنبعث ، كخيال ساقط يحصد الأرقام كآلة مدمرة تحصد زرعـًا خبيثـًا وتبدأ :

١٠٠-٩٩-٩٨-٩٧-٩٦-٩٥-٩٤-٩٣-٩٢-٩١-
٩٠-٨٩-٨٨-٨٧-٨٦-٨٥-٨٤-٨٣-٨٢.........

لم يكن بيننا لغة الحب المعهودة كأي ابنة لأي أم.

لم يكن بيننا لغة الحب المعهودة إطلاقـًا بأننا على طريق واحد ، دائمـًا نختلف ، دائمـًا تصرخين فى وجهى ، حتى إفتقدت مودتك إرتضيت عذابـًا ألمحة فى عينيك المنتهيتين من رحلة العمر الخاوية لأي امرأة غير محظوظة ، وها نحن يا أمى لا أعلم كيف تتقابل إشكاليتي معك ؟ ودربنا أصبح واحد تفتحين ذراعيك كانك أم جديدة ، وكأني ابنة أخرى ، هل لي أن

أصف لك وجعي الذي لا يقهر ؟ أضع ظهري المشروخ على مسند كرسيك الملكي ، وأنا أدرك أن مسنده ليس بخشبى ، ولا معدنى ، إنه كرسى ذو طبقات متعددة للموت ، تعدد ألوان الطيف ، تعدد طبقات السماء المعتمة المجهولة الموجهة لروحك المكافحة أن تتجاوزها وتصعد .. هل لي أن أرجوك أن يسعنا هذا الكرسي ؟ أمي : كنا خطين متوازيين كشريط القطار. لا نتقابل .. فكيف التقينا ؟

أنت بعامك السابع والخمسين.

وأنا بعامى السابع و العشرين.

نعبر سوياً الباحة الطويلة لمنزلك ، نسير خلف بعضنا كخيالات مآته تأخذيني بهدوء، وترشديني إلى جلسة الاسترخاء ، والاستمراء، والتنفس برشاقة منظمة تحت غطائنا السميك ، تخلقين لي مفاهيم جديدة للحياة ، تزرعين لي حواساً أخرى ، لها رنين أجراس تدمر تمردي الباهظ التكلفة ، لنجلس معاً جلسة أشبه بجلسة الهنود .. أين . أين تعلمت هذا يا أمي ؟ وأنت المرأة الطيبة ، الساذجة ، الفعالة جداً في عطاءاتك لأصغر كائن في منزلك .. من أخبرك بالسر ؟ هل هو

بيرم التونسى ؟ حين قال :

- شوف الهنود واتعلم .

تطلبين منى دائماً أن أبتاع لك الجرائد الرياضية ، لمعرفة مواعيد الماتشات مع إحتفاظ عزيز داخلك بإنتمائك للأهلي ، الفريق الوطني لك ، الذي يجعلك ترفعين يديك ، وجسدك كله ، تهللين كالفتيات حين يحرزن هدفا .. وحلم تتفوهين به صباحاً ومساءً أن تذهبي الإستاد كمشجعة ، أصيلة لفريقك .

عند غروب الشمس نندفع إلى الجلسة الباقية لنا من هلاك كان يحاصرنا،أرتعش إرتعاشات قوية أشعر بها ؛ كأننى جمرة خوف ، وتضميني إليك بحنان .

- ماذا بك يا ابنتي ؟

تجيب ارتعاشات الجسد :

- كنت وحدى بشدة يا أمي ، أغرق في البحر الواسع العميق ، ولا أعرف كيف أرجع منه ، وكلما ألم خطب جديد أقول أنها النهاية ، لابد أنها هي ، لأبتسم ابتسامة الطائر الحر، لكنها لم تكن كذلك يا أمي .. نعم .. لم تكن كذلك. إنه

كان إنكسار لا اصلاح له بل إلتهاب مزمن ؛ أصابني بالمرض الخبيث.

في ليلتي الخميس ، والجمعة المتضمنتين فى بعض الأحيان ليالى حفلات أضواء المدينة ، تنتظرين دومًا صديقاتك الخاسرات فى اللعبة مثلنا، اشدهن قربـًا لقلبك المتجدد في إتساعه أبلة سوسو ، سجل حافل من التعاسة ، طلقت افتراءً ، أُخذ أطفالها عنوة ، أصيبت بعدة أمراض :

السكر، الضغط ، والروماتيزم ، بعد معاناه سمح لها زوجها السابق بأن ترى أطفالها كل خميس عند أمى .

وتأتى أخريات ، هذه مات زوجها ، وهذه لم تنجب ، وهذه ..

أكثر ما يستحوذ انتباهك في جلساتك معهن ، أخبار النجوم ، مصائبهم ، أفراحهم ، زواجهم ، أزياؤهم ، وترتفع ضحكتي الخافضة من فترة ، وأنت تعلقين على إحدى فساتين المطربات :

- يا أبلة سوسو يا اختي ، بيأجروا الفساتين دي منين ؟ ..

دي فساتين غالية أوي يا اختي !! ترد شريكة الجلسة التحفة :

- أيوة يا حاجة أُمال إيه ...؟!

في ساعات النهار المملة ، والليالي التي تمر بجرأة. ألمحك تخاطبين أشباح أرواح الطيبين ، والشريرين ، والمتمردين ، والخاسرين ، جميعهم أن يلهمهم الله الصبر والمغفرة .

أحضرت الجديد

أمي تحدثني عن الفئران السبعة ، التي كافحت من أجل أن يموتوا، وقد أزعجوها تمامًا، وخربوا لها الخشب والملابس، ونفايات الإخراج بشعة الرائحة، حتى تحققت أمنيتها، واشتمت رائحة عفنة تشبه رائحة البنزين إلى جانب الكومودينو، وخلف شماعة الملابس الخشبية الأبنوسية القديمة من بقايا آثار أثاث والديها العتيق في حجرة نومها، كانت أمي سعيدة ، وهي تحكي لي مرة ثانية في أثناء زيارتي لها أن السبعة فئران مرة واحدة ماتوا، وبعد الإفراط في التعبير عن فرحتها، تبتئس ملامحها، وهي تخبرني أنها مرضت كثيرًا في هذا الشتاء، ولم تعد تستحم إلا مرة واحدة في الشهر من البرد القارص، وتهمهم بألم : متي ينتهي الشتاء؟ أكرهه. ولكنها تعاود قولاً متناقضًا : لكن الصيف أيضًا حرارته تطبق على أنفاسي ، وتصيبني بحالات اختناق تكاد تأخذ روحي، وتناشد ربها برجاء ، وكأنها تحدث

نفسها ، وهي تستحوذ على الحوار دون أي مشاركة مني غير هز رأسي ، والإنصات، حتى تزعق فيَّ ، وكأني ربها : متي أرتاح يا ربي؟ منذ عشرين عامًا ، وأنا أحضر كفني، وكل عدة سنوات أتصدق بالكفن القديم ، وأحضر كفنًا جديدًا من سبعة أدراج.. البفتة، القطن، الحرير العادي، الحرير الساتان اللامع، وتضغط بكفها على إحدى فخذَي :

- لا تنسي يا ابنتي، كما أوصيت، أُدفن في مدافن البلد (مغاغة) (في المنيا). إلى جانب أمي وأبي... وترفع ذراعها، ويرتفع صوتها أكثر: إيّاكم ودفني إلى جانب محمد زوجي.. أمي وأبي أولى بي. وانفعلت أنا أيضًا ، وقد شعرت بأن الوجود الكامل ، والناطق الحي لأمي قد تحول إلى انتهاء، وتلاشى، وتبلور إحساس كل منا ليمر على جسر من النار الملتهبة، وقد اشتعل على وسادة الليل بتوجس طاغ بالخطر الوشيك، إنه إحساس الموت الآتِ عاجلاً أو آجلاً، وما علينا سوى الانتظار، ورفعت يدي وصوتي مثلها، وقلت :

- أمي من فضلك... كفايه - كفايه... ألف بعد الشر عليك.

وبزهو قالت : لكن كفني محترم... الأدراج فردي ٣-٥-٧.. وتضحك فخرًا.

لكني أحضرت ٧، وأوصيت التربي بدفنة تليق بي، ومن حر مالي كما أمرنا الله.

تضايقت فعلاً، وآثرت الذهاب حتى يتوقف سيل الحديث عن الفِراق ؛ الذي لا أستوعبه بعد: كيف ؟ هل ستموت أمي ؟ كيف ؟ كيف ؟

- سأذهب يا أمي.. المهم إنك بخير.

فابتسمت وقبلتني.

- ولا يهمك يا حبيبتي.. سلامي لكريم.. ، وفجأة تذكرت كالملسوعة دون أن تتمم السلامات.

- أحضرت لك الكُبشة المخرمة، والحلَّة الصغيرة، ودواء للصراصير والأبراص.. بعد الشر عليك من الفئران القذرة.

والتقت عينانا ، وقد لفني الحزن بغلالة من هم انتظار الفِراق لأمي،التي تخطت الـ ٨٠ عامًا، ومقلتي عينيها تصرخان بوجل ، وتهافت ، وتتساءلان : متى الرحيل عن وطني ؟ فلقد أحضرت كفني الجديد " .

أنا الزّعيم

عندما مررت كعادتي من شارع الأباصيري الرئيسي فى منطقة بني سويف الجديدة ؛ المعروف والمزدحم بأهم وأشهر محلات الأناقة ، والأزياء ، والأحذية على مستوى المدينة. دلفت منه إلى شارع ضيق اجتازه هروبًا من الازدحام ، وتكدس السيارات ؛ للذهاب إلى عملي في مديرية الكهرباء.

شاهدت ورقة كرتونية لافتة للنظر على دكان المكوجي عم مصطفى : (انتقل إلى رحمة الله الزعيم الكبير مصطفى كامل ، والعزاء فى البلد ، وللإستعلام ت ....). لم أصدق عيناي، تسمرت في مكاني لبضع دقائق ، اغتمت روحي على هذا الصباح المريب ، وتأوهت هامسة لنفسي : يا إلهي عم مصطفى ! الذى يسكن بجوارنا في شارع الأباصيري حتى من قبل أن نقطن أنا وأسرتي في هذا الشارع ، فقد كان منزل والديه من زمن بعيد قبل أن يصبح الأباصيري من أكثر الأماكن ارتفاعًا في الثمن ، وكدت أن أعود إلى منزل أمي لأتاكد من الخبر، لكن تراجعت ، وتذكرت أنه لم يعد عندي أيام من الأجازة العارضة

متبقية لي ، فأرجأت هذا لحين العودة من العمل ، أخبرتني أمي بحزن بصحة الخبر ، وأنه توفى متأثرًا بتمدد الكالو في قدميه ، وآلام ظهره المقبب من آثار الوقفة والانحناء طويلاً على كي الملابس.

عم مصطفى كان مطوعًا في الجيش ، واستمر فيه ، حتى نقلوه صول في شرطة بندر بني سويف ، وكان أيضًا يمارس مع أبيه مهنة الكي ؛ حتى مات أبوه ، وتوارث المهنة ، وصمم على العمل بها رغم عمله الوظيفي ، فاستعان بصبي دائم التأخير في الحضور إلى العمل.

كان يعشق ابنة عمه شوق ، وظل يسعى وراءها خمس سنوات ؛ لرفض زوجة عمه زواجها من مكوجي ، وعندما فاز بها ظل في ليلة الزفاف يشرب الحشيش ، وزجاجات البيرة الإستيلا الخضراء ، حتى كاد أن يموت من الفرحة ، وعدم استعيابه أنه تزوجها حقيقة. شاهدتها وأنا طفلة في سبوع ابنها جابر، تطبل على طبلة بلدي اشترتها من سوق الثلاثاء ، وترتدي جلبابًا بمبيًا فاتحًا ،(واشرب) الفلاحات المبرقش بالورود الملونة الزاهية ، وضفائرها تهتزان بجنون من الطبل والرقص ، وكأنها لم تلد أو تعانى أو حتى تتألم ، وتزعق فرحة وفخورة :

- أنا مرات الزعيم مصطفى كامل على سن ورمح ،

ويضحك مَنْ حولها إعجابًا بجرأتها ، وتنكتها أمها غيظًا قائلة :

- لأ والنبي ... دا حيا الله ... مكوجي ياروح أمك.

بعد المعاش المبكر الذى ناله زهقًا من عمله البوليسي ، كان من الصباح لا يفارق جلسته ، مع عم محمد النمر ؛ الذي يفتح بجانبه محل أدوات خياطة ، وملابس حريمي داخلية ، ويظل الاثنان يعاكسان الزبونات اللاتي كُنَّ أغلبهنَّ سيدات ، متعتهما الوحيدة التي لا تتعدى حدود الملاطفة ، والإغواء والنكت القبيحة لمَنْ تستطرد ، وتلعب بالعين والحاجب ، وتضحك بغنج وإثارة ، ويرد عم مصطفى بعنجهية وعجرفة :

- يابت دا أنا الزعيم مصطفى كامل على سن ورمح.

تحسرت كمدًا على فراقه ، فقد كان طيبًا ومرحًا ، ويعتز باسمه إلى حد الهوس ، وقلت تأوهًا : الزعماء يموتون ، وهكذا يموت أشباه الزعماء أيضًا.

كذبة سمكة نيسان (إبريل) الشهيرة

(إبريل شهر الغبار والأكاذيب)

(عندما سقطت الأندلس، خرج الصليبيون، ونادوا بالناس : إنه مَنْ أراد النجاة بنفسه، وأهله، وماله، فليذهب إلى الشاطئ، فإن سفنًا كبيرة قدمت من المشرق لتأخذ مَنْ تبقى من المسلمين، وبالفعل صدق المسلمون، وذهبوا جميعًا إلى الشاطئ، وهناك كانت الخديعة ؛ حيث الجيش الصليبي كان بانتظارهم يحيط بهم من كل جانب، فأعملوا السيوف في رقاب المسلمين، وذبحوا النساء، والرجال ، والكبار، والصغار، وكان ذلك في الأول من نيسان؛ حيث دعيت هذه الخديعة بسمكة نيسان ، لأنهم كذبوا على المسلمين، واصطادوهم كالسمك، وبعد هذا يليق بنا أن نكذب ، وقد امتزجت هذه المعصية بدماء إخواننا ، وسخرية أعدائنا!!).

بعد أن قرأت هذه المعلومة على صفحتي الشخصية على الفيس بوك؛ حيث أرسلها لي أحد الأصدقاء بمناسبة حلول يوم عيد ميلادي، وبدون مقدمات صرخت ، وأنا جالسة وسط زميلاتي في مقر عملي الوظيفي، في حجرة شؤون الطلبة ، فكلهن سيدات؛ مما يطرح بيننا فعل ، وقول أي شيء دون حرج ما دام ليس معنا الجنس الآخر ، وقلت مبتسمة ابتسامة كبيرة : يا أخواتي العزيزات، اليوم عيد ميلادي.

فردت همت بفرحة : والنهارده كمان بصارة أبلة ناديه الحلوة.

ابتهجت ، واتجهت بالحديث إلى أبلة ناديه : صحيح أبلة ناديه معاكِ بصارة ؟

ضحكت وردت : هه هه هه هل صدقتِ ؟! دي كذبة إبريل.

وشاركتنا أبلة حمديه الحوار بتفكه ، ومزاح ثقيل :

ـ بمناسبة أن اليوم ١/ ٤ أي كذبة إبريل... أشارت لي بسبابتها أنتِ كذبة كبيرة يا سعاد ... يا غبية.. وضحكنا جميعًا ، وأخرجت همت الأطباق، وعندما رفعت غطاء الحلة،

تصاعدت رائحة البصارة فشهقنا جميعًا، وقالت أبلة حمديه : أهلاً أهلاً بكذبة إبريل اللذيذة. وبعد أن انتهت من تناول طبق البصارة ، ومسحت كفيها بفوطة صغيرة تحتفظ بها في درج مكتبها الخاص، بينما نحن منغمسين في الشروع في طبق ثانٍ وثالث ، مع التعزيزات الفاتحة للشهية من سلطة، وبصل أخضر ممزوج بالليمون والخل والكمون، والمخللات المتنوعة، وقفت في وسط الحجرة وقالت بتمثيل متقن :

- يا كذبة إبريل إليكِ الآتي : سعاد راضي عبد المولى أحمد . جاءها عقد التعاقد من مديرية التربية والتعليم ، فابتسمت ابتسامة أمل حقيقية ، وشهقن الجميع يتساءلن ، وصرخت فيها : صحيح والله ؟ طيب فين ، والنبي؟ فين بجد ؟! ، ونظرن إليها بدهشة ووجل ، حتى قهقهت بنوبة ضحك طويلة ، وقالت : ما هي دي كذبة إبريل يا سعاد .. يا طيبة.

المتمردتان

مال العالم يدفعني إلى حافة الجنون، تلك الأحلام الغريبة والملعونة تملأ حالات نومي ويقظتي بذكريات تلتصق بي كحشرة القراض تنمو وتكبر داخلي كوحش كاسر، لتدفني في دوامة من الأفكار المضطربة مع هواجس فراق الشباب والحيوية والنضارة بعد ترهل جسدي وانطفاء روحي، وفوبيا البحث عن أفضل برامج الدايت، أمام سمانة الردفين والكرش والنهدين المتهدلين، وظلال سميكة تخفي هالات وتجعيدات ؛ كشباك العنكبوت تنسج خيوطها تحت عيناي، وعند جبهتي، سأبدأ منتصف الأربعينيات، أعوام النضج، والصمت المرعب، تلك الحقائق المرعبة مثل أحلامي الملازمة لي.. الآن أشعر بتوسيع دائرة الاشتباك مع دهاليز الحياة الجديدة، ليس فقط باستخدام الحواس الخمس الموجودة لدى الجميع؛ وإنما تزيدهم الآن الحاسة السادسة، التي تخرج منها تجاوزات الفهم والاستيعاب لأدرك سبر أغوار الأشخاص والأمور في

وقت قصير جدًّا، وأهزأ وأتعجب من تلك الحاسة الجديدة ذات الاستقصاء البعيد من مجرد مؤشرات مألوفة، وحركات باتت واضحة بكل بساطة؛ كي أتفهم الأمر والشخص معًا سريعًا، إنها الخبرة الملعونة كأحلامي أيضًا.

أمس حلمت حلمًا غريبًا، بل آشبه بكابوس، أنني في منزل جدي القديم ذي الأبواب الخشبية القديمة الضخمة، والشبابيك الطولية لتلك الحجرات ذات الأسقف العالية، وعندما اتجهت إلى باحة المنزل الواسع الخلفية، رأيت أدراجًا كثيرة، وكأننا في فصل مدرسي كبير لا حدود له، وسرت إلى نهاية الأدراج، ثم مشيت في ردهة طويلة حتى وصلت إلى باب موصد عتيق الطراز مثل أبواب حكايات ألف ليلة وليلة، دفعته بكلتا يداي، وكان فصلاً دراسيًّا كبيرًا وواسعًا.. جدرانه رمادية اللون، والسقف معلق به مروحتين قديمتين على التوازي وتتدلى منهما الأسلاك، وتدوران بأقصى سرعة، حتى عندما أطلت النظر إليهما، ارتعبت بتخيل سقوطهما عليَّ وقتلي، واكتمل فزع المشهد بالتلاميذ المتراصين في الأدراج بنظام، منكفئين داخل رءوسهم على الأدراج كالنائمين نوم الميتين.. هلعت روحي، وتشتتت أفكاري، وكدت أصرخ، وجريت

إلى أخر الفصل أحاول الاختباء وأنا أراقب ما يحدث من بعيد، وبعد سويعات من الوقت بدأ بعض التلاميذ يستيقظون، ويخرجون، والباقون ما زالوا على وضعية النوم الآشبه بالموت، وتخللت جسدي برودة كالصقيع، جمدت أطرافي، واصطكت أسناني، وقرقرت بطني، وكنت أرتجف من رأسي إلى عقب أصابع قدماي كغصن شجرة داخل الماء، وسقطت على الأرض أجلس القرفصاء دافسة رأسي داخل ذراعي، وبكيت بكل ما أوتيت من قوة، حتى أجهشت بتنهدات عالية كمَنْ يعدد بقهر من حزن ساحق وماحق، حتى على غفلة، تسللت فتاة صغيرة بخفة الأرواح، عينيها بهما نور خابي مخيف، وتشع منهما رائحة الموت، الذي عاد إلى الحياة بغتة كروح شيطانية، وربتت على كتفي وأمرتني أن أخرج سريعًا من هنا، وذهبت عني، واستجمعت قواي المتخاذلة، وأنفاسي لا ألتقطها من البكاء، والفتاة الصغيرة واقفة تنظر إليَّ نظرات أشبه بالسهام تكاد تصيبني في مقتل، وبمجرد أن خرجت من باب الفصل لمغادرة المنزل، استيقظ جميع التلاميذ بنفس عيون الفتاة الصغيرة ينوون اللحاق بي، هكذا شعرت، وحضرتني قوة الحياة والمقاومة، فجريت بأقصى سرعة وهم يجروون

خلفي فعلاً، استيقظت على صرخة، أشهق كأنني كنت أجري حقًا، ونهضت فورًا.. غسلت وجهي ورأسي بالماء البارد، حتى أهدأ، وعدت إلى فراشي يلزمني الصمت وأنا أحاول أن أتجاهل الأمر ، وأدعي أنه ليس إلا كابوسًا وسأتجاوزه..

لكن مع الأسف، بعد عدة أيام، وأنا جالسة بمفردي في البلكونة أستمتع بنسمات الصيف الهفهافة، رفعت سهوًا عيناي إلى السماء المظلمة أتامل وجودها وأشاركها اكتئابها عن حالها وحال الطبيعة، الذي أبان عن شحوب بواكير النجوم البازغة في سماء الليل، ومن بعيد يبدو نور خافت لقمر يتوارى كفتاة خجلة من الظهور كاملاً، ثم ألقيت نظرة إلى الأسفل، حيث ينشر البشر في الأرض فسادًا، فرأيتهم وحوشًا ضارية، ورغم كل ما يدعونه عن المحبة والمودة الإنسانية، فإن العنف بين البشر هو أساس الاستمرار في الحياة.. ذلك الإنسان ما هو إلا كائن قاسٍ بلا رحمة، يحارب أخاه الإنسان، والطبيعة والكون جميعًا من أجل رغائبه وطموحاته الغبية؛ لذا اعتقدت أننا نحن المخلوقات القاسية في هذا العالم، إذن من الأفضل أن يدمر هذا الكون، وتنهار الجبال، وتهب الرياح، وتعصف العواصف المدمرة، وتنشق الأرض، وتبتلع البشر، وكل المدن القائمة

على أرض وطني بزهو وتعالٍ.. أنها من صنع ذلك المخلوق المتعجرف، المتيم بعبقرية الوجود.. فليذهب إلى الجحيم، وتتمرد الطبيعة الغاضبة من تخريبها والاستهانة بها، بأشجارها الخضراء الوارفة ونقائها، وأنهارها الجارية بانسيابية، وجبالها الشاهقة خلف التلال مع أربابها، من الحيوانات والطيور.

رجعت برأسي إلى الخلف، وأغلقت عيناي من تلك الأحلام الكابوسية التي تشغلني، وقررت هذه المرة أن أخذ دشًا باردًا وأضع رأسي وجسدي كله تحته فترة طويلة ربما أفيق من تمردي أنا والطبيعة.

أين وطني ؟

لم يكن الرجل متقدمًا في السن، لكن كان واضحًا أن أيام عمره لم تكن رفيقة به، كان يستخدم أداة تعويضية في إحدى ساقيه، لكنه رغم ذلك تمكن من حمل حقيبة ضخمة قديمة الموديل، جلدها الأسود مهترئ عند حوافها، وقد استقر به الطريق في مقهى مقابل منزله ذي الأربعة طوابق في مركز المنزلة بمحافظة المنصورة.

بعد عقاب قاس بالنقل، ودفع المستحقات المالية من راتبه الشهري، وجزاء مقيد في ملفه الوظيفي كنقطة سوداء لن تفارقه، لاتهامه في تحقيقات النيابة الإدارية بسرقة وإتلاف محتويات من عهدة المسرح : أخشاب، وملابس، وإكسسوارات مسرحية؛ حيث عمله أمين العهدة في قصر الثقافة المركزي ، وتم النقل إلى قصر ثقافة الحي السادس بمدينة ٦ أكتوبر بمحافظة الجيزة، استسلم لقدره نازحًا بأسرته إلى العيش في الغربة، فهذا إحساس

المصريين داخل مصر.. ما دمت تبعد عن مكان مولدك فأنت في غربة، وخاصة إذا كان قهرًا وظلمًا؛ لأنه بالتأكيد ليس السارق، فماذا يفعل بملابس وإكسسوارات مسرحية قديمة، وأخشاب ديكورات مسرحية ؟ كل الحكاية أنها تلفت وتآكلت من العتة، والقذارة في المخزن. أوجدت بيئة مناسبة لتوطين الفئران، والعِرس، والأبراص، حتى الصراصير، وأقسم لهم مائة مرة في التحقيقات أنه لم يسرق شيئًا، ولا أحد آخر سرق شئ ، كانت غذاء الفئران، ومخبأ للحشرات الأخرى في الشتاء والصيف ليس إلا، في النهاية الطبيعة الإنسانية فرضت نفسها بالتكيف في شقة إيجار جديد ، ومكان مختلف، وظل حلمه الوحيد أن يعود إلى وطنه الصغير الذي أفنى عمره في بنائه وتشييده على أكمل وجه له ، ولأولاده الأربعة، وهو يتذكر بتفاؤل مفتعل أنها كلها حوالي سبع سنوات، ويخرج على المعاش، ويعود قسريًا إلى بلدته.

لكن في ليلة مشئومة كما يحدث في الأفلام السينمائية . تعارك ابنه الكبير الملتحق بأحد المعاهد الفنية ، وأصدقاؤه مع شباب من الجماعات الإسلامية المتطرفة، الذين تمددوا

وتكاثروا ، كالجراد في كل مكان بعد ثورة يناير ٢٠١١ م ، ولسوء الحظ، اشتعلت الدراما بالسلاح الأبيض، والتقط الابن الطائش جنزير حديدي ملقى في الشارع ، وقتل أحد العناصر المتطرفة، ولم يكن هناك مخرج غير هرب الرجل بابنه، المراد الثأر منه من أهل القتيل، غير ملاحقة الشرطة له، ولم يستطع أن يترك بقية الأسرة خوفًا من اختطافهم أو قتلهم ثأرًا للدم المهدر، وبدأت رحلة الشقاء والتعاسة التي لا مثيل لها، بهروبه مع أسرته شهورًا طوال من محافظة إلى محافظة، حتى استقرت به الحال في مقهى مقابل منزله مع ابنه القاتل ينتظر حضور الشرطة ، لتسليم ولده ليرحل عنه جزء من قلبه وحياته ابنه البكري، بينما الأم بمكالمة تليفونية تبلغ عن وجود ولدها المطلوب تسليمه ؛ لإدانته بالقتل الخطأ على المقهى مع أبيه.

لقاء ووداع

جلست إلى جانبي في أتوبيس رقم ١٣ المتجه إلى ميدان الجيزة من موقف أتوبيسات الحي السادس بمدينة ٦ أكتوبر، بظهر محدودب، أدى إلى رفع طرف العباءة من الخلف لتتدلى من الأمام قليلا، تمسك بيدين مرتعشتين حقيبة بلاستيكية، وتظهر أكمام بلوفرها.. غرزة منفلتة.. وخيوط صغيرة متناسلة، وشبشب أسود قديم بدون جوارب رغم البرد القارص في شهر يناير، وحجاب خفيف تربطه كالإيشارب بعقدة عند رقبتها متدليًا ، تتسلل منه خصلات شعر أسود تتخلله شعيرات بيضاء كثيرة، سألتني بابتسامة.

- إنتِ من أكتوبر؟

قلت بعدم اكتراث :

– لا طبعًا... هو في حد من أكتوبر.. أنا من البحيرة ، واتجوزت ، واشتغلت هنا.

انبسطت أساريرها ، وقالت ببهجة :

- أنا كمان من إسكندرية، محرم بك، وأتمنى أعود إليها ، وأموت بين أهلي.

نظرت بتمعن إلى وجهها الصغير المستدير، استدارة مكتنزة، والنظارة السميكة العدسات تغطي أغلبه خلف نقرتين ، وليس عينين ، وقلت :

- يعني زي بعض...

- أنا خريجة تجارة ١٩٨٥م ، وكنت بشتغل في بنك في الإسكندرية، ولما جه الراجل ده جوزي خرجني من العمل، وعشت معاه في أكتوبر في حي البشاير.

وقلت باستغراب، ومواساة، ولم يعد من الممكن سبر أغوار النبرة ؛ التي تستخدمها لتعبر عن حزنها الدفين :

- وليه تركتِ العمل ، ولم تنقليه هنا ؟

تلاهت عن الإجابة ، واستطردت قائلة :

- ده راجل بخيل، ومعفن، ولا ينجب.. كل ما يهمه الطعام، وسيارته، اللي هي عنده أعز من نفسه.. الله يرحمك

يا أمي.. إمتى أذهب إليكِ وأدفن.. جنبك لأرتاح من حياتي كلها.. وربتت على فخذي ، وقد أصبحت نبرتها مأساوية :

- تعرفي أحيانًا أتركه ذهقًا، وأمشي في الشوارع ، يمكن تصدمني سيارة ، وأموت وأرتاح، ولما أتعب من المشي أرجع زي الكلبة للبيت.

قلت بتكلف :

- بعد الشر عليك.. واستطردت أحاول الترويح عنها، وقد انفصلنا عن أجواء عالم الأتوبيس تمامًا، وكأننا بتنا في مقهى أو في منزلنا نتراشق حوارًا حميميًا دافئًا. لا ينقصه إلا احتساء مشروب ساخن.

- وإنتِ رايحة فين دلوقتي يا....

قالت سريعًا : عزيزة الحمصي.

ابتسمت بفتور.. اسمك جميل.. وتلعثمت النقرتان اللتان خلف النظارة المقعرة خجلاً ، وتدفقت بعض الحمرة على وجهها الشاحب ، والممصوص قهرًا ، وقالت :

- رايحة الهرم، شارع سباتس، عند النيابة العسكرية

المعروفة، كانت أمي تعيش مع أبويا في شقة هناك إيجار قديم، وكانت هي صلة الحياة الوحيدة بيه هنا بعد وفاته، مارجعتش إسكندرية علشاني، وبقية إخواتي الأربعة في إسكندرية.

وقلت تفاعلا في الحوار:

ولكنك قلتِ من شوية إنها ماتت..

- أيوه، صاحبة الشقة الحاجة عفيفة الطيبة العشرة، والجيرة. عندها تلات أولاد صبيان متقاربين في العمر، قتلوا واحد بلطجي في أيام ثورة يونيو ٢٠١٣ م، والتلاتة دلوقتي في السجن مرة واحده، وأمي أوصتني دون الجميع بعد موتها أن أسلم الشقة للحاجة الطيبة، من غير ما أخذ أي مليم منها، وأخذ حاجاتها أو أتصدق بيها، زي ما أشوف.. وتوقفت برهة، وعادت برأسها إلى الوراء، رغم ظهرها المأتب، وتنهدت بحزن العالم، وقد ترقرقت دموع عصت على النزول، وقالت:

- وخلاص ماتت أمي.. ورايحة لتسليم الحاجة المسكينة الشقة، وأخذ حاجات أمي.

ترانيم الحزن الناصع

- إن مثلي يا علي يجب أن يُحبس في قمقم مختوم.

فاجأها صمت الحلم المتكرر الملعون، الذي يعصر بحياتها، ويحولها فى لحظات كثيرة إلى جبل حزن ناصع البياض، مثقوب بعينين خضراوين اللون، يلمع محجريهما ببريق لعنة ما تؤرق منامها ، وتجعل الأبرياء قتلة .

- لماذا أنت أيها الأب لطيف.. لماذا احتضنك حلمي الميت.. لماذا أنت ؟

- آه يا علي يا ريتني ما كبرت ولا عرفت نفسي أكتر من كده.. وأفضل أغني ورا صوتك الحلو يا حبيبي.. " حبيبي يوم ما عرفته كان قطة مغمضه لو صادف قال بحبك يقولها بلخبطة، وفى يوم وليلة فتح، لقيته يا عيني ادردح واتعلم الشقاوة وبقى آخر عفرته ، مع إني يوم ما عرفته كان قطة مغمضه "

لابد أن فى عقل كل إنسان منا، عته ما، ولابد أن يمارسه ويبجله حتى يصل إلى ذروة الموقف مع حياته.

كل الرقة، كل المحبة، كل العزاء لك أيها الأب لطيف ، يُقال أن أصابته رصاصة طائشة ، فى أثناء تنفيذ إحدى العمليات العسكرية ، التي تمقتها أمي وتجعل منامها مستحيلاً ، وتشحذ عقلها تفكيرًا ، وتحجر مُقلة عينيها عن أي بصيص بمجرد أن يغيب زوجها الضابط المتمرد الغاضب الناقم على مشورة أبيه القوي من إحدى عائلات الصعيد المترامية الأطراف ، هو من زج به في هذا الشقاء الأبدي ، اللواء عصمت شكري عبد الرحيم القوصي ، وجده البكباشي ، ابن الفلاحين المخلص ، من كثرة تنقله عملا بين الفلاحين. كان رجل نادر الطبيعة عما تعارف عليه، رجلاً يُتقن الحديث ، عن نسب العائلات ، وأصلها ، وسلالاتها ، وامتدادها عبر الأزمان والوصول بها إلى أخر جذورها ، لقد كان رجل الناس الأول فى مجالس الكيف ، ومجالس الحكم ، والنزاع ، والأفراح ، والمآتم ، رجل الإتحاد ، والنظام ، والعمل ، أين هو من حفيده لطيف فاكهته ؟!

كما كان يطلق عليه جده فهو أكثر الناس شبهـًا به ، وتمثلاً به فى شخصيته.

تقسمين يا كفاح : " والله ما كنت نائمة ، ولم أكن مستيقظة أيضًا ، ولم يكن حُلمًّا عابراً " ، بل كان روحك الممسوسة، تحلق فى الأفق، وتدخل الدائرة السوداء فى عقلك ، ترين نفسك تتدحرجين ككرة جولف صغيرة على ربوة عالية حجرية ليس بها أى استواء أو خضار تسقطين سقطة الموت المفاجئ ، ويحدث اللبس بينك ، وبين خيالات مارقة عن حياة آخرين ؛ التي ستصبح بعد لحظات لهم مجرد لوحات حياتية قديمة ، وعابرة ، ثم على مرآى بصرك المشوش تلمحين لأول مرة أبانا متياس بردائه الأسود ، وجبته الثمينة ، وعينيه اللذين تعرف بالبصيرة ، وتقول أحكامـًا . وهو يشير لها بحدة قائلًا بألم :

- أنت مليئة يا ابنتي.. لا رجاء منك ، ولا سبيل تذهبين إليه .

سمعت من يطأون بقدم ثقيلة ، يطرقون طرقات تعلمين بها أنه ملمس الموت الفاجع ، ولكن من هو؟ من هو ؟ ، فالنداء دائمـًا يختارها هى الميتة ، هي المجاز، هي عروسة القدر، هي وحي إلهامه . يا لا.. العجب من عزرائيل هذا ! هل أصبح له أيضًا ملهم يفتح شهيته ؟!

كفاح يا جبل الحزن الأبيض. كم أنت صغيرة بما يكفي لأن تكوني بهذا الكم الميتافيزيقي المرعب، وأنت لا زلت بعد فتاه في سن العشرين .. كيف كان هذا ؟ نعم لقد فعلها علي وفعلتها معه بكل تفاني واستمراء لذيذ ؛ لحب شاب بينهما خلف أسوار البيوت المهجورة فى شارع الحب والنشوة، تصطف الشجرات الكبيرة الشاهقة على جانبيه ، لا يسير به إلا العُشَّاق ، تتسلل أوراق الأشجار أنوار الأعمدة الكهربائية البيضاء ، فتبدو الإضاءة خافتة لا تسمح إلا لحالة الحب .

- قولي اسم يا علي.
- لديده ولا هريسه.
- لأ صحيح يا علي ، إنت بتسمي الناس من أشكالهم.. شكلي يتسمّى إيه ؟!
- ملاك رهيب يالديده .. هريسه.
- إيه هوو ده ... كداب.

شهقت كفاح ، ورفعت رأسها ، وفتحت عينيها من قبلة الذكرى الثقيلة ؛ لتتجول بين الأشياء التي تمر بيننا ونظنها

رحلت ، ولكننا لا نصرح بها أبداً، وبعد يأس من جوف أعماقها تفقد الإحساس بالتماهي مع الذكريات ، وبين الفعلي والحقيقي ، لاختلاف منطق شريعة الكون عن منطق العرف السائد.. تعترف قائلة :

" سكين تذبحني به نظرات أمي الناقمة على فعلتي كلما اعترضت كلامها ، وأفعالها ، ولكن واأسفاه ما ممكن أصبح لا يمكن أن يكون ... هكذا.. أخبرني علي.

وتستطرد حسرتها : " هل كل هذا يفسر غضبي عليك أيها الأب لطيف ، هل بلا إرادة مني تدخل دائرة هذه الأزمة العمياء ؟ أعلم أن هذه المؤامرة لم تكن من تدبيرك ، وإن كانت من صنعك ، عندما تم اعتقال علي بتهمة الاشتباه فى عملية قتل أعضاء حكومية مهمة لمجرد أنه جار الأستاذ عبد النبى المعروف بتاريخه السياسي، هذه المرأة الفاضلة القادرة على تدبير الشر بكل فجاجة تكابد ، وتهلك الآن فى مسالك العذاب دونما نهاية ، فليس هناك من يستطيع أن يُعيد الموتى ، هي من أبعدت علي عني اعتقاداً منها أنه طامع في أموالي ؛ التي سأرثها من أبي المتوفى زوجها السابق ، هذا غير طليقها الأول الذى

أنجبت منه أختي الكبيرة المتزوجة " سوزان ".. أختي سوزان .. يا إلهي إنها ماتت مع زوجها ، وطفليها فى حادث سيارة لا مثيل له فى بشاعته ".

ألا تذكرين يا كفاح كان ذلك فى ليل يوم عصيب من حياتك الحافلة. صباح بدء امتحانات المرحلة الإعدادية التي كدت أن ترسبي بها ، وأنهت على كل تاريخك الدراسي القديم المتقدم ، ألا تذكرين أيضًا أن هذا تم مباشرة بعد رؤية نفس الحلم ".

ثوان واقشعر بدنها، ثم تهدلت عضلاتها، وخاضت لحظات رهيبة مختلطة فى خيالها بصور الموتى ممن لم ترهم ، وممن رأتهم بعين الوهم فى أحلامها المضطربة ، فأصابها دوار، فأغمضت جفنيها . ثم قالت بحزن :

" أما أنا فلا أجد في الدنيا كلها خطورة تبرر النذالة ، هكذا تحدث علي " .

وتستطرد في حزن قائلة :

-جاء يوم جنازة الأب لطيف كانت أمي ملقاة على السرير

أعصابها منهارة تعيش حالة الوجود والعدم كمن يحتضر، أي وجهة نظر ستسلكها هذه المرأة التعسة ، وقد فقدت ثلاثة أزواج ، ولم تتخطى بعد العقد الخامس من عمرها . إنها ليست مسألة سن يا كفاح ، كنت أعرف حبها له، وأرى فيه تجسيداً لثقافة الجواري ، ولكن هل كان يحبها أم لا ؟ لا أعرف. كان شخصية غريبة الأطوار، وغامض في بعض الأحيان ، ولكن لم يعد يهمني صفاته أو غرابته. ما يهم الآن .. أننا أصبحنا امرأتين كئيبتين فى منزل كبير مكون من طابقين لا يسكنه غير أختى الصغيرة. من الأب لطيف ، والخادمة ، والبواب. فنحن نعيش فى فيلا قديمة عتيقة الطراز ، والأحداث فى إحدى مدن الصعيد النائية لا ترتبط كثيراً بحياة الآخرين، وأمي كانت تقضي وقتها بين إدارة مصنع لصنع الورق ، ومستلزمات الكتابة ، وزوجها التى هى على انتظار له دائمًا.

ـ تركت الجنازة التي أراها متمثلة فى رقدة أمي ، وما زلت ألمح شعاع ضوء شمس منشوراً على جبينها، ذهبت بذهني لليوم السابق لموته، حيث أخذنى الأب لطيف ، بعد توصية لأمي جاءت من أحد المجاذيب حتى أشفى من حب علي وعصياني، إلى أحد الأديرة الموجودة فى إحدى قرى

مدينتي بني سويف، "العذراء مريم" ، مكان مر عليه المسيح عليه السلام والعائلة المقدسة ، يوجد به أبونا " متياس " ، وابنه " فانوس " من أشهر القساوسة الملهمين في حل العقد النفسية ، وتطهير النفس من كل الضغائن، لكن هل له أن يشفيني من أحلام الموت القاتلة ؟! وإن كان لا يستطيع فهل له المقدرة على أن يُنسيني حب علي كما تظن أمي؟ ..

عجباً من هؤلاء البشر الذين لا يدركون نجم الحب الأشهب ، إنني لم أعهد فى نفسي فساداً مثل صديقاتي المنتشرات في مدرسة التجارة الثانوية المشتركة ، ولم أكن لأشترك بتاتاً في إحكام ألاعيبهن على المدرسات والمدرسين ، وخاصة أبلة سميحة (نفسيه) لقب يحوي مأساة ؛ يقولون أنها أحبت ومات حبيبها فى الحرب فرفضت الزواج والحب ، وقبلت الحياة عانساً وحيدة جرباء خرفاء، كانت تعاقب البنات بخلع أحذيتهن في الفناء المدرسي تحت شمس الصيف الحارقة ، أو برد الشتاء القارص، كم هو متاح ورخيص جداً أن تتم علاقات شرعية ، وغير شرعية بين أي ولد وبنت في سن المراهقة بعد. لكنه كان بعيداً جداً ألا أحب علي سليل الأسرة المتوسطة

الحال النزيه فى كل أفعاله، المتعلم تعليمًّا عالًّيا، مدرس مادة الرياضيات ، بمركز لا يحسد عليه بملكات عقله الذي يعج بحصاد الأرقام ، وابتلاعها فى عقله بفراسة وألمعية واسعة ، علي صاحب الصدر الأسمر الداكن كركوة القهوة ، بخديه حمرة ، وغمازتان تفتكان بمشاعري، حين أنظر إلى وجهه يتضح به الظلال الزرقاء تحت جفنه العلوي والسفلي، لا ينقصه اللهب الشهير بالرؤيا والكشف المنبعث من عينيه السوداوين الثاقبة.. تلقيني في جوف العالم المطلق لأيام طوال بحب يجعلني ألهث ، وأعبث بكل تمرد داخل أنفاس قلبه، وفمه المتعكر برضاب فمي الملتاع .

يا لاكمدك ! يا كفاح المسكينة تحملين مشنقتك طوال الوقت ، وتصعدين بها دومـاً إلى طريق العذاب ، وإن كان الأب لطيف يقول دائمـاً، مشيراً إلىَّ بسبابته كأنه يحذرني :

- حزن الرجال غير حزن النساء يا طفلتي المدللة.

هو لم يكن يفهم أنه لا يعنيني حزن رجل كان أم امرأة . وما يشغلني في كل لحظة هذا الشعور بالشقاء. إننا مشاريع فاشلة تبحث عن وجودها بأي ترهات ممكنة ، ولا تقع تحت طائلة

القانون ، والنظام ، والعرف.

ها أنا الطفلة المدللة تشير بسبابتها أيضًا إليك أيها الأب لطيف ، وعليك فقط أن تسمع :

ـ ألا تذكر أنك سكرت حتى الثَّمالة حتى ذهب عقلك تمامـًا ، وكدت أن تقتل نفسك ؛ عندما ماتت أمك، وطلبت نقلك حتى تهرب بأقصى سرعة ، وأقصى إنقاذ لحالتك التي يرثى لها من الحزن عليها .

أنت أيها الأب لطيف ألم تعشق فتاة عذراء في السابعة عشرة .

أنت أيها الأب لطيف هل تنكر، أنك سليل أسرة كفت عن العطاء حين بددت كل ميراثك على اللهو والنساء، وحاكت لك ملكة انتهاز الفرص الرابحة أن تتزوج أمي ، وكأنك تحتسي كأسًا تنهلها جرعة واحدة دون أن تلتصق بشفتك كدودة العَّلق كي تعفيك من المسؤولية.. طلبت المتعة فدهمتك قبل المتعة طاقة التحمل ، ماذا تتحدى غير مخدرك و نساؤك ، تطارحهن الغيرة السوداء ، وفراش عفن من حقن التلوث والألم والبحث عن النسيان دومًا بين جنبات الإرهاق والخضوع والالتباس

اللانهائي، أشبه بالنائمين فى غرفة الإنعاش محسوب عليهم دقات القلب والنبض والضحك ، ولن أنسى أنك تهوى ارتداء ساعتك فى معصمك أثناء نومك الطفولي سهوًا، ولن أنسى أيضًا أن هذه القوالب المنشأة على صرح خاوٍ هى تسلسل منطقي أفضل بالنسبة لك مهما كثرت مظالمه من شريعة عادلة بلا منطق مفهوم .

الأب لطيف الرجل ذي الشطرين، صاحب الحكايات المثيرة والصمت المثير المتعاطف معي دومـًا يحرص على تسليتي وتعزيتي بكل إخلاص ولا أعلم لماذا ؟! رجل بوليسي درجة أولى . تحليلاته وتصوراته وحواراته كلها عسكرية جدًّا ، رجولة مستخلصة من عائلة صعيدية بحتة ، رجل بهذه الأوصاف ، ألا يمنحني نظرات احتقار وسند داعرة، فأنت من تفهم أن الحب للرجال كما هو الحزن للرجال ، وحين أتفوه بأقرب مُسمّى لك الأب لطيف .. لطيف ، المضمون والشكل .

وأنا أستقي أحكامي عليك من رؤية ملامح وجهك الدائري العريض كرغيف المطرحة الشديد السمار والهيبة ، وقد امتلأ بالتجاعيد الغائرة كأنها سكك ودروب من يمتلك

رغبة جامحة أن يقلب الدنيا من أجل بلده، وفجأة تنقلب السيارة ويرحل الوجه المبتسم، ليموت موتـًا أنيقًّا، أهو حسد أم شفقة عليك أيها الرجل ذي الصوتين " صوت منخفض ببحة مميزة ، وتارة جهوريًا ، أدوات الحلاقة، ومستلزمات الدخان على الطبق السلستين الفضي اللامع؛ كالمرآة تعكس روحك الوحيدة اللاصقة به ، وفيه لتفريغ شحنات الدمار من أنواع الكيف المختلفة .

ثم تتفوه بحكمة تنبع من قرارك المعتم :

- استمتع بحياتك كيفما شئت.

نزلت من عربة (كبود) إلى أخرى لبلدة (بياض العرب) التي تتبع بندربني سويف في المحافظة ، فالعربة لا تذهب إلى ديرالعذراء مباشرة، إلا فى أيام المواسم فهي مزار له قيمته المقدسة وزائرون من كل الأنحاء، وكان ذلك فى يوم صيفي من شهر بؤونة، نزلت عند ممشى الفنطاس الترابي، اجتزت المسافة داخل المدقات الريفية المارة على المقابر والشيخ (علي) حيث اشتهر المكان بمدافن للمسيحيين والمسلمين، تبركا بالسيدة (العذراء مريم) ، هذه المرة لم يكن الموضوع

برمته مجرد نزهة كما كان من قبل مع الأب لطيف ، بل كنت أحمل فى طياتي عبء السؤال الحائر، هل هذه حقيقة يا أبونا القس؟ أن تتحقق الأحلام، وإن كانت خرافات ، لماذا حدث لأبي وأختي والأب لطيف ؟ حيث رن جرس التليفون كعادته ووجدت شفتاي سريعـاً تردد فى رعب الحدس : إنه الموت ، فكان الأب لطيف بعد رؤية حلمي اللعين، هل المصادفة تتكرر؟ حتى لو كانت على مدى سنوات، فى قلبي جرح ملئ بالغضب العارم ، وماذا أفعل يا إلهي تجاه هذا ؟!

قبل مدخل الكنيسة يوجد فسحة ترابية كبيرة ترتكن إليها السيارات ، ومخبز صغير الحجم، عمال، عساكر، بعض المخبرين وحاجز حديدي ممتد ، بعد ذلك يبدأ ظهور المبنى القديم المتماسك إلى حد ما، بأنفاس الرب وأرواح أحبائه (فالرفض تام لمجرد دق مسمار فيه). لونه رصاصي باهت ، يبدأ بكافتيريا الشاطئ إلى أن تدخل بهو الكنيسة من باب مرسوم بمربعات رمادية .

أجلس على حواف ورد النيل أنظر إلى ما تفعله تلك العصفورة ، أريد أن اقترب منها أشعر بها وهي تندفع طائرة

فى السماء ها هي هناك تقف على الوردة الصفراء وهي لونها أبيض.. إنها ليست جميلة فقط، بل وغريبة أيضـاً.. ها أنا ألقي جسدي الثقيل وأشعر جداً بحس الطيران كلما اقتربت منها وفجأة صرخت صرخة مدوية وأنا أسمع صوتـاً ينقذنى :

- يا مجنونة هتغرقي .

نهضت من رقدتي على أريكة فى إحدى حجرات الكنيسة الخاصة بالقساوسة، وإن لم أكن قد أفقت من محنة الموت والتعبير المأساوي والمتوحد المستتر داخلي تحت جبل الهموم ، الثقيل بأيامه وأحلامه وطموحه والحب العملاق ، أشعر بأن روحي مكتملة مستقلة تماماً عن العالم الخارجي لا تسمع ولا تخاطب إلا همسـاً داخليًّا.

جلست أمام القس يبعث في نفسي الطمأنينة والراحة بكل ما أوتي من قوة روحية، رفعت النظر إلى وجهه فكان أبيض كامل البراءة يشع رضا عجيب ونضرة ، اندهشت لهما وجاء فى عقلي : " أهذا هو القس المبارك الذى يُقال عنه إن روحه طاهرة ، وتفتك بكل الأرواح الشريرة ؟ كان الصليب يظهرموشوما فى رسغ إحدى يديه ببروز واضح ، ثم يحمل

مجسدًا كبيرًا له ، ويضعه على رأسي كمن يتلمس مكان اللعنة ، وعن غير عمد سقطت رأسي داخل راحة يداي على ركبتاي ، وأجهشت فى بكاء لا مثيل له قائلًا لي بغضب :

- هل أنتِ نادمة على فعلتك الانتحارية ؟

رفعت روحي أشهق من البكاء دون رد.

ناولني كوبًا من الماء وبعض المناديل الورقية وقال مستفسرًا :

- هل تظنين فى نفسك الجنون لما يحدث لك من غرائب الأمور، ولا تحدث لغيرك.

نظرت إليه وقد وصلت لنهاية التعب وأشعر أن جسدي ينزف دماء ذبح العالم بأكمله، وخاطبنى الهسهاس الذي بداخلي :

" سيدي القس إنني أتنفس ذعر الأحلام الملعونة، أعيش وأتحدث وأفكر فى تفاصيل من رحلوا وتركوني كأني جثة محنطة من زمن وجودها الأصلي معهم ، ليس هناك من توازن يصلب عودي الهش ، ليس هناك من فضائل لمعنى حياتي ، ليس هناك

من أفكار حاسمة تمكنني من التكيف ، وعندما أؤهل نفسى أن أنهي الماضي، لا أجرؤ وكأنه جرح متقيح لا يتأتى له أبداً أن ينفجر، وكأني أعمل جاهدة ضد نفسي على الدوام ".

" أيها القس المبارك لفحني بعباءة هذا الهيكل المقدس، عبقني بريح هذه النورانية التي تطفو على وجهك كضوء الشمس القوي العفي اجعل ربك القريب بقلبك الناطق بقلوب كل التعساء أن يرحم قلبي الصغير من الظمأ، ويهبني الارتواء من مذاقك النقي وروحك الخالصة لوجه الرب الرحيم ".

قال القس مستعطفًا يرثي لحالي :

ـ ماذا بك يا ابنتي هل ترين أن كل سبلك قد سُدَّت ؟

ثم فجأة دخل الضابط (النبطشي) متأهبًا لدوره قائلًا باقتحام :

– سنفتح المحضر يا آنسة ، ونظر إلى القس كمن تذكر شيئا وقال :

– عفواً يا أبونا هل تسمح لي بفتح المحضر؟

قلت وقد استجمعت ما بقي من عقلي وموقفي :

– ليس هناك من شئ لتفتح المحضر، ما حدث كان حادثًا عابراً ليس له أية علاقة بالانتحار، لقد وقع خاتمي فى الماء ، ونزلت أبحث عنه فكدت أن أغرق.

نظر إلىَّ الضابط وهو يقلب بأصابع يده مسبحة ذات لون طوبي وقال مستهتراً :

ـ كيف هذا ؟!

نظرت له بقصد الإمعان، فلمحت علامة الصلاة على جبهته وأن كانت هيئته المتعجرفة وهو ينظر إلىَّ مقتًّا كأنني أضعت عليه وجبة دسمة ، فقلت فى نفسي غيظًّا : ربما هذه موضة، ثم قلت بقوة :

– لا شئ يا حضرة الضابط وأرجو أن تسمح لي بالانصراف فأنا متعبة، وملابسى قد جفت بعض الشئ سأقوم بتأجير عربة خاصة لنقلي إلى المنزل.

أنت .. أنت الوحيد أيها الأب لطيف من تشعر بإحساسي المميت، والمشاهد تدار أمامي بخناجر تقتلني لابد أنك حقيقة مغرم بتلك الفتاة أهي مراهقة بعد سن الخمسين يا رجل

البوليس ، أو ربما أننا ما نطمح فى أشياء كثيرة ، في معاني كاملة تنالنا ولا ننال منها إلا أقل القليل.

تمارين الحياة أقاويل وأحاديث عن اختراق العالم الآخر، تفرغ عقلك بالتدريج كلما زادت ساعات مشاهدتك TV، ألتفت لمرات عديدة لألتقط بداية الكذب وأزيح الستارعما تريد ولا تستطيع التعبيرعنه ، تفتك بك الرغبة التي تبدو على وجهك المكفهر وتدخل تحت تأثير سجائرك الملفوفة بعلامة الجودة إلى انتعاشات مزرية ، لا تتفوه بكلمات ذات مغزى. لا تسأل عن أي معلومات مفيدة، إنها تمارين لإلغاء الحياة وإفساد أي طموح، تمارين الثرثرة البليدة عن أيام العز القديم ، عن جلسات أبيك الشجاع وجدك الهمام والصحبة الحلوة ولعب الورق والكونكان والجوكر وعن متعة الكيف من غير دخان ولا نار، أمثال أصدقاء أبيك الشيخ سلامة وأحكام المعلم مناع وأنت تهذي بأن دور كل شخص منهما مرتبط بالحس القومي والتواصل واستيعاب ما يحدث والاستمتاع بتداول وتنوع الكيف كالحشيش بالشيكولاته التي توضع فى قوالب ثلجية، والحشيش بالتفاح بعد نزع قلب التفاحة ووضعه بها ثم غلقها، ومناقد الحشيش التي تكبس

فى غرف مغلقة ، وتعتمد على حاسة الشم فى التلذذ بالدخان المنعش دون أي جهد تبذله، وعن إكسير الحياة المتمثل في : (الكنكة المعبقة بنفحات الحشيش) ؛ الذي تصحو عليه لتحقق الإفاقة الصباحية كالعادة.

الحكاية لم تكن مجرد جلسات للتسامر والسخرية والضحك، إنه كان مبدأ، فإذا لم يوجد الحشيش أقلعوا عن متعة الكيف (فهو رقم واحد) مهما ظهر من أصناف أخرى، هذا وإن زاد الأمر حدة عند الحفيد لطيف بلعب القمار وادمان برشامات الهلوسة ثم البودرة التي أطاحت بماله وعقله، وأصبح يُسمى المقامر المراهق.

وبعد توالي الأيام والسنوات شرب اللعب والخسارة بملعقة الحياة ليكون خير مجرب و خير معلم ، أتذكر الآن فقط جملتك أيها الأب لطيف وما فعلته بك تلك الفتاة العذراء وعن قبلتها التي أحسست معها أن الشمس تشرق بداخلك لأول مرة ، وهي تجمع بين الوجه البرئ وخبرة حواء منذ الأزل ، أصبح هذا الرجل كالصياد المراهق بصوته الثقيل النبرة المركز فى اتجاهه لمن؟ ولماذا ؟ تفتح حوارات (الخربشة)،

أى المداعبة، تنقر بها على الأذهان والقلوب المفتوحة بطاقة غامضة تغوي بها من ينصت إليك وأنت تجعل من العار مجداً، ومن القسوة سحراً مكللاً بهالة الإجرام، تخطو خطواتك المهيبة بثقة زائدة مستقاة من إدمان الكيمياء النظيفة كما أطلقت عليها بديل حبوب الهلوسة ، وأحيانا تخاطر بصمت موحي يعلن بأنك لن تبوح بكل الأسرار، فلعل لأرومتك التي أكلت المخدرات، وكسرت ناب الشر ودمثته تكفي أن تطرح طيبتك ومحبتك المقنعة بالغوص لقاع الأمورلفتح حوار معك من هلوسات لا حصر لها عن أمجادك الزائفة، وتقول بعظمة وأنت تتمم حلاقة ذقنك :

- عمتي دبحت ليَّا ديك شركسي.. طيب ما أنا ديك.

حين أقف فى الشارع وسط جمع من البشر أرى الحياة خصبة ووثيرة ، رغم عبورها العبثي ، ولكن بها عمق ما لا يُسبر غوره بسهولة ، وحين أكون بمفردي قابعة فى مربع صغير على مخدعي الخاص أرى الحياة كأحواض السمك كل بألوانه وكل بقناعاته.. وكل سمكة تشاهد وتتابع وتنتظر صياد و حارس الموت الأمين على صيده ، و فجأة يخترقني صوت

جارتي وصديقتي فاطمة :

- حلمت امبارح يا كفاح إني راكبة أتوبيس أبو ربع جنيه ورايحة بيه فرنسا .. هروح لضيا أخويا تفتكري ها ييجي ؟

- مالك يا فاطمة .. أكيد ها ييجي.

- بالحق شيماء جالها عريس.. مش عارفة تعمل إيه بتحب الواد محمد جارها.

- ترفض.

- أبوها مصمم.. ههه (تضحك نصف ضحكة). تعرفى إنه متجوز بس أبوها بيقول الراجل بفلوسه ، والجواز قل الأيام دي.

- شيماء ها تعمل إيه ؟

- أبداً ياختي عيطت وقعدت تخرَّف ، وتقول مادام ما عرفش يحبني يبقى يجوزني . هو ده الراجل الشرقي المتخلف. (ضحكت ضحكة طويلة زاعقة) :

- وبعدين.. وافقت يعني (والضحكة مستمرة بشكل أقل).

- أه.. وعايزكي تروحي بكره معاها علشان تتفقوا على الكوافير.

ثم قالت ، وهي ترقن بحاجبيها :

- أه مش الراجل بجيبه ياروحي.
- ها ها ها .. ههههههه.

طيفك الصامد يهاجمني فى كل مكان، ألتقط رائحتك رائحة الريحان ريحانـاً غير ريحان الأرض الذى كنت تجلبه لى دائمًا، ألمح يقظتك وحياتك الضائعة ، أعرف بماذا تفكر وتحلم ؟ أنت العريف وأنا فتاته المهجورة حبيبها مشغول عنها بأفعال الحياة الفقيرة المريرة، إنني أنتظره ، وهو ينتظر أن يتنحى عنها عذاب الضمير، إنها هنا تتألم . تتذمر. تزعق ، ولا تتمرد فهي الفتاة المهجورة.

لابد أنني استقيت أحكامي هذه من قراءة الروايات وكتب أخرى أهداني الكثير منها الحبيب علي ، وأبتهج جداً عندما نصل سويـاً فى نفس اللحظة إلى قرار واحد. حينئذ تبدو لي نفسي كتابـاً مغلقا أشعر بأنه لا يمكن أن يصبح كتابـاً مفتوحا

إلا معه ، فأوراقه الأولى ممزقة تمامًا.

- تعرف يا علي ، وأنا صغيرة كنت برسم الخرايط بإيدي بشكل جميل مضبوط خالص.. آه والله أكيد كنت برسمها بإحساس المسافات ، وأنا بقيس الأميال بمجرد النظر.. ده كان زمان يا علي.

قالت كفاح هذا ووجهها يعلوه شئ من الوجوم، فقد أدركت أنها تخاطب نفسها ، والفراغ فقط .. سكتت لدقائق معدودة ثم قامت فجأة مفزوعة ، ها هي كمن استيقظ مرعوباً على نداء خفي ثم فجأة أخرى يتوقف النداء عندئذ تكون القصة قد تخلَّقت واكتملت فيما أسميه القصة، النسبي، اللامعقول ، الحياة في أعلى مراحل السديم.

الحب سمكة صبية يرعاها الرب ، وكلما مرت السنوات على كفاح ، تبرق من عينيها الخضراوين لمعة حزينة مضيئة، خاصة حيث تجمع شعرها ، وتصنع منه كعكة لا تناسب هذه المهرة ؛ كما كان يمزح علي قائلًا : إنتِ مهرتي يا كفاح مهما غبت عني.

حين تحصل على تصريح زيارة علي تشعر أنها امتلكت

نصف السعادة التي تكتمل برؤيتة ، والتى أيضًا ضاعت كلها حين رأته أقرب إلى خيال بشبح يرتدي رداء الحزن الناصع ، في حيازة الفعل الماضى المستمر، ولا سبيل إلى محوه من كتاب الوجود السابق. بدون حاضر أو مستقبل ، وخصلات من مفرقه الأسود الجميل قد أبيضت تمامـًا، لم يعد الفتى الأسمر، بل رداءً أسودَ ، كلما أمعنت النظر فى تقاطيع وجهه بنظرات شبه جنونية، أوشكت أن تولول ولكنها كظمت عويلها وفركت يديها بدلا من ذلك، بدا شاحب البياض وقد انسحب الدم منه . مصرة أن ترفض هذا الخطأ الفادح، فحاولت أن تفتح فمها لتصرخ بشئ، إلا أن فمها بقي مغلقًا، ما الحائل الذى يمنعها ويصدها عنه؟ يا لها من غبية! الحائل كان بداخلها وداخله ؛ فعلي أراد أن يبكي ولكنه لم يكن ممن يبكون ، ثم كان سكوت وإطراق طويل ترى به الهواء العابر يتمزق والقرائن تتواتر، ولكنهما لم يجرؤا على إذاعة هواجسهما.

حتى قال باستعطاف يائس :

- هطلع امتى يا كفاح ؟

- قريب يا علي.

- عاملة إيه ؟

- كويسة.

- علي!

- نعم يا كفاح.

- قولي نكتة.

- مرة واحدة خان الخليلي قتله.

- ها ها .. يستاهل يا علي.

سلامتك يا رَاسي

جلس السيد الفاضل المحامي سابقـًا بعد فشل ذريع في ممارسة مهنة المحاماة، وفشل في حياته الزوجية، بطلاقه المتكرر من نفس الزوجة بطلقة ثالثة بائنة لا يصلح بها العودة إليها إلاّ بمُحلل، فأراحتْ رأسها من العراك المُتكرر، وأصبح المُحلل زوجًا حقيقيًا استمرتْ معه .. ودام الزواج لمدة خمس سنوات وما زال، فيئس من عودة زوجته إليه، فتركها وترك لها كل شيء، حتى أغلى ما لديه ابنته سندس الفتاة الجميلة.. ونزح إلي مدينة ٦ أكتوبر في (محافظة الجيزة). مستأجرًا شقة مكتب عقارات وسكنًا خاصًا له .. جالسًا على كرسيه الهزاز مسترخيًا في تأمل حياته البائسة بصلعته وكرشه المُتضخم، وعيونه الزرقاء التي ورثتهما سندس.. فأضفى عليها جمالا خاصًا ببشرة بيضاء ناصعة، وشعر أصفر ذهبي .. فوهبها جينات وراثية من أبيها على شكل أنثى، فكانت فائقة الجمال والروح والدلال بثغرها الد قيق. وملامحها الرقيقة الجذَّابة،

عادة ما يفعل هذا ؛ أي الجلوس لفترة طويلة على الكرسي الهزاز الذي أحضرته له في عيد ميلاده بعد أنْ عرفتْ رغبته في اقتنائه ويضعه في الغرفة الثانية ، التي بها سرير خشبي ودولاب متهالكيْن وسجادة مهترئة قديمة ، وترابيزة مستعملة اشتراها من رجل يبيع روبابيكيا كان سائرًا على عربة كارو أمام شقتة فى مرة لا تتكرر كثيرًا.

كان السيد الفاضل يفعل هذا قبل موعد حضورغاليته ، وبسمة حياته . لقضاء يوم كامل معه من الصباح إلي المساء.. ويُصر كل مرة أنْ يقوم بتوصيلها إلى بيتها.. رغم المشقة والجهد الذي يبذله من جراء هذا. حتى يطمئن على وصولها سالمة آمنة..

جاء نازحًا من ميت عقبة ، شأن كل النازحين فى مدينة ٦ أكتوبر من المحافظات الأخرى ، وجحيم القاهرة التي يطلقون عليها (تحت). وتحت هذه تعني السفر إلى القاهرة أو الجيزة لبعد المسافة ، وإنْ كان هذا غير حقيقي .. فالمسافة مع مرور سلس ومنظم لا يتجاوز الساعة ونصف .. لكن للزحمة الشديدة وطول المسافة ، فتوصف بالسفر وملل الانتظار،

والمرور المُعقد فى شوارعنا المزدحمة بشدة ، فيقول وهو يتأوه بضجر : (ياه دا أنا نازل تحت).

رغم النظام والنظافة والهدوء الذي تتميز به المدينة خاصة في الأحياء المُميزة، ويقطنها الأثرياء فى أحياء بعينها ، إلاّ أنها أوشكتْ أنْ تأخذ روح مدن القاهرة الكبرى في التزاحم والتكدس خاصة في بعض أحيائها ، وأصبح يُطلق عليها أحياء شعبية مثل الحى ١١ أو ١٢ أو ١٠.

يستيقظ في يوم حضور الموعد المُقدّس لسندس.. الذي يحدث فقط مرتيْن في الشهر بعد الفجر مباشرة ، ويصليه حاضرًا وإنْ كان لا يحدث هذا إلاّ مرتيْن في الشهر أيضًا ، دون منبه ، بكل الهمة والنشاط والحب والتلهف والشوق لكل ما بقي له في الحياة ، ويعيش من أجله ، ويبدأ في إعداد الطعام ، الذي تحبه ابنته ، بعد أنْ يكون قد ملأ الثلاجة الإيديال النصف عمر، المُستعملة ما يلزم لتجهيز ثلاث وجبات رغم إصرارها على عدم تناول العشاء معه ، لامتلاء معدتها بطعام الغذاء ، وإحساسها بالشبع التام ، لكنه يُصر فتأكل من أجل إرضاء متعته التامة في تناول الثلاث وجبات معها.

عندما تحضر ، تذهب مباشرة إلى غرفة النوم، كي تستبدل ملابسها وغالبًا بلباس جديد أحضره لها، ويجب أنْ يراه عليها، قبل أنْ تأخذه وتحتفظ به ، فربما لا يراها به مرة ثانية ، ويبدأ في إعداد الإفطار، والحديث الطويل عن عالمها الجديد في الجامعة، فقد كانت في السنة الأولى من الجامعة ، ويطلب منها أنْ لا تنسى شيئـًا لا تحكيه عن نفسها وعن صديقاتها ، وسط ثنايا الحديث الذي يُضمّنه الكثير من المزاح والتفكه.. ويطلب منها أيضًا أنْ تحكي له عن أخبار الأم ، وأحوالها مع زوجها ، وتتلعثم في بادئ الأمر، ثم تستسلم أمام رغبتة ، وأمام كل ما ترويه عن حياتها وحياة الأم، تُذكّره بإلحاح أيضًا أنْ يسرد لها قصة حقيقية من عالمه القديم أو من ذكرياته في مهنة المحاماة والأسرة ، وأيام الشباب والعربدة التي لا يخجل من أنْ يذكرها ويتسامر فى البوح عنه معها ؛ حتى يُشعرها بحديثه عن ماضيه ، أنها صديقته ، والوجه الآخر لإلقاء الحقيقة بكل صدقها وأخطائها وزلاتها ، ولا يخجل فى طرحه أمامها .. أيضًا لإستخلاص خبرة وتجربة تعلمها وتُخبرها عن ماهية وطبيعة العالم الذى نعيش فيه؛ لتتعظ وتستفيد وتتوخى الحذر وقراءة البشر والأمور ببراعة ، وبحنكة المُتمرسين في عراك الحياة ..

هذا حقيقة ما كان يهدف إليه السيد الفاضل بفطنته وحكمته ؛ التي خرج بها من رحلته مع الحياة.

عادة ما تبدأ حكاياته العجيبة التي يدخرها لحبيبته وصديقته وقرة عينه بعد الغداء.. وقد تمّ تنظيف المطبخ والشقة ، تتولى هي هذه المهمة والأب يُساعدها بفرحة غامرة ، فهو طاه بارع ، ورجل نظيف ومرتب ، وأستاذ في تنسيق الشقة ، وترتيبها على أبلغ وجه ، يفوق أي سيدة ملكة في بيتها.. لكنه يترك المجال لها حتى تُصبح جوهرة فى بيتها القادم إنْ شاء الله مع زوجها المنتظر.. أمنيته الأخيرة في الحياة.

حينئذ يجلس على الكرسي الهزاز، ينتظر كوب الشاي الأخضر من يدها.. لأنه النوع الذي نصح به بعض الأصدقاء لحرق دهون البطن الزائدة وتزعجه جدًا، ويُعكر صفو احتضان سندس كاملًا عندما يهفو إلى احتضانها بقوة ، وبحنان زائد عن الحد يريد أنْ يُعبّر عنه بكل جوارحه .. وتشعر فيه بنبض قلبه الذي تتربع داخله كأميرة ، وأمل حياته كاملاً.

يرشف رشفة قوية من الشاي الساخن الذي يحب شرابه ساخنـًا ، ويبدأ في الحكي بهدوء ورصانة :

- كان هناك رجل وأسرته، يركبون المركب الصغير كالمعتاد في تلك الآونة من ذاك الزمان والمكان، بإرتياد المعدية من منطقة: (الكيت كات إلى الزمالك)، فجأة غرقتْ المركب الصغيرة، وسقطتْ الزوجة والطفلان، اللذان كانا لا يزالان صغيريْن.. يعد الأول حوالي أربع سنوات والثاني سنتيْن، وتصاعد الموقف وأصبح دراميًا للغاية مع انقلاب المركب، والمراكبى المسكين يُحاول بكل جهد ودأب أنْ ينقذ الزوجة والطفليْن، غير مُهتم وغير مُبال بالأب الذي سقط أيضًا في ماء النيل، لكن ساءتْ الأمور، والمراكبى يُعافر ويصرخ عسى أنْ تُحاول الزوجة أنْ تلحق بطفليها وتمسكهما، حاولتْ الأم المسكينة، لكنها مثل الطفليْن لا تعرف السباحة، فغرقتْ مع الطفليْن وشهقتْ الأنفاس الأخيرة والمياه تملأ جوفهم، ويذهبون بعيدًا كل في ناحية وقد غرقوا وماتوا وشبعوا موتـًا. بُهتَ المراكبى الموجوع، متعبًا من محاولاته الفاشلة لإنقاذ الأم وطفليها، ظلّ عالقـًا في الماء، دون حراك لفترة من الوقت والذهول والصدمة سمّرته في مكانه كالحجر، لا يقدر على فعل أي شيء من وجل الصدمة الفادحة. حتى استفاق على رؤية الزوج الذي نسيه تمامًا... وقد باغت الجميع الذين

حضروا بعد فوات الأوان على الشاطئ من الجهتين ، وهو يُحاول النجاة بنفسه بالتعلق بخشبة لإنقاذ حياته بأي شكل .. فهو أيضًا يبدو أنه لا يعرف العوم ، ولم يبال أو يهتم بما حدث لأسرته .. وقد تركهم يلاقون مصيرهم بكل قسوة ..

ولم يُحاول أنْ يفعل لهم أي شيء مثلما فعل المراكبي المسكين ، واهتم فقط بإنقاذ حياته ، وفعلاً وصل إلى الشاطئ ، والناس في حالة استغراب شديد ، وتساؤل ، وتحسر ، يُمصمصون أفواههم ، وقد انهالوا عليه بالشتائم واللعنة من رد فعل هذا الرجل ، فما كان من المراكبي إلاّ أنْ يذهب مهرولا إليه في وسط الماء. وقد كاد الرجل أنْ يقترب من الشاطئ ، ولفحته صفعة ، عنيفة ، وشديدة على خده الأيسر، وانهال عليه بالضرب.. وجذبه من رقبته ليغطسه في الماء حتى يموت ، وهو يسب ويلعن ويشتم فيه بكل قوته ، وقد عادت إليه فجأة من حجم غضبه وحقده على هذا الرجل الحقير الواطي، الأناني، الغبي، حتى أنقذه أحد الواقفين من يده وحمله إلى الشاطئ ، والرجل أنفاسه تلهث، وجسمه ينتفض .. وعندما لمح المراكبي والشر لازال يملؤه وعيناه تتسعان وتلمع من لهب الغل والانتقام منه ، حاول استعادة قوته ، وأخذ يجري على

الشاطئ بعيدًا عنه مرددًا بهذيان ولوثة واضعًا يديه على رأسه :

- سلامتك يا راسي.. سلامتك يا راسي.. يالهوي يا مَّا...

- يا لهوي يا راسي... سلامتك يا راسي...

الناس أجمع يشاهدون بتأثر بالغ دراما كوميديا سوداء تفوق الخيال تحدث أمامهم، لا يعرفون هل يضحكون، أم يبكون مما فعله هذا الرجل ؟! وقد ظلّ يركض، ويقع ويركض.. وكلمة سلامتك يا راسي.. سلامتك يا راسي.. يُردّدها كالمهووس ؛ وقد أصابته لوثة من الخبل حتى خارتْ قواه تمامًا وفقد الوعي.

حذاء الصغيرة التي لم تأتِ

لقد فات أوان كل شيء، هكذا همست شامه لنفسها ، وهي تعيد ترتيب حجرة نومها، وتفريغ كل الملابس الصيفية بالدولاب (البلكار) الضخم المكون من ثلاث ضلف، الأولى والثانية لأغراضها، والثالثة بها أدوات المكياج والتجميل؛ حيث تعمل مندوبة لمنتجات شركة (My way) الشهيرة، وقد دبت أبواب الشتاء تخترق جسدها بالسقعة، رغم محاولتها بعدم الاعتراف بذلك لنفورها من ليالي الشتاء الطويلة التي تزيد إحساسها بالوحدة والكآبة ،عن ليالي الصيف المرحة بالنسبة لها، وعندما رفعت ألواح السرير الخشبية تُفرغ السندرة من الملابس الشتوية ، وتستبدل بها الملابس الصيفية، زاد إحباطها وهي تستسلم لقدوم موسم الشتاء، ولمحت الحذاء الأسود الفيرنش (اللامع) ، وفستان سيلفانا ذات الثلاث سنوات بدون أكمام الأحمر في أبيض بكرانيش طبقة حمراء ، وطبقة بيضاء على الصدر حتى حزام قماش بفيونكة عريضة

بنصفين أحمر، وأبيض عند خصرها، ثم ينساب الدوبل كلوش واسعًا بثلاث طبقات، الأولى ستان كبطانة، والثانية بيضاء، والثالثة حمراء. امتعضت شامه وتعكر مزاجها؛ لأنها تذكرت أنه لا توجد سيلفانا، ولن توجد لأنها عانس، ولا تعرف المستقبل المجهول بعد، فالعمر يمر سريعًا ، ولا يأتِ الفارس الحبيب،همهمت بتحسر، ودفنت الحذاء داخل الفستان ، وألقته في جانب من سندرة السرير.. بعيدًا، ثم وضعت بكل قوة وغيظ الملابس الصيفية ، وهتفت :

– يا ربي، أحاول ما انتحرش المرة دي كمان علشان خاطر النبي بس.. مش أنتحر.

أثناء انهماكها في الترتيب ، والتوضيب ، والتنسيق ، ونثر حبات النفتالين ، وبقايا صابون بريحة تستبقيه ؛ لتحمي الملابس من العتة، والعطن، قفزا القطان سمبا وبيتي على الشوفرينة ، ينظران إليها بتمرد، بعد فعلتها المتعسفة من وجهة نظرهما مع بيتي، فقد كانت بيتي حاملاً وسمبا لا يتحمل فراقها، ويريد مضاجعتها في كل الأوقات، فما كان من شامه التي تعزز شوق سمبا وتتعاطف مع ولهه وحبه لبيتي، أن ذهبت

ببيتي إلى الطبيبة المختصة برعايتهما، وعقمت بيتي بـ (٣٥٠) جنيهًا، بحيث يمارس سمبا معها دون أن ينجبا، وإن كانت شامه في البدء كانت تريد أن تخصي سمبا، حتى تتخلص نهائيًا من مصدر الإنجاب، لكن الطبيبة حذرتها إذا أخصته، الكيس في الخصية سيمتلأ ويتراكم، وربما يسبب له سرطانًا، وطبعًا رفضت شامه تمامًا هذا الحل البشع الإجرامي، فوافقت فقط على تعقيم بيتي ، حتى يمارسا الحب بكل حرية وسعادة، دون إنجاب الأبناء، فهي مشكلة ليس لها حل، الآن لديها (١٠) قطط ، وزعت منهم على الجيران وأقربائها بعد جهد، ولا يزال عندها (٥) قطط تتكفل بهم بالكاد، وفي أثناء استدارة شامه لإتمام ما تفعله، وإهمالها نظرات سمبا وبيتي إليها، قفز ابن سمبا وبيتي بوتشي ، بقفزة بهلوانية على كتفها، مما جعلها تسقط وسط الملابس وهي تضحك بوجل من المباغته .

عزبة التحرير

بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م. تقريبًا في أواخر عام ٢٠١٢م ، في محافظتي النائية ، والتي دائمًا ما يتجاهلونها على الخريطة ذاكرين محافظة المنيا ، ويلحقونها بمحافظة الفيوم ، وتسقط محافظتي من أي تنويه عنها ، حتى في جولة الأرصاد الجوية ينسونها ،وكأن لا وجود لها.. رغم ذكر أسماء محافظات الصعيد إلى نهاية شريط وادى النيل ، بينما هى مدينة كبيرة، ومعقل الآن لقانون البلطجة الجديد برئاسة زعيم البلطجية (أحمد شلبي). الذى يرتدي الجلابية الصعيدي ، ولاسة على رأسه كالعرب ، ويحمل فرد سلاح صناعة محلي في جيب سرواله الأيمن ، وفي الأيسر مسدس صغير كاتم صوت مسروق صناعة ألماني مميز، أما المطواة فهي في يده على الدوام ، أو يضعها فى إحدى رسغي اليدين بين ثنايا أسورة جلدية يلبسها ، ولا ينزعها أبدًا من رسخ يديه اليسرى ، له منزل كبير في حي المرماح الشهير في المدينة ، الطابق الأول يستقبل فيه الجمهور، وصبيانه وأصدقاءه ، ويتم

عقد الإتفاقيات وجلسات الصلح ، والقتل وكل ما يلزم من أمور البلطجة ، التي يضع قانونها الكفء أحمد شلبي ، وشارع المرماح والمدارس والرمد وكل الأزقة والحواري ، التي تتبع هذه الشوارع الرئيسة، تضرب تعظيم سلام للكفء سيد البلطجية.

في إحدى المرات، جاءت للكفء ، فتاة في سن العشرينيات، من حي شعبي، جميلة، حزينة ، تشكو له، وهى تبكي أن أحد بلطجية مركز الفشن التابع للمحافظة ، قد اعتدى عليها وسلبها شرفها ، وذهبت إلى القسم ولم يفعلوا لها شيئًا ، وهرب البلطجي ، وضاع كل شيء منها.

على الفور بحث عنه صبيان الكفء وأخذوه إلى القسم فأنكر، والفتاة المسكينة لم تستطع أن تثبت شيئًا بالدليل القاطع؛ فقد مر وقت على الحادثة ، فاستسلمت الفتاة لقدرها ، إلّا أن هذا البلطجي الوقح ، أعاد الكرة ، واعتدى عليها مرة أخرى ، فذهبت إلى الكفء شاكية منهارة من هذا البلطجي الملعون، الذي يلاحقها وهي فتاة فقيرة من أحد أحياء شارع الدهشوري تعمل مع أمها فى بيع الخضار على فرشة على الأرض، وليس

لها من سند أو رجل يحميها ، يعيشان على قوت يومهما من بيع أكوام الخضار التي أمامهما ، فما كان من الكفء أن أحضره مرة أخرى ، وبكل عنجهية وجراءة ذهب به إلى القسم ، وقال للمأمور شخصيًّا بكل سخط وغضب :

- لو طلعته من السجن.. اقتله.. هاتاخده ، ولا أقتله..

فرّ المأمور ذات نفسه من أمامه ، وأمر بسجنه وترحيله لعرضه على النيابة وإثبات الواقعة حتى يأخذ حكمًا على قدر جريمته في حق هذه الفتاة الصغيرة الغلبانة ، فما كان من البلطجي المعتدي أن طلب الزواج منها، مُدَّعيًا أن فرجها متعه ، وهو الفاتح المقدام لعروسته وهو أولى بها ، وافق الكفء مباشرة وأحضر المأذون في القسم ، وكتب الكتاب ، وأقام لهما فرحًا، كان على مسمع وحديث كل أهالي شارع المرماح والشوارع المجاورة ، وانضم العريس إلى صبيان الكفء تحت إمرته وسلطته ، أما الفتاة فكادت أن تموت من الفرحة، وقد أصبحت تحت حماية البطل شلبي الكفء، فقانون البلطجة في رأيه شرف ونزاهة ، وهى الصح.. وها تفضل صح .. الصح..

عزبة الصفيح بعد الثورة تبدل اسمها إلى عزبة التحرير،

حدث بها مشكلة هائلة، استدعت تدخل سريع من الكفء، بعد أن جاءته الأخبار من البلطجية العصافير، ويطلق عليهم ذلك ؛ لأنهم حديثو السن .. وأعمارهم لا تتعدى خمسة عشر عامًا.. يختصون ببيع المخدرات ونقل أخبار البلطجية الآخرين لسيد المنطقة الكفء ، وبيع الأسلحة البيضاء، بدأت المشكلة على خمسة آلاف جنيه ، أخذوها ثلاثة بلطجية من رجل ما استأجرهم لقتل شخص ما، خمسة آلاف جنيه. فقط لإزهاق روح.. اختلف الثلاثة في اقتسام المال ، بعد أن أتموا فعلتهم ، اثنان منهما كانا من حي الغمراوي ، وواحد من عزبة التحرير، تقابلوا عند عمارات الأوقاف بجانب حي الزهور.. قرابة الساعة التاسعة مساءً إلى الواحدة ليلاً ، وقد أحضر كل منهم بلطجية الغمراوي ، وبلطجية عزبة التحرير.

وكانت عركة كبيرة بالأسلحة البيضاء، والعصي وزجاجات المولوتوف ، وهاجت المدينة، وهرب الناس جميعًا إلى البيوت، وأغلقت الأبواب والشبابيك وكل المنافذ ، خشية وهلعًا أصاب حي الأوقاف والزهور؛ بل ارتعبت المدينة بكاملها، من جنون هؤلاء البلطجية، إلى أن جاءت الشرطة أخر من تعلم دائمًا، وكانت عربة الشرطة الزرقاء الوحيدة التي

أتت بها سائق ورائد شرطة جديد، كان يعمل في أمن جامعة بني سويف، ومن يومين فقط نُقل إلى المباحث، وأصابه طلق ناري خطأ في فخذه اليمنى، ونقل إلى مستشفى الزهراء، ثم المستشفى العام، وكان تقرير الطبيب به خطأ طبي، لم يتوقف النزيف الداخلي؛ حيث جاءت الطلقة في شريان دقيق في الفخذ موصل إلى القلب، فمات الضابط الشاب، أما من أطلق النار الذي كان من عزبة التحرير، قد هرب على الفور، رغم أنه يتبع رئيس مباحث بندر بني سويف، فهو يرأس كل بلطجية عزبة التحرير، ويعرف عنهم كل شيء، ويدير كل شيء معهم وتحت إمرته، إلا أن الولد ارتعب؛ فقد مات ضابط من الشرطة، ولن يقف معه أحد منهم حتى لو كان الوزير نفسه.

هرب إلى مدينة الشرق الجديدة التابعة للمحافظة، حيث تقطن خليلته وعشيقته صاحبة بيت دعارة شهيرهناك، وبات ليلته، يشرب المخدرات ويضاجعها، انقلب واهتاج كل ضباط الشرطة، وقلبوا المدينة رأسًا على عقب ولجئوا طبعًا إلى الكفء، أن يحضر هذا الولد بأية طريقة، واستجاب بعد أن هددوه بسجنه ومحو كل ما يخصه من على الوجود.. وأرغم الكفء أصحاب هذا الولد على الاعتراف بمكانه.

تم فعلاً القبض عليهما من قِبَل الشرطة ، التي صممت على تولي الأمر، وما كان من الشرطة أن فعلت منهما أمثولة للمدينة في مشهد لا يصدق ، ولا يحدث إلا في أفلام الرعب.. وقد أحضرا الولد وفتاته وجردوهما من ملابسهما ماعدا السروال عنده، وهى بقميص نوم شفاف قصير لونه أسود بحمالات رفيعة ، ووضعوهما على عربة نصف نقل وأخذوهم إلى جامع عمر بن عبد العزيز في شارع المديرية ؛ حيث يُصلون على صديقهم الضابط ، وظلوا يضربونهما بالأحزمة الجلدية التي خلعوها من بناطيلهم.. أمام البلطجية والأهالي و أمناء الشرطة أجمعون ؛ لإعطائهم درسًا قاسيًا لمَنْ يتجرأ أو يفكر ويقتل ضابط شرطة ، ولو كان قتلًا خطأ ، وأرغموا بعضًا من الناس في قسم الشرطة بالقول فى محضر رسمي ، أنهما ضُربا من الأهالي ، دفاعًا عن شرفهم ؛ لأنه يعاشر المومس التي تدير بيت دعارة في مدينة الشرق، ونُقل الولد والفتاة إلى المستشفى حتى جاء أهله وضربوا الدكتور المختص والممرضة وأفقدوهما الوعي ، وأخرجوا الولد بينما فتاته كانت بين الحياة والموت في العناية المركزة ، وهرب إلى قرية (الحلبية) داخل المحافظة ، بمساعدة رئيس المباحث ، وبعد الضغط

عليه من جميع مسئولي الشرطة الكبار أخبرهم بمكانه ، إلا أنه أيضًا استطاع أن يهرب منهم إلى عزبة في عين شمس في محافظة القاهرة ..

لكن تم القبض عليه أيضًا وقُدم للمحاكمة ، التي أثبت فيها المحامي المغوار أنه قتل خطأ وعقوبة هذا أمام القانون من سبعة إلى خمسة عشر عامًا، وبعيدة تمامًا عن حكم الإعدام ، وغرابة الأقدار كان معه في عنبر السجن عصابة المجرمين الأربعة الشهيرة بأولاد الشوارع التى كان زعيمهم يسرق الأطفال ، ويفعل لهم عاهة ، ثم يعلمهم بعلامة في الجسم أو الوجه .. حتي يفرق بين هذا الطفل وغيره ليصبحوا أطفال شوارع.

الرجل زعيم أولاد الشوارع ، عندما تحدث مع وكيل النيابة للإدلاء بأقواله ، كان يتحدث بكل برود وكأنه لم يفعل شيئًا ، ويعترف بكل مباهاة وعظمة قائلًا برعونة « هذه مهنتي ، وأحبها وأنا من المعدمين، وأعشق القذارة والنوم في الخرابات ، والزبالة ، وممارسة الجنس مع الصنفين ، ولي خمس زوجات يعشن تحت سيطرتي ، طوال النهار يسرحن بالمخدرات لبيعها، ويأتين أخر النهار يعطين لي ما كسبنه ، وأنا آويهن

وأطعمهن وأشربهن ، وأسهر الليل بطوله مع نسائي الخمس نشرب المخدرات ، ونمارس الجنس إلى أذان الفجر، وأنام النهار كله » ، وفي نهاية الحديث ، الذي ملأ حلق وكيل النيابة بالاشمئزاز والقرف ، وكاد أن يبصق عليه لولا ضبط النفس ، الذي اعتاد عليه من كثرة ما سمع ورأى فى مهنته ، يُخبره أيضًا بكل برود وقسوة ، أنه إن شاء الله سيعدم.. فردّ الرجل ضاحكـًا ضحكة صاخبة فاغرًا فيها فاهه بأكمله ، فأوضحت عن أسنان وحش مفترس باصفرارها لحد السواد في بعضها ، واعوجاجها المقزز في البعض الآخر. قائلًا بغطرسة تامة وكبرياء :

ـ ما فيها شيء نحن أتينا من العدم ، نحن دود الأرض ، وقذارته ، وزبالته. ولا نستحق إلّا العودة إليه ، وأنا أستحقها بكل جدارة ، ولا أحب غير العيش والموت هكذا، فهيا أعدموني وأريحوني من هذه الدنيا القذرة والحياة الملعونة .. هيا أعدموني .. لترتاح الحياة من قذارتي.. وأرتاح من قذارتها.. تلك الحياة الملعونة.. الملعونة أقسم بالله أنها ملعونة.

أكره الثقافة

جاء تعييني في بدء حياتي العملية إلى قرية زاوية أبو مسلم التابعة لإدارة أبو النمرس بمحافظة الجيزة .. لأعمل أخصائي اجتماعي ، في مدرسة ابتدائي بينما أنا أعيش في منطقة الهرم ، بعد تجربة الانتقال القاسية إلى تلك القرية، علمت ممن يمرون عليها بسحب الجاموس وركوب الحمير، أنه لا توجد مواصلة تدخلك إلى داخل القرية، حيث المدرسة.. لابد أن أسير على الأقدام لا مفر.

تضايقت، وعزمت على السير، الذي استمر لأكثر من ثلث ساعة في طريق أغلبه ترابي ، فهو ممتد تقريبًا لأكثرمن كيلو ونصف، مرت صعوبة التجربة إلى أن أصبحت تمرينـًا رياضيـًا مفيدًا لشبابي وصحتي ، لم يكن هناك أي عمل كبير أفعله غير تنسيق البحوث الاجتماعية ؛ من أجل عدم التزام أولاد وبنات المدرسة بدفع المصاريف ، مع مهام أخرى بسيطة ، جميعهم

يخشون الأستاذ مصطفى آياتي. وكيل المدرسة أكثر من المدير نفسه القادم أيضًا من حي الهرم، لأنه ببساطة هو كشيخ البلد، يعرف ويلتقي بكل كبار العائلات، والعمدة، وضابط النقطة الشرطية.

إذا أخطأ أو تجاوز أي تلميذ يأتيه مصطفى آياتي محذرًا إيَّاه، وإذا لم يتعظ يحضر(الفلكة) ويعبطه على قدميه ، هذه الأمور بالطبع، حتى لا نستخف بعقل القارئ، كانت في أواخر الثمانينيات ، وأوائل التسعينيات قبل حضور الألفية بالطبع.

ورغم أنني تركت المكان من فترة طويلة، لم يعد هناك فى ذاكرتي سوى هيئة مصطفى آياتي والفلكة ، وقد تبدَّلت الأحوال مع الأجيال الجديدة تمامًا، لكني كنت للحق معجبًا جدًّا بشخصية هذا الرجل ، ولا أعارضه في أي شيء يأمر به رغم أنه لغى وجودي ، الذي اقتصر على ملأ أوراق روتينية ، كعادة كل المؤسسات الحكومية في مصر؛ فمصر بلد الأوراق. كانت القراءة شاغلي الوحيد، ولم أكن أيضًا قد تزوجت بعد.

لكن ما حدث في ذاك الزمن لا و لن أنساه مطلقًا .أن في إحدى مرات السير للذهاب إلى العمل كالعادة :

رأيت فتاة فلاحة فاتنة يتد لى من رأسها خصلات شعرها المتبقي من طرحة برتقالية أصفرًا ذهبيًا ، وعينيها خضراء خضارًا باهرًا، خمرية البشرة ، فكانت ملامحها ربما آشبه بالجمال المكسيكي أو البرازيلي ، كانت تدفع بقدميها الأنبوبة جرًّا، لتستبدلها من المستودع الذي يجاور المدرسة ، ثم نقل بعد ذلك بعيدًا بعد أن انفجرت إحدى الأنابيب وكاد أن يحرق المدرسة والقرية بأكملها، ققفز قلبي وتمنيت أن أقترب ولو للحظات، لأتأمل هذا الجمال الذي يقطن وسط الأحراش ، والغبار، والقذارة البادية في جلبابها المنقرش بألوان بُهتتْ من كثرة الاستعمال، مر الأمر بسلام واستعدت توازني، وحاولت أن أنسى أمرها، واكتفيت أن أفضفض على الأوراق لا غير :

في بداية الأمرأزعق بكل حماس أن الأمر يعنيني، وبعد مرور الوقت العصيب، أفقد حماسي بشدة ، وأشعر بإهانة كبيرة داخلي تجاه هذا الجمال الطاغِ ، المقهور في براثن التخلف والجهل. وثمة إحساس شقَي يؤرقني، ويعذبني للغاية، وأنا أشعر بالإثم الذي لا صوت له ، ولا بمدلول فاعل له ، غير أنين وقهر يعم قلبي ، ليخترق عقلي بذكريات مشاهد

مؤثرة، لا تفارق مخيلتي ، تنغص عليَّ في لحظات التأمل، أثناء الاختلاء مع نفسي حتى بالتدريج يتحول الأمر إلى ما هو آشبه بنوبات تصرعني ، وأهتف بهستيرية : أنه حدث لي كذا في يوم ما كذا وكذا، لكن تحديد الأيام يسقط من حساباتي ،أمام ضياء الوجوه ، والنظرات الحادة تظل جاثمة في أفق الذكريات كخفافيش الظلام ، فتضلل آداءات عقلي ، وتتشابك التفسيرات والتأويلات ، حتى تثير حنقي لكل ما يحدث في العالم، من بؤس، وشقاء وعنف لا حدود له ، ولا ينتهي ، فأبدو رخيصًا جدًّا أمام نفسي التي تكتفي بالمشاهدة ، والابتسام.. ابتسامة صفراء باهتة لا تتجاوز أي معنى من المعاني الكبيرة ، والمجدية ، والحاسمة.. لأي أفق آخر غير حالة اللاجدوى ، واللامبالاة ، وأصرخ فجأة كالمعتوه : مفيش فايدة .. مفيش فايدة .

أهذه هي المعرفة ؟! أهذه هي الثقافة ؟! أن تجرحني هكذا ؛ بإشعال نيران الحيرة، وحسابات النفس العسيرة، والتساؤلات المروعة، والأجوبة غير المرضية بالمرة تطعن في قلبي بجرح غائر عميق يدميني ، وحين يهف على ذاكرتي وجهها المشع بصهد الشمس الساحق ، والتي زادته وهج وبريق يضخ بدماء

العافية والجرأة، وهي تدفع أنبوبة البوتاجار بقدميها.. دفعًا ممتلئ بروح العزيمة والبقاء رغم كل شئ، وعندما أرنو متخيلًا جسدي يغوص في حضنها الدافئ، وروحي تلهو مع بساطتها السالمة والآمنة والوديعة، أغمض عيناي مسترخيا لأهدأ بعض الشئ، وأهمس بسلام وحب لا يأتيني كثيرًا إلا كلما تذكرت شذى رحيق فتاة الأنبوبة الفاتنة أصرخ بوجع مكتوم :

- يالا .. هم الثقافة.
- يالا .. حزن الآخرين.
- يالا .. روعتك يا فتاة الأنبوبة .

قصة مأساوية للغاية

عن فتاة كانت محظوظة للغاية لجمالها، وروحها الشقية، المتمردة، الهائجة بمرح وثقة مبالغ فيـــها، فاتحة صدرها وقلبها لروح الحياة التي لا ترحم، ومع هذا أخذتها الجرأة والشجاعة في مسيرة حياتها، وهو ما يشكل حياة أي بنت جميلة أو غير جميلة، أى الحب والزواج، ببساطة تلك الفتاة الجميلة أحبها الكثيرون، وطلبها الراغبون أكثر من واحد وأكثر من مرة ، حتى تلاقي قدرها في ثلاثة أشخاص ، أو بمعنى أدق ثلاثة رجال فقط ، كلهم يتحلون بكل الصفات التي تتمناها تلك العروس المحظوظة، وتحلم بها في فارس أحلامها..

لكن ماذا تفعل والحيرة والاختيار الصحيح والأدق يجعلها تتعثر بشدة ، إلا أنها صارحت نفسها بحقيقة أنها تحب الرجل الثاني الذي ظهر صدفة في حياتها، أحبته إلى درجة العشق والتمني يومًا بعد يومٍ ، وكانت تشعر بحبه يرنو في عينيه،

وإيماءاته وحركاته، وأفعاله التي تؤكد هذا الشعور يوما بعد يوم أيضًا، رغم أنه لم يصارحها بحبه إطلاقـًا، لكن طريقته وأسلوبه يعززان مدى اعتزازه وحبه لها، احتارتْ أكثر، وانشغل بالها، وهي تحتاج إلى تصريح وإعلان رسمي، لكنه لم يفـعل، بينما الرجل الأول رجل بسيط وإنْ كان يفتقد جاذبية الرجل الثاني، يلح عليها أنْ تقبل الزواج بـه، بينما الرجل الثالث رجل هادئ وعاقل إلى حد كبير، يطلب منها اقتناعًا عقليًا وعاطفيًا، وهو على قدر كبير من الذكاء والفطنة، ولديه شعور أنها لا تحبه بالقدر الكافي.

حتى في يوم ما من أيام اليأس والإحباط من عدم اعتراف الرجل الثاني الذي تحبه لحد الجنون، أخبرها أنه لا يستطيع الزواج إطلاقـًا، لأنه مريض، ودون أي تحليل أو تبرير أو شرح تفصيلي لهذا المرض، لزم الصمت، وتمنى لها حظـًا سعيدًا مع رجل آخر.

ذُهلتْ من الصدمة، وكاد قلبها يتوقف عن النبض، والدهشة والمفاجأة جعلتها تصمتْ لأيام، حتى مرّتْ الأيام القاسية، وروحها تموت موتـًا بطيئـًا مع فراقه ونذالته الواضحة

أمام عينيها كوحش كاسر، يفتك بعقلها وروحها، وجاء الرجل الأول مرة بعد أخرى يطلب الزواج والقبول ، بينما الرجل الثالث يطلب قلبها قبل أي شيء، وأنه سينتظر حتى يناله قبل جسدها، وبإختصار ودون دخول في تفاصيل العذابات التي عاشها أبطال قصتنا الأربعة، لقد رحل الرجل الثاني نهائيًّا، وكأنه لم يعرفها من قبل، ورفضتْ الرجل الأول، أما الثالث الذي وعدها بالانتظار عندما يئس من قلبها أخبرها، أنها مادامت تتقبله عقليًّا مع الوقت سيقبله جسدها، هذا هو الحب الواقعي الدائم، حاولت أنْ تقتنع إلى أنْ استساغتْ الفكرة، لكنها للأسف الشديد عرفتْ أنه ملّ الانتظار وتزوج بأخرى.

حكاية السرير الظريفة

في كل عائلة تحل سمات وأفعال بسيطة، لكنها تنم على مدى وحدة مزاج وأهواء هذه الأسرة، باختلاف كل منها عن الأخرى، كانت عائلتي تختص بالجلوس، والنوم، والتسامر وتناول الطعام في غرف النوم، وترك غرفة السفرة، والصالة تمامًا، الحياة تبدأ وتنتهي من غرفة النوم، وبه أهم عوامل التسلية : التليفزيون.

كانت كل صديقاتي، وأخواتي وكل أقربائنا، يعرفون مزاجنا في هذه الجلسة ، التي لا تتغير. لو ذهبت لأي منزل من منازل أخواتي المتزوجين جميعًا الآن، إننا لا نجلس أو نتحدث أو نتحاكى إلاّ في غرفة النوم، كبرنا وكبرتْ هذه العادة واحتفظنا جميعا بها من الأم والأب، وقبلها الجد والجدة، وظللنا نتوارث هذه العادة، حتى الأزواج الجُدد على العائلة بحكم علاقة الزواج والنسب، خضعوا جميعهم لهذه العادة، ومن

حاول الاعتراض منهم، ملّ مِن الجدال، والمحاولة واستسلم فى نهاية الأمر، فنحن خمس بنات بخمسة أزواج، جميعهم الآن تحت سيطرة الفكرة، وينفذونها بكل هدوء، وترحاب.

طبيعي أنّ جميعهنّ أنجبنّ بناتًا وأولادًا، وكبر الأبناء، وتزوجوا، وتوارثوا جميعًا العادة بحب وطاعة عمياء، حتى في إحدى الجلسات عندي، وجميعنا نجلس متفرقين على سريريْن فى غرفتي، ووسطنا صينية عليها فاكهة ومسليات وحلوى ،احتفالاً بحضور العريس الجديد لابنة أختي الصغيرة ، هتف زوجها ضاحكًا بإستهزاء أغلبه ضحك عادي :

ـ ما هذا ألا تملون غرفة النوم أبدًا ؟ جميعكم فيها تأكلون وتشربون وتشاهدون التليفزيون.. كل الحياة هنا.. والله حاجة غريبة فعلًا العيلة دي.

ترد عليه أختي مباشرة بنفس ضحكته المستهزئة :

ـ ولا يهمك يا حبيبي يا جوز بنتي الغالي، قدامك سنة بالضبط وتبقى زينا.. وأعادتْ العبارة الأخيرة، سنة يا قلبي بالضبط وتبقى زينا.

ضحكتْ وضحكنا جميعًا، لكن هذه المرة ابتهاجًا بالنصر الجديد، بالفوز بعضو جديد للسرير.. وأنهتها زوجته الشابة الجميلة الظريفة بمزحة عادل إمام في مسرحية شاهد ما شافش حاجة (سايبين الشقة كلها وقاعدين في الأوضة). فمتنا من الضحك، حتى أغرورقتْ عيوننا بالدموع.

وطن صغير

صممت بعد الوفاة المباغتة لزوجي، البقاء في محافظة الجيزة، في شقتي في منطقة (فيصل) ، مع ولدي الوحيد سيف، رغم إلحاح أمي على العودة إلى مركز الواسطى بمحافظة بني سويف، لأمكث إلى جانبها، أو الامتثال للعيش في البيت الكبير لعائلة زوجي المتوفي في مركز ناصر (بوش) بالمحافظة أيضًا، التي لم تلح فقط ؛ بل رأته واجبًا مقدَّسًا العيش وسطهم في شقتي القديمة ؛ التي تزوَّجت فيها في بدء الأمر قبل أن ينتقل زوجي للعمل في محافظة الجيزة، وعندما تمردت، ورفضت الخضوع لقانون الزوجة الأرملة لديهم، ثار عم الولد، بل تجرأ وأقام دعوى قضائية لحرماني وابني من الميراث بادعاء أن زوجي باع له كل شئ قبل وفاته ، المتمثل في نصيبنا في البيت الكبير للأسرة كاملاً، والذي يتقاسمه أخوان آخران، غير ميراثنا في الأرض الزراعية، التي علمت أمي سرًّا، أن بعضها سيدخل في كردون

المباني، ويرتفع سعرها ارتفاعًا مذهلاً، وبإصرار وحماسة تولت أمي دون رغبتي رفع قضية أمام عم ابني لاسترجاع الحقوق لي ولإبني وهي تصرخ في وجهي : هذا حق سيف ، وليس حقك يا مجنونة ، يا غبية ، فذهبت بولدي مرغمة لعمل توكيل عام بالقضايا للمحامي، ومعرفة الإجراءات اللازمة لرفع القضية ، وعلى الرغم من ضيقي ونفوري من المحاكم والمحامين والتناحر؛ الذي شابه عداء شخصي بيني وبين أسرة زوجي ، لكنها كانت فرصة للإسترخاء لليلتين أبيت فيهما في منزل أبي المتوفي منذ سنوات ، في حجرتي القديمة مع أختيَّ اللتين لم تعودا إليها بعد زواجهما ، وإن كانتا حضرتا للترحيب بي ، ومؤازرتي في هذا الموقف البائس.

كان يومًا شديد الحرارة والرطوبة، صمغت جسدي بسيل من العرق اللزج أسفل نهدي وبين فخذي، وأعلى سلسلة ظهري وتحت الإبطين، وكدت أنزع حجابي وملابسي زهقًا وكمدًا ، وأنا جالسة في الميكروباص ذهابًا إلى منزل أمي لمقابلة المحامي صباح غد.

خاصمني النوم، رغم إرهاق السفر، ففتحت (بلكونة)

غرفتي الفسيحة، التي أخذت الكثير من أوقات اللعب والمرح مع أختاي، وكان بها الكثير من التراب العالق على الكراسي والسور والأرضية، فجاءتني حمى النشاط بغتة ، وقمت بتنظيفها وترتيب الكراكيب ، وإلقاء الزائد منها، واستحممت، وارتديت جلابية واسعة خضراء قديمة وجدتها في الدولاب، الذي به العديد من أغراضنا مرتبة ومنمقة تثبت أن أرواح هذه الملابس باقية مهما رحلنا عنها، وبعد كل هذا الإنهاك البدني أيضًا ما زال النوم يخاصمني، وملأني القلق من يوم غد هذا ، وأنا سأدخل عالم غريب وجديد عليَّ لأول مرة في حياتي ، محام وقضية وعراك..

ما هذا الذي يحدث لي؟ فقررت أن أستمتع بالجلسة في البلكونة بعد نظافتها وتألقها عن سابق عهدها، وأسفل بيتنا الكبير، ظلال شجرة الكافور العتيقة التي وضع بذرتها الأولى أبي منذ سنوات طويلة ، وظلالها الوارفة بوريقاتها، يسقط بعضه على حواف البلكونة..

أبهجني رغم عدم اهتمام أحد بها خاصة بعد وفاة والدي، وبدأت أنتعش بجلستي ونسمات مساء الصيف العليلة، غيرت

من مزاجي المتعكر وروحي الحائرة إلى حد كبير، وكالعادة يموج الشارع بالمارة، والمحال مفتوحة إلى ساعة متأخرة من الليل، والناس جالسون في جنبات شارعنا الكبير المتفرع إلى عدة حارات يلوكون ألسنتهم بالنميمة، ويحتسون المثلجات، ويقشرون اللب والفول السوداني، يتسلون ويضحكون بتمرد وتحدٍ عما لاقوه من حرارة النهار ...

مع نسمات الليالي الصيفية السمراء، ولأني في الطابق الخامس كنت أراهم أحجامًا صغيرة، ولغطهم لا يصلني إلا أصوات مشوشة ومتلعثمة، فاستكنت في صمت وحزن أتأمل الفراغ ، رافعة رأسي إلى السماء أبحث عن النجوم، ولمحت نورًا خافتًا للقمر بعد أن حجب الضباب جزءًا منه، فمللت صمتي مع السماء، فاتكأت بيداي على سور البلكونة واضعة رأسي دون هدف، شاردة من يقظة عقلي وجسدي المتعب، حتى التقطت عيناي مشهد مثير للتتبع على بعد أمتار قليلة من شجرة أبي الأصيلة، وقد بدأ المارة والجالسون على المصاطب يقلون ويعودون إلى منازلهم ، خاصة بعد غلق المحال الثلاثة الموجودة في شارعنا غير سوبر ماركت العم حليم ، الذي يظل مفتوح إلى قرب آذان الفجر، دققت النظر وفتحت عيناي بعد

أن نهضت من الكرسي ، وأدليت رأسي كالأطفال أنظر بإمعان حتى أيقنت أنه يوجد أكثر من خمسة عشرة قطة تقريبًا أغلبهم بيضاوات، وقليل منها بيضاوات بنقط سوداء، أو مائلة إلى اللون البني ، وواحدة فقط سوداء سواد أجرب واضح من القذارة ، وقد ساعدني العمود الكهربائي المضاء إلى جانب الشجرة، ولمبة البلكونة حتى تأكدت أنهم منهمكون في تفان حول شيء ما..

بالطبع وليمة متخمة أثارت شهية الجميع فالتفوا حولها، أخذني الفضول بشدة لهذا المنظر العجيب، وطارت الفكرة داخل عقلي بطيش، ونهضت فارتديت روب صيفي طويل بأكمام وطرحة خفيفة ، وتسللت إلى الباب بعد أن تأكدت من نوم أمي وسيف في حضنها كالعادة ، حتى وجدتني أقف وسط القطط ، وهي تلتف حول قدميَّ بلا مبالاة تمامًا ، وظلت منفعلة بحماسة في التهام أكبر قدر من بقايا أطعمة مختلفة وكثيرة ألقى بها أحد الجيران ، باستهتار هكذا على بعد أمتار من شجرة أبي العظيمة ، حتى بعد وقت ليس طويل نظرت إليَّ واحدة منهم ، وقد تباطأت في الأكل بين نظراتها لي بعينيها الخضراوين اللامعتين كالزجاج ، وبين استكمال الطعام حتى

اتسعت حدقتا عينيها ورشقتني بسهام التساؤل عن وجودي وسطهم ، بل ترددت في تناول طعامها، وحارت أتأكل أم تهرب أم تبقى مثل الآخرين والأخريات المستغرقين في التهام بقايا الطعام، حتى أصبح التحدي مع قطتي واضح ، وقد انتبهت بعض القطط بعد الشبع لوجود أقدام غريبة وسطهم ، فهرب بعضها فورًا، وبقي البعض الآخر من منطق الجشع والطمع في استمرار تناول الوليمة عن أخرها كفرصة لا تعوض ، في حين تسمرت قطتي العنيدة ، وتوقفت عن الطعام نهائيًا ، وجلست بزاوية قائمة تنظر إليَّ بتحفز، فأخفضت عيناي وابتسمت استغرابًا من موقفها المتحدي لي هذا، دون القطط الأخرى التي أخذت الأمر ببساطة وهدوء ينم على مدى تعقلها في تناول أمور الحياة ، ثم اضطررت أن أغادر مكاني بعد أن لمحني عم حليم البقال ، وجاء بالخطوة السريعة منزعجًا ومتسائلاً :

ـ ما لك يا مدام وفاء واقفة عندك ليه ، وإيه القطط دي ؟ وأزاحها بقدمه بعنف، زاعقًا بصوت عالٍ يسب فيها حتى تفرق الجميع تعسفًا وفزعًا، حتى قطتي العنيدة ذهبت لتبحث عن وطن آخر صغير، مع أصدقائها وصديقاتها من قطط الشوارع الأخرى.

وجوه تبحث عن مؤلِّف

كان عالم الفلاحين بالنسبة لها ، عالم بغيض لمن لم يعهده أو يعش فيه من قريب أو بعيد. وإذا عشتُ فيه عنوة، يصبح عالم صعب التعايش فيه بأي السبل، كل شيء غريب، وصعب التكيف معه ، حتى رؤية الخضرة، واستنشاق هواء الأرض النقي، والراحة، وجلسات النميمة على المصاطب المثيرة ، وغير المثيرة ، لم تعزز وحدة وحزن نبوية الشابة الجميلة جمال الفنانة برلنتي عبد الحميد بالضبط ، التي غضب عليها أبوها الصعيدي الأصل بالزواج من جاد ابن خالها الفلاح ؛ الذي يعيش في قرية كحك التابعة لمركز أبشواي ، بمحافظة الفيوم ، ويعمل فراش في مدرسة حكومية ، وإن كان أهلها قد انتقلوا للعيش في فيصل بمحافظة الجيزة منذ كان عمرها ٦ سنوات ، وأبوها بواب لإحدى العمارات ، حتى انتقل بالعمل كبواب خاص لإحدى فيلل أحد الأثرياء فى مريوطية الهرم ، حاولت

الهرب والتملص من الزيجة ، حيث كان قلبها مع خالد البقال، الذى كان يفتح (كشك) صغير، أمام سكنهم ، وقد اتفقا على الزواج ، لكن الأب ذو الجذور الصعيدية ، عادت إليه عصبية الصعايدة ، التي لا تتغير حتى لو عاشوا في أمريكا. قائلًا بحدة :

ـ إحنا صعايدة ، وأهلنا فلاحين ، وكل طور أولى بلحمه.

جاد الفلاح ذو بنية جسدية قوية ، وعقل من ذهب، يعمل فراش المدرسة ، لكنه يدير المدرسة من الداخل ، كأنه صاحبها ، في الصباح يفتحها ، وينظف حجرة المدير والمدرسين ، وأختاه تُنظفان المدرسة ، ويدير للمدرسين حلبة الدروس الخصوصية بكل نظام ، ودقة بترتيب مواعيد المدرسين ، والطلاب حتى لا تتضارب مع بعضها ، فهو متعلم معه دبلوم تجارة ، استغله جيدًا في عمله، ويتقاضى على كل نفر خمسة جنيهات في مقابل توفير المكان وتنظيمه ، ويبدأ العمل بها من الصباح الباكر قبل بدء اليوم الدراسي. ثم بعد انتهاءه إلى العاشرة مساءً ، ويتوفر للجميع الغذاء والطعام كما يحلو لهم على يد أختيه البارعتين في طهي كل شئ بالنقود ، ويستمر إعطاء الدروس الخصوصية إلى الوقت الذي يريده المدرسين ،

والمدرسات كل على حسب ظروفه ، ولا يتغاضى عن فعل أي شيء للمدير، والناظر، والمدرسين ، والمدرسات ، وأهالي البلدة في مقابل المال. وكان شريك محمد علي ناظر المدرسة في إنجاح الطلاب دون وجه حق في مقابل النقود ، التي يتولى أمرها ، ويتقاسمها مع الناظر، بينما المدير القادم من محافظة الفيوم ، لا يعلم ، وليس له أي دور، فهو مجرد ديكور يُكمل به هيئة التدريس ، ويحصل على نسبة من المال لا غير.. فالمفاتيح والأوراق ، وزمام الأمور في يد جاد والناظر .

كانت نبوية الشابة الجميلة تحلم طول عمرها بالحياة في المدينة ، التي تعودت عليها ، وتعلمت فيها ، وحصلت على دبلوم فني قسم تطريز، والتقتْ بخالد البقال ، وأحبته وتمنته زوجًا لها ، لم تستطع أنْ تتحمّل جاد الجلف ، الذي لا يعرف أي شيء عن الحب والجنس رغم عقله التجاري النشيط ، يضاجعها في دقائق، وعندما ينتهي ويحصل على شهوته القصيرة يتركها كالخرقة المبتلة ، دون أي حساب لمشاعرها أو إرضاء شهوتها. هي أيضًا تكرهه ، وتكره نفسها ، وفي لحظات اليأس، تدعو عليه بالموت ، حتي تعود إلى مصر مرة أخري عند أهلها ، فالمصريون يطلقون بعفوية على القاهرة والجيزة

مصر ماداموا يعيشون في المحافظات الأخرى ، وخاصة في قرى الفلاحين ، ولأن جاد لن يتغير، ولا تعرف متى سيموت؟ ولا طلاق ولا عودة إلى مصر، بدأت تفكر في الحيل الحياتية للبقاء والاستمرار. حاولت الخروج من المنزل والتحاور مع الجيران ، لكنهم كانوا غرباء ، ومختلفين حتى في اللهجة ، بل أحيانا يتشدقون سخرية وضحكًا بتقليدها، أكثره إهانة من لهجتها المصراوية كما يُطلقون عليها.

تأخر الإنجاب، لكن جاد رحمة من عند الله بحالها، لا يهتم إلا بجمع المال، والعمل ليل نهار في المدرسة ليملأ جوف الطمع والجشع الذي غشا بصره وبصيرته ، وقد اشترى قطعة أرض على مساحة ١٠٠ متر في محافظة الفيوم بالقسط ، وينوي بناءها ؛ ليصبح من أعيان البلد، بيت في البلد، وبيت في الفيوم. وهذا ليس بالشيء السهل الحصول عليه؛ فبيوت المدينة غالية جدًا.

تذكرت نبوية جارتهم السودانية من أب مصري- وأم سودانية ، وتعيش في مصر من ٣٠عامًا المتزوجة من مصري أيضًا ، وما كانت تفعله حتى تؤنس وحدتها، وفراغها، كانت

تربي في منزلها على السطوح الطابق الثالث. تقريبا كل أنواع الطيور: فراخ ، وبط ، ووز، وكتاكيت ، وديك رومي، وأرانب ماعدا الحمام، لأنها تخاف أن غية الحمام تحضر الثعابين. كانت بعد أن تضع لهم الطعام والشراب ، وتنظف العشش تجلس على كليم الكنب البلدي القديم. تختار كل يوم عشه ، وتحاور من بداخلها فراخ أو بط أو غيرهم وتقول بعتاب :

– إنتَ ليه ضربت أخوك الديك النهاردة ، مش حرام.

ـ ولا إنتَ فاكر نفسك علشان ما إنتَ الديك الكبير اللي فيهم تضربهم ، لو عملت كدة تاني ادبحك ، وأكلك وأريحهم منك.

كنت لا أزال صغيرة، وأذهب إليها للحديث والمذاكرة، والملابس التي تطرزها لي. كانت تحبني كابنتها وأكثر، فقد حُرِمتْ لفترة طويلة حوالي ثماني سنوات من الإنجاب حتى منَّ الله عليها بثلاثة أولاد، كنت أجلس بجانبها على السطح ، وتظل تخاطب وتتحدث مع الطيور:

ـ إنتِ ليه يا بطة كلتِ أكل الفراخ يا حبيبتي.. دول بلينات غلابة ما لكيش دعوة بيهم.

اسألها والاستغراب يملأني :

- إنت ليه بتعملي كدا يا أبلة مودة :

تطبطب على كتفي بحنو، وتقبلني قائلة بابتسامة واسعة :

- تعالي يا حبيبتي أوريكِ الفستان الجديد، وأقولك ليه.. عايزة أشوف مقاسك ولا لأ..

حتى قالت لي بحزم وتباه :

- أنا يا حبيبتي بكل بساطة بحمي نفسي من الغيبة والنميمية مع الجيران ، مش أحسن أتكلم مع الطيور الغلبانة الطيبة دي ، ولا أتكلم مع الناس عن الناس ، وأذيهم بلساني وقلبي وعقلي.

طالت أيضًا فترة عدم الإنجاب لنبوية ، كما حدث لمودة ، وقررت أن تشغل وقتها أكثر بالخياطة. لكنها اختارت تطريز الملايات، والمفارش، التي أبدعت فيها ، وبدأت تذهب لإحضار كتالوجات من محافظة الفيوم لصنع مثيلاتها، وتوسعت وأحضرت ماكينتين خياطة ، واثنان يساعدونها في الطابق الأول الذي أفرغته تمامًا للحياكة والتطريز، وكان جاد سعيدًا سعادة لا يحسد عليها من زوجته الذكية والتجارية مثله ،

وانشغل هو أيضًا ببناء منزله في الفيوم ، حتى جاءته البلهارسيا، فصُدم واكتئب بينما نبوية تضحك ، وتقول قولًا لا يتوقعه أحد :

ـ يا أخويا ح تاخد البرشام ، وتبقى كويس.

وتستطرد أكثر بسخرية :

ـ أهي البلهارسيا دي اللي موتت حبيبنا وأستأذنا عبد الحليم حافظ الله يرحمه ، ويحسن إليه.. سبحانك يارب .. دلوقتي مع جاد بتتعالج ببرشام.

أين هي السعادة ؟

لا أعرف كثيرًا عن معنى السعادة الحقيقية ؟! ، لكني أدعي أن معنى السعادة هي مناطق الفرح في حياتي التي مرت ، والتي ستمر مادمت أتنفس زفيرًا وشهيقًا بأنفاسي المعدودة في نهاية الأمر إلى أن تُلاقي ربها ، وحين أتحدث عن السعادة التي تخصني بالتالي ترتبط بأشخاص آخرين ، كانوا طرفا فيها ، فغاية السعادة أن تتحقق أمنياتنا من خلال آخرين ساعدونا على صنعها أي الفرحة الغامرة ، والبهجة تخرج من القلوب ، وتجعل ملامح وجوهنا تشرق بالابتسامات البرَّاقة ، ويطول بريقها لضحك يملأ الروح وتعبرعن مدى الامتنان ، وجمال تلك اللحظات ، التي لا تُنسى من ذاكرة المرء.

أعترف أنني أكون سعيدة جدًّا ، وأنا أحتضن ابني الوحيد كمال ، وأنا أشاركه الطعام ، وتذوق ما يعجبه ، ويمدحني ويشكرني ، ويهتف : أنا بحبك قوي يا ماما ، وكل أداءاته وأفعاله هي الشاهد الوحيد على وجودي في هذه الحياة العبثية

في أكثرها ، والقدرية في الباقي منها، وأكون سعيدة للغاية ، وأنا أمارس ملكة الحكي والثرثرة عن ذكريات وتجارب مؤلمة عشتها ، ومرت وتعلمت منها ، وأحكيها كنماذج أمام فريدة صاحبة برج القوس ، وحبيبة صاحبة برج الدلو بنات أختيَّ اللتين كلما رأيتهما ، تمنيت الطفلة الصغيرة التي لم تأتِ ، ولا أظنها ستأتي .

وتكتمل الأمنية أن تتحقق في بنت تجتمع فيها كل خصال الاثنتين بقوة وجمال وجرأة فريدة، وهدوء وبرود وقوة شخصية حبيبة ، وسعادتي الماضية الوهمية ، وأنا أتعاطى drugs مع صديقات السوء ، اللاتي رحلن جميعهنَّ، كل منهنّ شقتْ طريقها في حياتها بما قدره لهنّ النصيب والقدر، وكيف كنت أذهب بخيالي إلى عوالم غريبة وعجيبة للغاية ، وروح الخيالات ترفعني إلى سابع سماء ، وتأخذني إلى سابع أرض بمشاعر متناقضة ومليئة بفعل سحر المخدر القوي على خلايا أعصابي ، ودقات قلبي في لحظات ما ترتفع حتى أكاد أسمع صوتها ، وأنني سأقابل الموت ، وأنا أبتسم ، أجمل شعور أتمنى حدوثه في فراقي عن الحياة ، وأنا أرحل بكل راحة وسلام مع الموت ، بل أضحك كلما تذكرت تلك السنوات البعيدة ؛ التي

عشتها في أيام الشباب الأولى.

ابتسمت بسخرية من نفسي بشدة وتساءلت : كيف فعلت هذه التصرفات الطائشة ؟! ومتى حدثت ؟! وأين تمت تلك الأفعال المتهورة بالضبط ؟! ومرت هكذا دون أن أشعر كسريان مياه جداول وأنهار تبتلع كل ماضٍ وآتٍ بهدوء.. ومرور ليال الزمن الغادرة بنا على الدوام.

السعادة، في لحظات انتشاءات الجنس العالية ، وعوالمها السحرية ؛ التي عشتها مع عشيقي الوحيد بنشوة ، ورضا ، وأنا في كل مرة نلتقي فيها ، حتى دون أن يضاجعني أقول له بابتهاج : " حبيبي أنا سعيدة ، أنا سعيدة معك ، أنا أحبك ، أنا أحبك فعلًا .. لا أنا أعشقك " ، وعندما هجرني، وافتقدت هذه الليالي الحميمية ، أدركت فعلًا أنني غير سعيدة بالمرة ، وأشتاق لدفئه ومضاجعته.

بينما كانت أخطر لحظات السعادة ؛ التي ليس لها حدود، وأنا أهاتف أمي العظيمة.

- عاملة إيه يا ماما ؟

- والنبي ضهري واجعني.. كان في شوية رملة قدام باب البيت ، شلتهم لبعيد.. ضهري واجعني.

- ليه بس كدا. إحنا الصغيرين مش قاردين نشيل نفسنا.. إنت تشيلي دا كلام بس.

- يلا اللي حصل يا بنتي.

- ادهنيه بالمرهم المستورد اللي عندك..

- دهنته ولسة واجعني..

- يعني مش بتتصلي من فترة !

- معلش مشغولة في الكتابة.

- صحيح.. ربنا يوفقك يا رب ، وطلع الكتاب ولا لسه ؟

- بقولك يا أمي لسة بكتب فيه.. اسمعي كويس.. ادعيلي.

- طيب.. إن شاء الله يكون فتحة خير عليكي.

- طيب كفاية كدا ح تخلصي لي الرصيد.

- أنا اللي متصلة يا ماما مالك..

- والله طيب امتحانات ابنك امتى ؟

- الأسبوع الجاي.

- والله ربنا معاه..

- ماشفتيش المحامي.. بعت لي رسالة على الفيس. إن الجلسة يوم ٢٠يناير.

- والله ٢ يناير قوام كدا.

- ٢٠ يا ماما في إيه ؟

- ريهام أختي جاية ولا .. لأ ؟

- لسة ما اتصلتش.

- ألو ماما ... ماما. أضحك الرصيد خلص فعلاً يا ماما.

تاريخ سعادتي مع كوب النسكافيه ، والقهوة المضبوط .. المشروبات المفضَّلة لدي وتستهلك وقتي ، وأنا أندفع دفعًا في ليال البرد القارصة ، لغلي المياه ، وافرك يداي الاثنتين فوق النار؛ لأتدفأ حتى تغلي المياه، ونفسى تتوق ألاّ تغلي أبدًا حتى تمتص النار الموقدة هذه الأطراف المجمدة ، وعندما تأتيني صديقتي المفضلة أسألها بلهفة :

- إيه رأيك في كوب نسكافيه.. حبيبتي؟

تعلق بغطرسة مفتعلة ، وترد بكبرياء :

- أنا إنسانة لا تشرب أي منبهات.. أسفة.

- غريبة والله إنتِ .. ألا زال يوجد إنسان يحافظ على صحته أمام هذا الصخب يا صديقتي الغبية ، ولست المفضلة.

وفي زمن طفولتي مع جدتي، التي لازمتني طفولتي وصباي حتى توفت ، وقميص السعادة في ذاكرتي .. تحكيها لي كلما كنت غاضبة ، أو متضايقة من أمر ما : " عن ملك من ملوك الزمن الأول العظام لديه كل شيء من : المال والسلطة والأبهة ، ونساء جميلات ، وأولاد صالحين ، وشعبه يحبه ويعظمه ، ومع كل هذا، كان يشعر باكتئاب حاد ، فجاء بكبير الحكماء ، وقال له : ألا تعرف أن تبحث لي عن قميص السعادة وألبسه ، وأحيكه لكل أبناء مدينتي.. فهم أيضًا يشعرون بالتعاسة ، رغم ما ينعمون به من رخاء ووفرة . فأجابه كبير الحكماء : ليس للسعادة قميص. إنها منحة من الله يا سيدي الملك. فاهتاج الملك وثار، وغضب قائلًا : بل هو موجود ، وسأخرج بنفسي إلى الجبال والوديان ؛ لأبحث عنه.. فخرج الملك باحثا

بدأب حتى وجد حطابًا سعيدًا ، يشتري الحطب، يبيع نصفه ويتدفأ بنصفه الآخر مع عائلته الفقيرة ، فسأله الملك : أعطني قميصك أرتديه حتى أكون سعيد ، فقال له الحطاب الفقير: ليس عندي قميص للسعادة ارتديه ياسيدي ؛ لأكون سعيدًا. فقال له الملك : وكيف أنت سعيد هكذا..؟

فقال له الحطاب: إنها هبة من عند الله منحها لي يا سيدي.

إن ذكرياتنا السعيدة هي السعادة نفسها، سنظل نحتفظ بها ، ومع مرور الأيام تتراكم الذكريات السعيدة ، حتى تموت الذكريات القديمة بحكم الزمن ؛ لتنشأ ذكريات جديدة سعيدة ، نعيش بها إلى أن تأتي الجديدة ، ونعيش عليها، وهكذا.

الشيخوخة

أبي منذ خمس سنوات تقريبًا، بعد الخروج على المعاش المعهود عند سن الستين ، ووفاة أمي ، والخمس سنوات هذه بعد السبعين من عمره الآن.. خرج على درجة مدير عام إدارة بني سويف التعليمية ، أصبح لا يتحدث معي إلا نادرًا، وإذا تحدث لا يكون إلا سعيًا لاختلاق المشاكل على أشياء تافهة ، لا تستحق كل هذه العصبية الزائدة التي ما تلبث أن تقلب مزاجه ويتكدر، ويلقي عليّ اتهامات كالإهمال، والتكاسل، وعدم الاهتمام به ؛ وهذا دون الحقيقة بتاتًا ؛ فهو ما بقي لي من الدنيا بعد وفاة زوجي في حادث عابر، وابنتي كبرت وتزوجت، وأصبح لديها طفلة ، وأسرة تشغل أوقاتها عني ، وعن جدها العزيز، وما كان مني غير التحمل والصبر من أجل أبي الذى أحبه ، وأسامحه مهما قال وفعل ، لكن أسوأ ما في الموضوع أنه أصبح لا يتحدث معي.. مثل الأوقات الماضية. بل أحيانا

يستخدم الإشارات ؛ لأضع له الطعام أو طلب الاستحمام الذي بدأت أقوم به بعد أن وقع أكثر من مرة وهو يستحم بمفرده ، وتعرض لكسور لا تلتئم لمن في عمره سريعًا ، وأشد ما يؤلمني غير هذا الصمت المطبق الذي فرضه أبي العزيز، ذراعه اليسرى التي بها كثير من البقع الزرقاء من حقن الأنسولين ؛ لضبط السكر الذي لا ينزل عن ٢٨٠.

كالعادة أول شيء أفعله في الصباح. قبل حتى أن أحضر له الإفطار. أشتري جريدة المصري اليوم ، التي لا يقرأ غيرها ، قائلًا عنه أنه جورنال صغير الحجم صحيح ، لكنه محترم ، وأضطر من أجله الذهاب إلى كشك (الصحافة اليوم). الشهير عند ميدان المديرية ، بدل من الشراء من عم صبحي القريب من منزلنا ؛ الذي لا يبيع إلا : الأخبار والأهرام ، والجمهورية . الجرائد الحكومية فقط ، ساخرًا لمن يطلب أي جورنال آخر.

– يا بنتي مفيش أحسن من جرايد الحكومة..

وفي إحدى المرات ، غافلني وخرج من المنزل ، دون علمي ، هرعت أصرخ :

ـ بابا بابا.. إنت فين رد عليّ يا بابا.. هرعت استنجد بجارتي

أم حميدة ، وأنا أبكي.

– ماشفتيش بابا يا طنط .. معرفش راح فين ؟

– لأ يا بنتي.. استني ننادي عم فتحي نسأله عليه.. هوّ دايما بيقعد معاه في دكانه..

لم أنتظر أحد، وهرولت على السلالم حتى كدت أسقط ، والدموع تغمرني، والخوف من المجهول يقتلني قلقا، وألما، ينهش عظامي التي أصابتها وعكة مفاجئة ، وعقلي عاجز عن التفكير من التوتر الذي ملأ روحي ، ثم توقفت في شارع الأباصيري القريب من شارعنا. وجلست على الرصيف أخذ أنفاسي من الهرولة ، والبحث هنا وهناك ، وسألت نفسي أين ممكن أن يذهب في هذا الوقت المبكر؟ وظللت أسأل نفسي هذا السؤال مائة مرة ، والإجابة لا تأتي أبدًا ، وفكرت ربما ذهب إلى كشك الصحافة ؟ ولمَ ؟ بينما كان أبي العزيز، جالسا على الرصيف في شارع الرياضي يبكي بشدة ، وينادي ويزعق بحزن شديد :

– عايز أروح بيتي.. روحوني بيتي.

كان معه بمبة غاز بوتاجاز فارغة، وفجأة جاءه الزهايمر ، وعندما ملأ البمبة من دكان معروف في شارع الرياضي ، نسى كل شيء ، وجلس على الرصيف يبكي، حتى لفت انتباه السائرين في الشارع ، فتجمعوا حوله ، ويئسوا بعد محاولات عديدة من معرفة أي شيء عنه ؛ فلم يكن معه بطاقة الهوية ، فقط البمبا ونقود ؛ فقرروا جميعًا أن يذهبوا به إلى المسجد المجاور لبنك مصر؛ ربما يستدل أحد من أهله أو أقاربه عليه ، وإذا لم يحدث ، فالجلوس في بيت الله أفضل شيء لحمايته من أي سوء.

وعندما لم أجد إجابة لسؤالي الوحيد مرارًا وتكرارًا : أين ممكن أن يذهب في هذا الوقت المبكر؟ نهضت وقررت السير في شوارع المدينة الرئيسية ، وإذا لم أجده أذهب إلى قسم الشرطة ؛ للإبلاغ والبحث عنه ، ورغم روحي المتهالكة من القلق والخوف، كنت أسير دون قدرة ، وقد فرّتْ دمائي من كل جسدي ، وشعرت بأطرافي تجمدت من صقيع دخل فيه ، رغم أننا كنا في بداية الربيع ، مشيت سيرًا من الأباصيري إلى شارع البحر، ومنه إلى شارع المديرية ، ثم الرياضي.. وكنت قد أنهكت بتاتا، وكادت روحي تخرج من جسدي ، فجلست

على الرصيف أبكي بكاء حارًا وبهستيريا، وجسدي يرتعش، وأنا أدعو الله قائلة بتشنج كلمات واحدة مكررة :

– يارب ألاقيك يا بابا.. يارب ألاقيك يا بابا.

فتجمع الناس ، وأطلق واحد منهم قوله بسخرية شديدة قائلًا :

ـ هو فيه إيه النهاردة إنتِ كمان جالك الزهايمر. ولا إيه؟! وضحك بشدة ، فردت سيدة كبيرة في العمر، وإن كانت لا تتجاوز الخمسين تقريبًا.

– يا بني حرام عليك.. دي باين عليها غلبانة.

واقتربت مني ، وكنت توقفت عن البكاء ، وقلت على الفور:

– أبويا يا حاجة مش لقياه.. خرج ومش لقياه.

فهرع أحد الواقفين في المحلات المقابلة للرصيف ، الذي من قبل جلس عليه أبى ذات نفسه الموقف المأساوي :

– أيوه أيوه يا بنتي دا أبوكي في الجامع جاله الزهايمر، وهرع دون أن يستكمل ، وأخذني من يدي بعنف غير مقصود.

- تعالي .. تعالي ..

والناس تبتسم وتقول بتأوه ، وحكمة المؤمن بقدرة الله :

- سبحان الله بنته تقعد على نفس الرصيف ! لا حول ولا قوة إلا بالله .

- سبحان الله قادر على كل شيء ، وعالم بالنفوس !

إمبراطورية الشمس

ظلّ الطفل يوسف ذو العشر سنوات حزين وصامت ؛ لسفر أبيه في رحلة عمل إلى (شرم الشيخ) ، لا يخرج من حجرته ، بين اللعب على التابلت ، أو مشاهدة أفلام أو ممارسة ألعاب على اللاب توب ، وإذا حضر أصدقاءه لطلب اللعب معه ، أو يرافقهم للعب ماتش كرة ، فهو يعشقها ، ولديه ملابس رياضية ، وحذاء رياضي شهير(Star) يضعه في أحد رفوف الدولاب ؛ لارتدائها فقط في لعبة الكرة أثناء الذهاب إلى النادي. لكنه يرفض ، ويدخل حجرته بلامبالاة.

جاءني على غفلة في غرفتي، بنداء ملح :

ماما.. ماما.

قلت بلهفة : نعم حبيبي..

احتضنني بعد أن قبلني، فاحتويته سريعًا، وظل قابعًا في أحضاني حتى قال بحزن : نفسي أكون عصفور، وأطير لأي

مكان بسهولة.. وأموت بسهولة كمان. رفعته من أحضاني، وأمسكت ذراعيه بقوة، وعينايّ تواجه عينيه، وقلت بحنق وغضب :

- اوع تقول كدة تاني.. بعد الشر عليك.. إنتَ حياتي يا يوسف، إزاي أعيش من غيرك، وهززت جسده بكلتا يداي بعنف قصدته قائلة :

- فاهم.. إنتَ قلبي وروحي وعقلي.. اوعى تقول كدة تاني.. أزعل منك.

ترك يدي، وجلس بجانبي هادئًا وديعًا قائلًا برجاء :

- ماما ممكن نلعب كوتشينة ؟

- طبعا.

وتابع قائلًا ببراءة :

- ماما مكن نخرج نتفسح.

وقلت بعجلة :

- طبعًا.

ولم يكن لدي فكرة عن أين نذهب ؟، أو ماذا أفعل بالضبط؟ لأواجه ضيقه وحزنه ؛ لسفر أبيه وشعوره بالافتقاد ، حتى قفزت فكرة دون مدلول لها في الواقع، أن أستطيع إنجازها على نحو صحيح ، وقلت بحماسة مفتعلة :

– أيواح نروح عند خالتك في حي الديار.. نتغدى وتلعب مع معاذ وخالد براحتك ، وبعدين نروح بعربيتها لمول هايبر، أو المرشدي أو سيتي اسكيب.

قفز هو الآخر بفرحة غامرة، وقال مبتهجًا :

– صحيح أنا بحبهم قوي، وعندهم ألعاب جميلة قوي..

كانت أختي الصغيرة تقطن في حي الديار المميز الهادئ والمنظم ، والمورق بالورود والأشجار العالية ، كأنك تهم أن تدخل متنزه جميل ؛ بانتشار الأخضر على الجانبين ووسط العمارات الجميلة الطراز، كل عمارة إما لديها بواب ، أو كونتر، ممنوع دخول أي أحد غريب ، وانتشار الأمن بها ، والمحلات الكبيرة الراقية ، وبارك للسيارات ، ومساحات واسعة من الخضرة، للعب الأطفال.

شعرتُ بتأنيب ضمير، لما قررته ، دون أن أخذ رأيها ، فربما تعتذر أو لا تكون موجودة غداً أو لأيام ؛ فلها شقة أخرى في محافظة القاهرة عند أهل زوجها ، وكثيرًا ما تذهب إليها للزيارة أو للاستجمام وتغيير الجو، وشراء ما تريده من محلات تفضل الذهاب إليها، لتنوع المعروضات والموديلات ، وأسعار معقولة عما توجد في (مدينة أكتوبر) كما تدعي قائلة بحزم :

- مافيش أحلى من حاجات تحت في السعر والجودة.

وتحت أي محافظة القاهرة ومناطقها المتعددة، باعتبار أن مدينة ٦ أكتوبر بعيدة نسبيًا عن محافظة الجيزة، والقاهرة ، فيطلقون تعبير تحت على المحافظتين.

كان لابد أن أواجه الموقف بأي شكل ، وهاتفتها مباشرة، استحلفها بالله أننى وعدتُ ابني بتلك الزيارة ، ولا يصلح إطلاقًا أن ترفض أو تعتذر بأي أعذار؛ حتى لو كانت ضرورية، لكنها بكل سعة صدر، وحنو بالغ قالت برفق وهدوء :

- لا يا حبيبتي تنوري إنتِ ، وحبيب قلبي ، وابني التالت.

أخذنا (التوكتوك) إلى منزلها في الموعد المحدد للقاء ،

وصعدنا السلالم الرخامية ، وضغطنا على الكونتر: رقم ٥٠٧، وجاء الرد على الفور بفتح البوابة الحديدية الضخمة، الفخمة، عند دخولنا البهو الواسع الرخامي المؤدي إلى السلالم حيث تقطن أختي في الطابق الرابع ؛ كل دور به أربع شقق ، وأول ما دخلت ، ضغطت علي «كبس» لإضاءة النور؛ فرغم أننا كنا لا نزال في الرابعة عصرًا، إلا أنّ المكان كان معتمًا بعض الشيء، وفجأة نظر يوسف إلى اللمبات المنتشرة في السقف المزخرف والمضاءة، وأوقفني يسألني باستفهام ، واستفسار :

- ماما هي اللمض الغريبة دي بتتحرق إزاي.. اللي بتولع بكبس واحد.

شعرت بالمباغتة، وتوقفت عن صعود السلالم، وسكت بنصف ضحكة تعجبًا للسؤال.

وأسرعت ببديهية أجيب بفذلكة :

- أول مرة حد يسألني السؤال دا.. يعني..

فأسرع يقول :

- يعني اللمبة المحروقة هنا، يغيروها كدا زي اللمض

العادية بتاعتنا إزاي.

واستعدت توازني، وسرحت بخيالي، الذي يلهمني إياه خيال يوسف فقط.

- لا يا حبيبي ركز معاي ، اللمبة المحروقة بتنزل لوحدها.

- ومين بيفتح ليها الباب يا ماما..

- بتنتظر لما حد يفتح الباب ، وتخرج يا يوسف ، وتروح الجنينة ، اللي جنب البيت وتقعد في الجنينة.. ويجي الجنايني يرش عليهمماية.. والجنايني يشتمهم يا ولاد الكلب ، قاعدين في الجنينة ليه.. قوموا روحوا البيت.

- بس دي قصة للأطفال يا ماما.. ما ينفعش نشتم كده.

اضحك عاليًّا، وقد بدأنا نصعد ببطء، وانشغل تماما بإتمام الحكاية :

- لأ يا يوسف ماهم أطفال ناضجين ، وأذكياء زيك. وعارفين الشتيمة عيب.

- طيب والجنايني ح يعمل إيه معاهم ؟

- يرش عليهم ماية تاني ، ويقولهم :

- يا لا .. يا لا إجمدوا علشان تنوروا.

- بس يايوسف ، وبعدين الشمس العظيمة تيجي وتقولهم .. ماتزعلوش ، ما تزعلوش أنا أنشفكم ، وتديهم شوية نور علشان ينوروا.. وما يبقوش محروقين، ويرجعوا ينوروا.

يضحك بضحكات متكررة، طويلا، طويلًا، قائلًا بفرح غامر:

- دي قصة جميلة قوي يا ماما لما أروح أرسمها في الإسكتش بتاعي.

ريموت أم إنصاف

كانت إنصاف صديقتي ، وجارتي ، وزميلة دراستي إلى الثانوية العامة ، حتى دخلنا الجامعة ، وكل منا ذهب إلى كلية بمجموع يناسب مكتب التنسيق ، حتى ولو كنا لا نميل إلى الالتحاق بهذه الكلية أوغيرها ، فأنا التحقت بكلية التجارة ، وهي كلية الحقوق التي تبغضها ، ولا تطيق دراستها الصعبة ، والبعيدة كل البعد عن ميول إنصاف التي تتقن الرسم ، وكان حلم حياتها الالتحاق بكلية الفنون الجميلة ، فهزمها المجموع من ناحية، وقدوم العريس المفاجئ ، وقد أصرت الأم على الموافقة عليه ، فدخلت إنصاف كلية الحقوق عنوة، وتزوجت أيضًا رغما عنها، وعاشت وأنجبت كأي مصير فتاة طوع أهلها، وخاصة من لديها أم مثل أم إنصاف القوية الشخصية ، وتحمل صفات ، وخصال تميزها عن أي أم أخرى .

كانت الأم مغرمة بتخزين الخضراوات ، واللحوم وكل شيء في فريزر الثلاجتين .. واحدة في غرفة نومها ، والأخرى في

الصالة مع الديب فريزر؛ الذي يعج بكل الخيرات من كل أنواع الغذاء من : أسماك ، ولحوم ، وخضراوات، وعصائر، حتى الثوم تأتي به وتفصصه وتقشره وتطحنه وتحتفظ به في علب بلاستيكية ، وهلم جرا مع كل ما هو متاح للتخزين ، في الصالة الطويلة المربعة بجانب الانتريه وتسريحة بمرآة طويلة مصنوعة بنمنمات الأرابيسك العربي ، بديعة الشكل ، ويجاورها بمسافة قليلة جزامة ، وصندوق خشبي لونه بني غامق تحتفظ به من عهد الجدة المتوفاة من زمن ، تضع فيه الفوط الصغيرة والجوارب ، متراصة في لكاليك حتى لا يختلطوا مع بعضهم ، ونفتالين ، وبعض (الرابسو) برائحة الفاكهة ؛ لكي لا يحدث عطن أو أي رائحة كريهة أو تلف من عتة الملابس.

كانت أم إنصاف القوية العزيمة ، والمختصة بجدارة في كل أمور المنزل، تضع تلك المواد الغذائية. باستمرار حتى لو لديها الوفير منها ، وأحيانا تفسد من طول التعليب والتبريد الزائد عن الحد ، وتُلقيها ، ولا هي تطهيها أو تعطيها للمحتاجين، أوحتى لأبنائها وبناتها . فقد كان لديها ستة أبناء : أكبرهن إنصاف صديقة الدراسة والجيرة، وثلاثه صبيان أكبرهم محمد الذي يعمل الآن في السعودية ، وهي لا تذهب أبدًا ، ولو أعدموها

إلاّ إلى أبعد سوق ، سوق الكوبري في أخر المدينة ، أو سوق الإسكان الكبير في وسط المدينة. رغم أنها قريبة جدًا من سوق (زنبو) على بعد ٥٠ متر من منزلها في شارع إسلام باشا الذي يتفرغ من شارع الجيار في منطقة عبد السلام عارف ، وكواجب لابد منه حتى لو كانت الأم مثل أم إنصاف ، تذهب إنصاف إليها يومين في الأسبوع دون الأخرتان..

أمَّا الصبيان كلما سنحت الظروف لزيارتها، حيث الكبير في السعودية، كما ذكرنا، والآخران واحد يعمل ويعيش في مركز بوش الذى يتبع المحافظة ، والثالث يعيش في محافظة الإسكندرية.. ولا ترى إلاّ الابن الأوسط مرة كل أسبوع يوم الخميس دائمًا حيث يجتمع مع البنات ، اللاتي جميعهن يقطن في بندر بني سويف كل في حي ما ؛ لرؤية الجميع ، فمشاغل الحياة تفرض حالة من الحصار عليهم ، فيكون يوم الخميس فرصة للسمر، والتندر، والتفكه عن أمور الحياة التي تحدث لهم جميعًا. بجو من السخرية ، والمرح ، والاستغراب أحيانًا ، ويمتد اللقاء الأسبوعي في ليالي الصيف إلى بعد الواحدة صباحًا ، وفي الشتاء إلى العاشرة مساءً أو أكثر .

ولأن إنصاف الكبيرة، الأم لا تخفي عنها شيء فمثلا تتحدث لها عن زوجة عبد التواب الصعيدي ، وهذا لقبه. أن جارتها المفترية ، أحضرت لها فراخ ، وماتوا ، وكلما أحضرت لها فراخ تربيها تموت ، وتندد بضيق بأن عيناها مدورة ، وحسودة ، وربنا سوف ينتقم من نيتها السيئة إن شاء الله ، وكيف أنها سألت ابنها كم يتقاضى راتب في السعودية ؟، ولم يقل لها ، وكم هي زوجة الصعيدي وقحة تأتي لها بعد يومين ، وتعطيها جبنة قريش ، ورقائق البتاو، وكأنها لم تتسبب فى موت الفراخ بعينيها الحسودة ، وقلبها الأسود.

أم إنصاف أيضًا، تحرص على شراء الجرائد المختلفة ، رغم أنها لا تقرأها جميعًا ، وتطلب منها ، أن تحضر لها جورنال التحرير، لأنها لم تقرأه من قبل ، وغالبًا ما تختار جريدة الجمهورية بالذات ، وتضعها تحت الوسادة ، فتسألها إنصاف عن سبب هذا ألا يكفي المصحف فقط ؟! فتزغر لها الأم بعينيها الذابلتين بفعل كبر سنها ؛ أنها تضع المصحف لتقرأ فيه ، بعد صلاة الفجر، وبعد ذلك جريدة الجمهورية ، وتلكزها في فخذها ألا تنسى ، أنها حصلت على دبلوم المعلمات ،

وناظرة مدرسة الدواوين الابتدائية سابقًا . أي قبل خروجها على المعاش.

وفي إحدى الجلسات ، التي لا تنساها إنصاف ، لأنها كادت أن تفقد عقلها مع أمها مما تم في هذه الجلسة. كانت أمها تفتح التليفزيون ، الذي لا يُغلق إلا عند نومها في فترة القيلولة ، أو في الليل ، وتدوس على أزرار الريموت ، ولا تعمل ، فعلت هذا أكثر من مرة ، خبطته على خشب الكمودينو بجانب سريرها ، لكن أيضًا لا يعمل ، فهي لا تفارق السرير سواء في مشاهدة التليفزيون ، أو الطعام أو النوم ، وأحيانًا تحضر صينية كبيرة ، وتقوم بتشذيب الخضار عليه.

سألتها بعفوية : سأذهب أحضر لك غيره من عند خالد البقال في أسفل المنزل ، ورفضت ، وتهيأ لإنصاف أنها تخجل من تعبها للذهاب والمجيء ، لكن المغزى كان مختلفا وعميقا للغاية ، أخبرتها أنها لابد أن تأخذه معها إلى سوق الخضار عند عم فاروق البقال ، ويركب لها حجارة الريموت بنفسه حتى يعمل ، اشتعلت غيظا أكثر منه أداء المعروف راحة لأمها من هذا التصرف ، الغير منطقي بالمرة مع مجرد ريموت ، له حجارة

تباع في أي مكان ، بل هو عند البقال الذي في أسفل البيت ، كيف نذهب به إلى سوق الخضار كيف ؟ أعادت الكرة مع أمها.. أن تذهب وتشتري الحجارة ، وهمت بالوقوف للذهاب.. هاجت أمها ، وارتفع صوتها تأمرها أن تجلس ، وتحضر لها قناة الحياة بالعلامة الحمراء من زر الريسيفر. تشاهدها حتى تذهب غدا إلى سوق الخضار.

هدأت إنصاف وخافت من أمها ، التي لازالت لها هيبتها ، وقوتها مهما أخذ الزمن من عمرها ، وفعلت ما أمرت به ، والتزمتْ بإذعان واستسلام لابد منه ، وبعد لحظات من الصمت، تحاول به أن تستجمع أعصابها واتزانها مرة أخرى ، حتى لا تغضب أمها، فهي أمها مهما قالت ، وفعلت ، وأمرت. قطعت الأم هذا الصمت الملتبس في عقل كلتيهما، وأخبرتها أن تذهب إلى المطبخ ، وتعد كوبين من النسكافيه البلاك الذي أحضرته من أجلها ، لأنها تحب مذاقه ، قامت على الفور من حالة التوجس التي أصابتها بالخنق ، والتوتر، وأثناء رشف النسكافيه البلاك ، قالت الأم بكل برود لإنصاف التي أصبحت في موقف لا تُحسد عليه ، أنها ستقوم بارتداء ملابسها ؛ لتذهب معها إلى سوق الخضار لتشتري حجارة الريموت، ودون أن

تتلقي أي اجابة منها ، ارتدت العباية ، والطرحة وأمرتها أن تهم وتنهي كوب النسكافيه ، بُغتتْ إنصاف من المفاجئة ، ولعنت الريموت داخل نفسها سرًا ، وكادت أن تصاب بالسكتة القلبية.

وعادت ذاكرة أم إنصاف لزوجة عبد التواب الصعيدي فجأة ، وأشارت بيدها ، وملامح وجهها تتشدق ، وتُمصمص بفمها ، وتهز صدرها قائلة بسخرية شديدة :

الست مراض الصعيدي راحت ، الست جات. أعوذ بالله منها ، ومن دخلتها النحس. الله يرحم الجلابية المقطعة ، والشعر الأكرت المنكوش ، وأبوها الأجري في أرض توفيق أبويا ، وأمها الكلَّافة في بيت مرعي ابن عمي الكبير.. الله يرحم.. الله يرحم.

مهما مرت الأيام لا أظن ، أن إنصاف صديقتي ستنسى هذا اليوم مطلقًا ، وقد عادت إلى منزلها بعد آذان العصر بقليل.. ولم تفعل أي شيء من واجبات منزلها، دخلته بصمت كبير، وهرعت إلى غرفتها ، وأغلقت عليها بالمفتاح حتى لا تسمح لأي أحد بالحديث معها ، ولو بنصف كلمة ، وخلعت ملابسها، ونامت إلى آذان المغرب ، وهي تسب وتلعن حجارة ريموت أم إنصاف العنيدة.

ضريح العوانس

كانت تداوم على الذهاب كلما ملأها الحنق ، والضيق بالموعد المؤجل ، والنصيب المتعند أن تحظى بنصفها الآخر في تلك الحياة القصيرة، فتذهب للبحث عنه في ضريح العوانس بإلقاء ورقة مكتوب عليها : (ياسيدي عتريس هاتلي عريس). والكثيرات أيضًا يترددن على ضريح أبو السعود (بمنطقة مصر القديمة). محافظة القاهرة ؛ بزعم الشفاء من الأمراض ، والبحث عن عريس ، اللاتي يمارسن طقوس غريبة أثناء زيارة الضريح ، وهن يستجدين قدوم العريس.

تدور الفتاة حول الضريح ثلاث مرات قبل إلقاء الورقة أمام الضريح ، وفي كل مرة تكاد تصرخ من داخلها :(ياسيدى عتريس هاتلي عريس ... يا سيدي عتريس هاتلي عريس ... ياسيدي عتريس هاتلي عريس).

بحري قبلي

كان يطلق عليها نادية بحري قبلي، عمرها خمسة وعشرون عامًا، تدمن بودرة الهيروين، أحبت رفيقها في ملجأ الأيتام، وأنجبت منه طفلاً بزواج عرفي. تعمل عاهرة؛ لتقتات رزقًا لطفلها، وإدمان البودرة، بعد أن أُخذ زوجها في قضية تعاطي وترويج المخدرات، مشهود عنها بين السائقين، ومجتمع عملها أنها خفيفة الحركة، تذهب إلى أي مكان بحري، قبلي بسعر واحد. بشرط توفير وسيلة الانتقال للمكان الذي ستمارس فيه الرذيلة، لها ولطفلها، وفي إحدى الحفلات الجنسية الجماعية بينها، وبين ثلاثة رجال، يُقال أنها ألقت بطفلها من بالكونة الطابق الخامس حتى لا يأخذوه منها، هكذا قالت، وادعت فى المحكمة. توقع ذو أصحاب القلوب الرحيمة الشفقة بحالها، وتخفيف الحكم عليها، لكن الحكم كان صادمًا للجميع، وهو الإعدام، بينما الرجال الثلاثة غرامة مالية، وحكم بالسجن مع وقف التنفيذ.

الاسم

كانت محتارة فى اختيار اسم مولودها الجديد ، حتى قامت أمها، وأحضرت ثلاث شمعات للمولود . كل واحدة باسم تفضله هى وزوجها ، لكن أيضًا احترنا فى اختيار أيهم : ياسين/ عمر/ محمد . ثم أخبرتها أمها: أن الشمعة التي تطفىء الأول يستقر الاسم عليها .

فجأة دموع صامتة مدرارة ملأتها ، وقد تذكرت أن الشمعة ذات الاسم الأول قد انطفأت إلى الأبد ، فقد مات ياسين من عدة سنوات في خناقة مع أحد البلطجية. في حي امبابة (محافظة الجيزة). وأنها بعد تلك الحادثة المأساوية ، عادت إلى مسقط رأسها في المنصورة ؛ حتى تدفنه ، وتظل بجانبه إلى أن تلتقي به ، وترقد بجانبه ، وتخبره بحكاية الشمعات الثلاث . فقد فاتها أن تحكيها له ، وهو على قيد الحياة .

المشاعر

كان مدير أعماله يقظًا جدًا لأستاذه الفنان الكبير، وهو يحذره إذا شاهد أي قطة بائسة أن يخبره فورًا ، لأنه مشغول ذهنيًا بموعد الصالون الفني ، الذى يعقده شهريًا فى أحد النوادى المشهورة للغناء ، واستقبال المواهب الجديدة في منطقة [مصر الجديدة]. في محافظة القاهرة ، و يحكي بمأساوية عن أفعال أستاذه الرقيق المشاعر ، الطيب القلب ، الرحيم بالقطط :

- في إحدى المرات ، ونحن كعادتنا ذاهبان إلى حفلة ، رأى قطتان بلدي ، نزل على الفور من السيارة ، وظل بجانبهما ، ثم أخذهما إلى طبيبه البيطري ، ومنه إلى منزله في منطقة [الرحاب]. لديه حوالي اثنان وثمانون قطة بلدي ، وواحدة شيرازي فقط ؛ مهداة له من أحد أصدقائه في العراق . وتذكر فجأة ميعاد الحفل ، وقد قمت بإلغائه قبل أن يتذكر ؛ لأني أعرفه سينشغل تمامًا بالقطط المسكينة ، وينسى الميعاد ، ثم أمرني أن أضيفهما في جروب القطط الخاص به على الفيس بوك ؛ ليتعارفا على أصدقاء ، وصديقات جدد ، ويتم زفافهما قريبًا إن شاء الله.

ألف باء

كانت أمي دومًا تيأس من عدم قدرتها على الكتابة في الخطابات ؛ التي نرسلها لأخي المقيم في الكويت مع أسرته ، وتزعق أمي ، والدموع تترقرق فى عينيها البراقتين بالتوقد ، والحنان ، وتقل بحزن : " ياسلام يا ولاد ما أحلى العلام ، لو كنت أعرف أكتب قد دي الكتب " ، وهى تشير بسبابتها لصفوف الكتب لأبنائها الثلاث الذين لازالوا فى المراحل التعليمية المختلفة ، وتصر قبل أن نغلق الخطاب أن تنهيه بخطها : (أ ب). ثم تشرح لأخي معناها في التسجيل الصوتي المرسل مع الخطاب قائلة بدموع تترقرق : سامحني يا ابن بطني .. يا حبيب قلبي. أني جاهلة ، لكن لازم تعرف إن أ ب ياحبيبي : هي كل حاجة حلوة عايزه أقولها ليك ياضناي . يا حتة من روحي ، وكل حاجة حلوة تنولها بالبركة ، والرضا ، والسعد. طول عمرك ياضناي .

الاكتئاب

كانت تأخذ حبوب الاكتئاب الغالية الثمن ، حتى أخبرت الطبيب بضيق : " مهدأ قوي ، لكنه بيهمد جسدي تمامًا ، ويشعرني بالنعاس طوال اليوم ، وأنا أحتاج للوقت لرعاية زوجى وطفلاي ، لو سمحت اكتب لي نوع آخر " . كتب لها على نوع آخر تأخذ منه واحدة بعد الإفطار، وقبل النوم ، ثم تقول بسخرية : " الاكتئاب أصبح مرض العصر ... زمان كان يقولوا عليه مجنون أو مجنونة من يحكي أن عنده اكتئاب ... الآن أصبح أمر عادي كأنه انفلونزا ، وتسترسل : " جائتني هذه الحالة بالضبط بعد موت أبي ، طوال الوقت أبكي ، ومخنوقه ، ومتضايقه .. إلى الآن أكثر من سبعة أشهر.

" لا أستطيع أن أنسى مشهد موته. أشعر به فى المنزل ، وسكرات الموت التي عايشتها معه لحظة بلحظة ، ظل يشخر من السابعة صباحًا إلى الخامسة مساءً ، وكان يحرك شفتاه ،

كأنه يتحدث مع الملائكة ، ما أصعبها تلك السكرات ، وفجأة اهتز المنزل ، وشعرت بزلزال حقيقي ، فأدركت أنه مات ، وقمت ببكاء صامت موجع إلى حجرته . كان شخيره قد زال تمامًا ، وكان مستلقيا بوجه ناصع مضئ ، ملقي ذراعاه بجانبه ، ثم ضمهما على صدره ، وأغلق عيناه كأنه يودعني ، ويودع الحياة برضا تام ، يقولون أنه كان يخاطب قلبه ، وعاد إليه أي بيت الراحة الأبدية ، تلك المشاهد عن سكرات الموت التي عشتها لساعات مع أبي تأتيني فى اليقظة ، والحلم ، وأرتعب ، وأنا أسمع صوته ، وأشعر بحركته في الشقة كاملًا ... تعبت للغاية إلى حد الاكتئاب ".

تورتيلا فلات

عندما أشعر بالملل والصمت القاتل، أهرع إلى تشغيل قناة الأغاني الكلاسيك، وأطهو الأكلة المفضلة له، البطاطس (الصوابع المحمرة المقرمشة). بعد تقطيعها على ماكينة مخصصة لذلك، حتى أمنعه إلى حد ما من شراء أكياس الشيبسي المعلبة المحفوظة الضارة. كان سعيدًا جدًا ؛ لأن امتحانات الصف الثالث إعدادى انتهت، وكل لحظة يدخل عليَّ حجرتي ، ويهلل بفرح قائلًا :

ـ ماما أنا خلصت امتحانات ، وأعمل كل ما أريد. أجلس لمشاهدة اللاب، أشغل التابلت على ألعاب، أغاني، أشاهد التليفزيون، كل شيء، وأي شيء. وفجأة دون توقع قال بإعجاب :

– هل شاهدت فرقة أطفال الشوارع ؟

قلت : نعم.

ثم قال بحزن :

ـ اعتقلت الحكومة أمس تقريبًا ستة شباب منهم، ويوجد فيديوهات كثيرة على الفيس (هاشتاج) : الحرية لأطفال الشوارع.

كنت قد أنهيت البطاطس المحمرة مع أغاني (اسكتشات) أطفال الشوارع ؛ التي أدارها من التابلت، فعدت إلى حجرتي، وقد عصرني الحزن على اعتقال أطفال الشوارع، وتذكرت طهي البازلاء في رواية (تورتيلا فلات)، كما أفعل مع البطاطس المحمرة. فقمت بحماس أقاوم الغضب والحنق، وذهبت مباشرة أحضرها من المكتبة؛ لأقرأها للمرة الرابعة.

تنويه عن: (أطفال الشوارع) : كانت فرقة تتكون من ستة أشخاص تقريبًا. كانوا يغنون، ويرقصون في شوارع القاهرة. أحبهم المصريون، وسموهم أطفال الشوارع.

الأباجورة القطة

كان أمس عيد ميلادي الخمسين، لاحظت أنني لم أعد أحب النور الساطع، وجاءتني لحسن الحظ من أختي الكبيرة أباجورة قطة تحفة. لونها روز، فهي تعرف أنني أعشق هذا اللون. مع صديقتي القطة الجديدة، سأعترف لها في اليوم الأول بعد إتمامي أعوامي الخمسين، بكل الخيبات، والعذابات التي مرت في حياتي مرورًا عبثيًا، ورغم الآثام، والذنوب الفادحة لي، ولهم، ولهن؛ التي لا تُغتفر، لكن في نهاية الأمر أجد الحياة دنيئة، ولا يجوز عليهم إلا الرحمة، سواء كانوا أحياءً أو أمواتًا.. بل الرحمة منك أيتها الحياة القصيرة.

واكتشفت أيضًا أنه لم يكن في كل حياتي، غير حبيب واحد هجرني بعد سنوات دون سبب أعلمه، لا أنا تزوجت، ولا هو تزوج، وأصبحت عانسًا لقبًا ومضمونًا، وصديقة واحدة فقدتها أيضًا لأسباب تافهة من وجهة نظري الآن، كانت دائمًا تتهمني،

أنني جبانة، ومترددة ، وهي تصرخ فيَّ قائلة :

ـ أنت لا تصلحين لأي حياة مثل القطط ، تخافين من كل البشر، والمغامرات، مثل القطط الهاربة من الجحور. دون جدوى أو هدف من حياتك :

– مرحبًا.. مرحبًا.. بك أباجورتي القطة.

المعِطف

فضل كهل انتشرت الشعيرات البيضاء في أرجاء شعر رأسه، كان يجلس تقريبًا شبه عارٍ، يجمع القطـــع الحديدية ، ويضعها في أسفل سلالم منزلنا ، يتشاجر معه كل من في المنزل الذي كان يعج بالمسيحيين، كانوا يقطنون الطابق الثاني، والثالث، والرابع، في أخر الأمر تجاهلوا أكوام الخردة التي امتلأت بها بئر السِلم ، وكمية الحشرات والفئران التي جعلت منه مسكنًا لهم ، وتركوا الأمر للرب.

فضل لا يتفوه بشئ طوال اليوم إلا السب واللعن في الحكومة ، هكذا دون التركيز في ما يقوله بالضبط ، واختلاط الأمورعليه ، هذا الذي صاحبه منذ الثمانينيات حتى هذه اللحظه ، وربما لا يعي أننا بعد الألفية بعشر سنوات.

يذكر أهل الحي ذاك اليوم الذى قامت فيه عربات النجدة القديمة، قبل ظهورهذه السيارات الزرقاء (البوكس) تطارده ؛

نظرًا إلى شكاوي بعض الأهالي مثلما كانت تطارد الكلاب، ويتركونها مغمورة في دمائها حتى تجف تاركين لأهل الشارع التقزز، والرائحة العفنة ، والميتة الشنيعة المثيرة للا شمئزاز، إلى أن يتطوع الجيران بإعطاء بعض المال لأحد من عمال النظافة ؛ الذين يحضرون يوميًا لأخذ القمامة من بيوتهم بنقل الجثة بعيدًا أو حرقها.

في ذلك اليوم أيضًا تنبأ بأنهم يقصدونه هذه المرة دون الكلاب فقط ، فخرج إليهم عاريًا كما ولدته أمه ، يثير فزعهم عضوه العاري ، ظل يجري وراء هم ،وهو يسب ويلعن حتى قال له المخبر :

- اجري يا راجل انت ... أحسن اقتلك ، والله بالخرطوش.

ظل طوال الليل يجلس عاريًا كما ولدته أمه وسط الشارع يصرخ ويسب ويلعن هذه المرة في أهل الحي. إلى أن تحول صراخه إلى نحيب ، وبكاء ثقيل من رجل لم نعتد أن نراه يبكي هكذا.

عندما رأى الناس دموعه الغزيرة ، طأطأوا رؤوسهم ، وترقرق الدمع في أعينهم ، وساد الصمت، واغبرت وجوههم،

وأعرضوا عن شكايته مره أخرى ، وتركوا الأمر لمعجزة من عند الرب كالعادة ، فمن عنده تأتي كل الحلول .

عند قرب الفجر، رأيت أخي يغادر منزل شقتنا حاملاً معطف أبي القديم الزيتي ، عابرًا الطريق إليه حيث كان يجلس فضل متكومًا ينهنه ، وعاد من دونه.

كان فضل من عاداته السيئة إشعال النار في الشتاء للتدفئة دون مراعاة أن بجانبه أسلاك كهرباء ، أو أشياء سريعة الاشتعال ؛ فكان من الممكن أن يحرق الشارع كله سهواً ، ويُسبب خطأ فادح.

ربما بين الحين والحين تسقط حبات المطر الثقيلة ؛ لتكسر حدة الهدوء القاتل ، والمطر البارد يرتطم بحدة على وجهه كالإبر، بينما هو صامت صمت القبور، ومع هذا لا يأخذ أية مساعدة ، سواء كان طعامًا أو ملبسًا من أي شخص غير أشخاص بعينهم مثل أخي الأكبر؛ الذى أصبح يكتفي بأخذ السجائر منه ، فقد استحوذ عليه بشخصيته الهادئة ، وابتسامته الوديعة.

أخيرًا جاءت رحمة الرب كما طلبها إخواننا المسيحيون ،

ورحل فضل آخذًا معه بعض الأغراض التي يحتاجها في عزلته عن هذا العالم.

بعد سنتين أو أكثر وأخي في محافظة الفيوم ، رآه في محطة الأتوبيس ، والسيارات الأجره يعمل شيالاً ، يرتدي المعطف الزيتي، وعندما اقترب منه تعمد أنه لا يعرفه ، ثم قدم له سيجارة فأخذها.

مرة أخرى لمحه في أحد شوارع محافظة القاهرة المزدحمة ينظم المرور بشكل تلقائي ، حتى أن العسكري المختص جلس في الكشك الخشبي الخاص به ؛ يستظل من صهد يوليو القائظ ، وجعله ينظم المرور بإشارات من أصابع كفيه ، ليحل بعشوائية حكاية المرورالعسيرة في بلدنا العزيزة مصر.

ذات ليلة ما في مدينتي الصغيرة ، كنت سائرة بصحبة أخي ، ثم سمعنا ضجة شديدة لحادث فى الطريق العام ، وتوغلنا وسط المارة برفق، فوجدنا ثمة معطفًا زيتيًّا قديمًا ممزقًا ، يغطى كومة من اللحم والدماء ، مددت يدي أمسك معطف أبي ، شدني أخي برفق بين أعطافه ، ورحلنا بعيدًا عن المشهد المأساوي ، والدموع فى عيناي ، وذاك المعطف الزيتي مازال عالقًا في ذهني.

الديست ومبيض النحاس

كانت تشكو بخفة ودعابة من حفيدتها بطوط. ترسم على الحوائط . في كل مكان.

ترد أبلة صباح بخفة ، ودعابة أيضًا :

ـ أصلنا فراعنة .. دا في دمنا .. كانوا برضوا يرسموا على الحيطه ، ويملو الحوائط بالرسومات .. فراعنة إحنا صحيح .

وتنتقل بالدعابة إلى أبلة نجوى قائلة :

– كل سنة وإنت طيبة يا أبلة نجوى.. دا عيد المصريين مش عيد المسيحيين بس ، ولا إيه يا أبلة هناء. فتضحك قائلة :

– آه طبعا بعد بكرة أجازة رسمي عيد المسيحيين.

وتزعق من حفيدتها بطوط قائلة :

ـ آه .. قصدك عيد المصريين لو سمحتي. قولى كدة يا أبلة هناء ، وتهرع لأخذ منصة الحوار كالعادة :

وبمناسبة عيد المصريين كما اتفقنا. أحكي لكم حكاية الديست :

ـ في قريتنا ، من زمن فات ، كان يوجد الديست ، ومبيض النحاس ؛ الذي كان يدق مسمارين في الحائط عندنا في البيت الكبير من خارجه. واقف يترقص ، وهو يبيض النحاس حتى يجلو ويلمع. الجيران ، والعيال يتلموا عندنا ترقص ، وتغني ، وتصفق أي يوم يأتى فيه مبيض النحاس. والنسوان يجروا ويحوطوه ؛ لأجل يعملوا مثلنا.

فى هذا اليوم بالذات كانت أمي تطهي المحشي الكرنب ، والورق عنب فى الديست ، وكان عبارة عن حلة نحاس كبيرة تشبه البوق ضيق من أسفله إلى أوسع ، وتغطيه بغطاء صاج ، وبعد طهيه تحضر صينية نحاس كبيرة واسعة أجلاها المبيض لتوه. احتفالًا بحضوره ومهارته ، وتفرغ فيه كل ما فى الديست ؛ وجميعنا نحن النسوة ، والعيال ، وكل من تشتهي نفسه في الحارة. يأكل من الديست المجلو المزنهر اللامع ؛ بفضل المبيض الرقاص الشاطر، وتتنهد قائلة بنصف ابتسامة :

ـ لم يعد يتبقى من نحاس أمي غير حلة نحاس حمراء. مرة وضعت فيها الليمون استوى ، لكن لونه ظل أخضر لم يتغير. حتى نهرتني أم بطوط ، وباعتها لبائع الروبابيكيا.

نعناعة الفِراق

كنت طالبًا في كلية الهندسة بجامعة المنصورة، رسبت، فطردت من سكن الطلاب، وأشار لي صديق عن سيدة ستؤجرغرفة بمفردها في منزلها.

نعناعة : هذا الاسم أطلقته على نفسها دون الحقيقي. كانت تحب النعناع الأخضر، و تحضره يوميًا مزهرًا، برونقه الأخضر، ولا تحتسي الشاي في الصباح إلا به. وهي مثله نعناعة ، ريانة خضراء، رائحتها فواحة بعطر كالنعناع، واللبان بنكهتة لا يفارق فمها يخرج رائحة ذكية. زوجها سافر إلى العراق في دوامة حرب الخليج الأولى بين (العراق وإيران) في عام (٨٤) ، ولم يعد، فظللت معها ثماني سنوات، حتى بعد أن فارقتها ، وعدت إلى محافظتي البعيدة عنها، لم أستطع الزواج بسهولة إلا بعد إلحاح والدتي من ابنة خالتي. أتحدث الآن وأنا عمري اثنان وخمسون عامًا.. لا ولن أنسى نعناعة حبيبتي

إطلاقًا. نعناعة عشيقتي كانت تسكن في منزل كبير مكون من ثلاثة طوابق، وهي تقطن في الطابق الثاني، والسطح مغلق بباب حديد. كنت أسكن بجانبها في حجرة بها حمام فقط مفصولة عن باقي شقتها بباب خارجي. كانت شقتها من طراز البيوت عالية السقف.

وفي إحدى المرات سمعت تأوهات لاهبة، فصعدت على الترابيزة لأتلصص النظر من الشيش الذي في أعلى السقف، وانتابني الذهول إلى حد الصدمة، وظللت طوال الليل اتقلب على السرير من الإثارة، والشهوة، عندما شاهدتها تمارس شهوتها المتأججة مع كلب لولو أبيض. في الصباح، تقابلنا عند هبوط السلالم، ونظرت إليها بقوة ، وقلت بوقاحة :

ـ هل وصلت للكلاب يا سيدتي ؟!

قالت بعينين ينفجر منهما رونق النعناع المزهر المشع :

ـ نعم ، هم أحسن وأرحم من البشر، وصوبت جمال عينيها لي، وظلت ترمقني بنظرات الشبق النعناعي الذي أغواني، وسألتني بولهٍ :

- متى ستعود ؟

قلت بطاعة :

- الساعة ٣.

قالت بإذعان الراغبة :

- أنتظرك.

عدت وطرقت الباب الموارب بخفة.

قالت :

- أدخل أنا في المطبخ.

كانت ترتدي قميص أبيض تفترش عليه زهرات النعناع اليانعة الخضراء اللاهبة ، بجسدها الأبيض البض المشع كنور ساطع سحرني في وهجه للأبد.

حالة شعبيَّة مفرطة

حي الغمراوي تتشابه معه الكثير من الأحياء في مدن مصر، الذي يتبع العشوائيات ؛ أي منازل متراصة متلاصقة على شكل هندسي واحد. لا يزيد عن طابقين في أغلبه ، حاكورة داخل حاكورة في زنقة خانقة. جميع أجزاءه يتداخل ليرسم الكل في واحد ، من البالوعات التي تطفح من الوسخ إذا انهارت بالوعة إحدى البيوت الضيقة مثل علب الصفيح، فالبيتان أو الأكثر يتشاركان في حمامين : واحد للرجال ، والثاني للسيدات، والسطوح بها عشش الفراخ ، ومختلف الدواجن، وحبال الغسيل الذى يتناوبه حرامية الغسيل بين حين وآخر، إذا التقطوا قطع الملابس ، ولو بها مسحة من القيمة والأناقة ، ولأن الحرامي من الجيران غالبًا، يبيعها في سوق الجملة أو خارج الحي تمامًا، ليس حتى من أجل ألا ينكشف أمره فهو معروف بين أبناء حواري الأحياء المجاورة، وإنما والأهم

لكي يحصل على المال المطلوب لقضاء حاجته الملحة، شيء يشتهيه، شراء الكيف من المخدر الذي يدمنه. نزهة مفتخرة مع حبيبته.

كان خلف الرستاوي الابن الوحيد لأمه ، التي كانت تعمل في مغسلة في شارع فيصل (محافظة الجيزة). وتتفذلك ، في الحوارات والأفعال بالفهلوة والشطارة، بادعاء أنها تفهم في كل شئ مع زبائن المغسلة ، و الباعة الجائلين ، والجيرة والجميع . تحت شعار: " الحمد لله على الفقر والجدعنة ". وهي تلامس نبضهم بإحساسها ومشاعرها الرهيفة ، التي لا تخيب مع صنع أحلى كوب قهوة بعد وضع سنة (الأفيون) تحت لسانها ، عندئذ تستغرق في التفكير، وتسديد الأحكام في صوابها. وتربط العصبة حول رأسها بحزم وتقول :

- " وقت الفكر خلص ، ووقت الفرفشة حضر ". وتحتسي كوب آخر من القهوة المطعم بندفة من (الحشيش) مع أنفاس السجائر الساخنة ، كانت تحب وتقدر ابنها البلطجي ، والمشاكس الذى تلاحقه في أقسام البوليس، وخناقات البلطجة.

فرح خلف الرستاوي كان غريب جدًا، وبه أشكال غريبة على شكل الجن ، وأقنعة مخيفة يضعها أصدقائه ، والصبيا المستأجرين على وجوههم ، ويقفون على المسرح الخشبي، بجانب فرقة الآلات الموسيقية من نفس الحي تقوده المعلمة صبورة المرتدية العباءة السوداء، التي تلمع بالترتر، والغرز الملون، وتربط حزام عريض من الكتان المحزم بالرباط المحكم بأكثر من التفاف من أسفل نهديها إلى (كرشها) الضخم المليء بالمال حول خصرها ؛ حيث تضع فيه أموال التحيات.

عندما يصعد الرجال لتحية العريس والعروسة على المسرح الخشبي المزين بأحبال من النور: حمراء وخضراء، وكلوبات صغيرة ، بطراز حديث ، بأربع شبابيك بنفس الألوان للاحتفاء بضيوف من أحياء مختلفة : شبرا، وفيصل، والزاوية الحمراء، والشرابية. نجومه المسرحية : محمد عشرة، أحمد اللحم، خالد سمكة، مجدى أبو سنة.

يبدأ الحوار من شخص محدد بالدور من منطقة ما ، وليكن من (الزاوية الحمرا)، ويطلق عليه النبطشي يهتف

بحماس وقوة: عم سيد مراد صاحبي وصديقي وبلطجي أصيل، ويستطرد في ذكر قائمة بأسماء منهم الحقيقي ،ومنها الوهمية حسب ذاكرته. والوهمية أي التي ربما رحل عن الحياة أو في السجون أو هاجروا لأماكن أخرى على حسب الذاكرة: عاطف، طارق، ، مصلح أخ مجدى أبو سنة، حسن صديق طارق، حنفي عتريس المرحوم الغالي الفرز قوي، محمد عشرة، خالد سمكة، ضيوف على مجدي أبو سنة، والفرقة بند شعبي أصيل من الدرجة العاشرة، يبدأ أحمد اللحم التحية قائلًا بقوة:

- " سلام يا عمنا على طول السلام، سلام حاير، داير علشان خاطر ناس الشرابية، والزاوية والناس، والناس ياعمنا اللي شرفتنا من غمرة، وحاسب يا سيدي سلام علشان خاطر خالد سمكة ، والرجالة اللي شرفونا من الطالبية ، شريبة الحشيش على الريق ، وعفاريت الأسفلت والنعش الطاير (عربة البيجو) ... " .

ويزخر المسرح بتوالي الجديد من الحضور، الذي سيتحول بعد لحظات إلى دراما دامية بين تلاحق

المشاهد، ويحضر آخرين للفرجة، والتطبيل والمؤازرة ، وتناول الطعام ، والكيف بوفرة ، حيث من واجبات الضيافة والكرم طبق الواجب. عبارة عن مستويات : كل مستوى له درجة. الأولى حبوب النوفاسيين، برونكلاز، باركونول، نوفوترل. كل بلطجي يختار ما يناسب ذائقته، المستوى الثاني : طبق به ندفات من الحشيش وسنن من الأفيون ، ويأتي رجل يضع الواجب وينصرف، ويأتي آخر يضع صندوق من البيرة أسفل أقدام البلطجية ، ويتناوب الجميع التناول من الطبق الأول ، والثاني بين خلطة الاستحلاب أو الاستنشاق والشم، أو في أكواب من الماء أو الشاي ، أو لفائف السجائر بعد تفريغها بلفها بماكينة ، أو يدوي ، أو خوابير، أو على الشيشة. كل على حسب دماغ البلطجي الذي يتناول الواجب.

في النهاية تُسلم النقطة أي التحية بعد دفع المال. ولا بد أن يستحضروا سيرة المرحوم سيد مراد العطرة البلطجي الكبير، ويرد مباشرة أحمد اللحم :

- " سلام يا عمنا لسيد مراد صاحبي ، وحبيبي ، وكرسي في

الكلوب ".

وهنا يعلو صوت النفخ بالمزمار لتستفتح شهية العراك المحموم، بإلقاء كرسي في إحدى الكلوبات برفعه لإطفاءه وكسره حتى تنغلق الفاتحة .هذا قانون التحية وختمتها ، ويدخل محمد عشرة وسط حديثه قائلًا :

- " حاسب يا عمنا سلام على طول السلام للشرابية، وناس الشرابية، مصنع الأدب، والحي أبقى من الميت يا عمنا، الله يرحمه ، كان صاحبنا ، وصديقنا وما تفوقناش بقى، احنا جايين ننبسط ".

خالد سمكة مهللًا ، وغاضبًا يأمر أحمد اللحم :

- " يا ابن الكلب يابن ... يا ابن... اضرب محمد عشرة بالطبنجة " .

أحمد اللحم يتخاذل، ويهاب الموقف، يخرج خالد سمكة فرد ناري صناعة محلية بداخله (خراطيش) الطلقات، الجاهزة للانصياع والانطلاق على من يأتيه الحظ الليلة، ويفزع جميع من في الفرح ، ويبدأ الكر، والفر، والعراك بالكراسي، وزجاجات

البيرة الخضراء، وينجو العريس والعروس بحملهما حملًا بالكراسي المستعارة من أحد البيوت؛ لإنقاذهم جميعًا.

يجري اللحم في غمضة عين، ويختبئ واقفًا في حاكورة بعيدة في أخر الحي منتظر عشرة، وهو يلاغي ويعاكس امرأة لعوب يهواها. يأتي عشرة مترنحًا، مدوخًا يلاحق أنفاسه من الفزع، والركض، يسأله اللحم:

- لماذا تأخرت ؟!

يجيب بترنح، وهو يلهث قائلًا:

- كنت مختبئ وراء الكشك.

يصرخ فيه:

- أي كشك ؟

بتراخ، ونفاذ صبر يجيب:

- كشك الكهرباء يا غبي.

ويستطرد بصوت مخفض: بنادي عليك. أحمد ..أبو سنة. ويمثل النداء واضعًا سبابته على فمه بهمس:

– أحمد .. أبو سنة.

يجيبه عشرة باستهزاء.

– ولماذا يا ناصح لم ترفع صوتك ؟!

ـ أنا كنت خائف صوتي يطلع يسمعني خالد سمكة يضربني بالفرد في دماغي.

أما مجدي أبو سنة صاحب الدعوة لأصدقائه الثلاثة ، أتى في أخر الليل مصاباً بلكمة في عينيه اليسرى، بينما خالد سمكة يطيح بسلاحه راكضًا خلف البحث عن اللحم ، والخائن عشرة. حتى ينفض الفرح. بحضور صاحب الفراشة بأن يلقي كرسي في الكلوبات الباقية ، ثم يقطع النور تمامًا عن الحي من أجل أن تنتهي معركة الزفاف..

الثلاثاء الحزين

في يوم عيد الأم الذي صادف حضوره يوم الثلاثاء، اليوم الوحيد الذي لا تستطيع فيه هي أو أخوها أن يحضرا إليها لرعايتها؛ بسبب كسر مضاعف أصاب وركيها، وتيبس العمود الفقري، ورغم إجراء عدة عمليات، وجلسات العلاج الطبيعي، لكن حالتها لم تتحسن، ورقدت على الفراش نهائيًا، حتى لا تستطيع الذهاب إلى تفريغ حاجتها، وقد زادتها السمنة علة، زاد من سوء حالتها المزاجية، وتتعصب لأتفه الأسباب، حتى تنهار في نوبات هستيرية، وهي ترجو الموت، والراحة من العجز والكساح.

والبامبرز الذي يسلخ تجاويف أفخاذها في ليالي الصيف الحارة، وفي الشتاء يزيدها بالسقعة والبرودة في انتظار تبديله، ورائحة البول والبراز تزكم روحها بالاشمئزاز، وكره العالم أجمع، حتى تستسلم لهذا الوحل، بدموع صامتة مدرارة،

وتسرع الابنة في طهارتها وتنظيفها، حتى تصلي وتقرأ في كتاب الله، وهي تستغفر الله، وتستعيذ من الشيطان الرجيم، ويأتي الثلاثاء، فتتنهد قائلة بزفرة امتعاض :

- بكرة الثلاثاء الحزين يا حبيبتي، لا إنتِ ، ولا فهمي ها تقدروا تباتوا معي.

فترد الابنة بحزن :

- نعم ؟!

ثم تستطرد، وهي تفتعل ابتسامة لتقول :

– ما هو أنتِ السبب يا أمي، لو كنتِ خلفتِ ثلاثة أو أربعة كانوا أخذوا هذا اليوم يا أمي.

– لا ، أبدًا يا بنتي، البركة والخير في القليل، ممكن كنت خلفت ثلاثة أو أربعة ، ووجعوا قلبي، وتخلوا عني.

فجأة تنتقل الأم للهزار، والتفكه ، وتسألها بخبث :

- هل أحضرتِ لي علبة الحلاوة الطحينية بالمكسرات كما أمرتكِ.

فتتصعب الابنة ، وتهز رأسها :

ـ ها... ها... أمي تمزحين، هي محظورة عليكِ يا أمي.

وتسترسل :

– ثم إني أكرهها، ألا تتذكرين ، ياه.. يا أمي ، بل أنا أكرهها جدًا ؛ لأنكِ كنتِ تضعين لي الدواء في ساندوتش الحلاوة بعد تفتيته ؛ حتى أبلعه ، وأسناني مخربة بها وبغيرها، وعملت عملية في الفك السفلي.

تتلهى الأم عن ذكريات ابنتها القاتمة السواد مع الحلاوة الطحينية، وتسترخي برأسها داخل الوسادة ، وتتحسر:

ـ إيه... إيه... يا بنتي ، ألا زلت تتذكرين ؟

ثم تملأ فراغات الاشتهاء، والرغبة الملحة لها في تلذذ الحلاوة ، وتقص حكايتها المأثورة بالمثل الشعبي : (كلي يا عين ، كل شيء تشتهيه ، بكرة يجيلك يوم الشهد لن تذوقيه)، مثل لحماتي – الله يرحمها – كانت مغرمة بتناول ساندوتش الفينو بالحلاوة الطحينية ، مع كوب الشاي باللبن الساخن، ها... ها... – الله يرحمها – ويرحمنا جميعًا. بغتة بعد إنهاء

الحديث، تزداد أخاديد وكرمشات وجهها مع ابتسامة واسعة، وقد أخرجت من درج الكمودينو خلسة علبة حلاوة صغيرة بمعلقة بلاستيكية، بينما ابنتها ذهبت إلى الجزء الآخر من الشقة ؛ لعمل شيء ما، حتى تحضر وتفاجئ بأمها قد وضعتها على حجرها فتصرخ :

- ماما، ماما، حلاوة يا ماما، كيف وصلت لكِ ؟!

فتعاجلها بنظرة استعطاف :

وحياتي يا حبيبتي، بكرة الثلاثاء الحزين، ولن يبيت معي أحد منكما، اصنعي لي كوب شاي باللبن، أرجوكِ يا حبيبة قلبي.

عاصفة التنين

الظلام يوحي لنا بالكثير، وتلك الدوائر، والأشكال الغرائبية تتشكل أمام عيناي البارقتين بالنظر؛ لأقتحم مسار الرؤية رغم هذا الظلام الكثيف. كان حبيب الظلام يأتي دومًا في تلك الليالي الغائبة منه الآن ، حينما كان يقترب ميعاد نومي ، وأقبع في الظلام الدامس لاستجداء النوم ، كان وكانت تلك الليالي الطويلة لسنوات طوال حتى حل الفراق اللعين. لغة الأحياء والموتى في مسار تلك الحياة المبهمة ، وأصبحت حياتي مظلمة في الصباح والمساء. كل على حال سواء بعد رحيله المفاجئ ، كظهوره المفاجئ أيضًا ، وبت في ظلامي أفرفر؛ كالدجاجة المذبوحة بأنين الخلاص ، بدون حديثه الشجي ، ودفء الحب ، والشوق ، والاشتياق ، والحنين. وكل هراءات الحب المعهودة لنا نحن البشر المساكين بدون حب، بدون رجاء، بدون ونيس، غيرأن نحتضن وسادة الوحدة المظلمة..

ظللت يومين ، وأنا أقبع في الظلام الفعلي دون إرادتي كما أفعل، بسبب انقطاع الكهرباء والماء، فقد حلت عاصفة أُطلق عليها (عاصفة التنين) الهوجاء، بأمطار غزيرة ، وبرق ورعد تمدد في مزالق المياة ، وأسلاك الكهرباء، حتى أغرق البلاد في حلكة الظلام المرعب. التقطت تليفوني لأقهرهذا الظلام الإجباري الجاسم على أنفاسي دون مشيئتي. تصفحت في مدونة (كورونا مصر). هذا الضيف الجديد المسمى. (جائحة الكورونا المستجدة كوفيد ١٩)؛ لأتابع كل ما يستجد من نصائح ، وتعليمات تأتي من منظمة الصحة العالمية ، وكان اليوم عن خطوات غسل اليدين بالماء والصابون للحماية من تسلق الفيروس إلى الوجه. عن طريق الفم والأنف والعينان ، بوقت لا يقل عن ٢٠ إلى ٣٠ثانية، مع مقترح غنائي عند الغسل بغناء جملة : (هابي برث دي تو يو). مرتين أو ثلاث ، حتى ينتهي الأمر صحيحًا.

في اليوم الثالث توقفت الأمطار، واضطردت للخروج مساءً ؛ لتجديد باقة التليفون ، وعدت سريعا طبقًا لقانون التباعد الاجتماعي ، وذهبت إلى الحمام مباشرة، وغسلت

يداي ، وأنا أردد : (هابي برث دي تو يو)، وكنت تقريبًا منهارة ، وخائفة من لمس أي شئ ، وبدأت عملية التطهير لكل شئ ، ثم جلست محبطة دون أن أحاول لمس شئ خاصة وجهي ، فربما ينتقل الفيروس سهوًا، وتمددت باسترخاء على أريكتي المفضلة أُجرب تفعيل النت في تليفوني حتى أهدأ، فلمحت على (الفيس بوك) خبر وفاة المطرب الأمريكي (كيني روجرز) عن عمر يناهز ٨١عامًا، وبجانب صورته أغنيتة الشهيرة (ليدي)، فأنصت إليها بشغف واستمتاع ، وفجأة انتفضت من هذا الذوبان الرومانسي ، وقد تذكرت أنني لم أطهر مقبض باب الشقة بعد حضوري، فذهبت فورًا ، وأحضرت منشفة الكلور بالماء، ثم هرعت إلى الحمام استدعاءً مبالغًا للوقاية أغسل يداي ، وأنا أردد بيأس : (هابي برث دي تو يو).

مســرح مصر

كانت تعمل في مجال النشاط الإنساني الافتراضي، وعنونة صفحتها على الفيس بوك، خبايا عالم افتراضي. تستقبل منه ، على الخاص ، كل الحالات المعنية بمشاكل نفسية، ويحتاجون إلى البوح والفضفضة، وتقديم الحلول لهنَّ وإذا تعذرت الحلول. تعمل على المواساة، والمحاباة، والصبر، والثقة بالله ورحمته. أكثر ما خاطر وجدانها، أن اتصلت بها صباح تليفونيًا، من مركز ناصر (محافظة بني سويف)، ترجوها أن تساعدها في أن يرى طفل من قرية مجاورة لهم مريض بالسرطان. وأمه أمّية ، وتجهل كل عوالم النت بما فيه العالم الافتراضي الأزرق. ذلك أنه يبكي راجيًا رؤية الممثل المسرحي المشهور(الفنان أشرف عبد الباقي) عن قرب ، أثناء العرض المسرحي حيًّا نابضًا دون المشاهدة التليفزيونية ، لأنه يعشقه ، وجميع فرقة مسرح مصر، فهو يريد أن يقترب منه ، ويحتضنه ويقبله ، وأنها ربما تستطيع ذلك من

خلال نشاطها الاجتماعي الافتراضي، وعلاقاتها مع أصدقائها الصحفيين والإعلاميين الممتلئة بهم قائمة أصدقائها وصديقاتها.

وأيضًا مستعدة بالتكفل الكامل لهذه الرحلة الفنية من أجل هذا الطفل الذي لم يكمل العاشرة ، ويعاني من المرض الخبيث. كانت صاحبة الصفحة الافتراضية الإنسانية، تحدثها من مكبر الصوت في المطبخ أثناء الطهي، واستمرت المحادثة لأكثر من ثلث ساعة وسط أبخرة الطعام، والأوعية ، والأواني ، وانتهت الإشارة التليفونية ، وأصابها وجوم حاد ثم فجأة ذهبت إلى السرير تسترخي في صمت، وتفكير عميق لهذا الطلب الجديد والغريب ممن تسمعهم، وتقترحه مشاكلهم من أصدقائها وصديقاتها الافتراضيين، ومثل لها حادثًا غريبًا لهذا لطفل، وجارته. والذين يستخدمون وسائل التواصل الاجتماعي وهم يطمحون ويحلمون ويسعون ؛ لتحقيق أمانيهم الخاصة، والصغيرة داخل مسرح الحياة على الشاشة الزرقاء .

تنويه: مسرح مصر، فرقة مسرحية، في محافظة القاهرة، مصر ،الفنان: أشرف عبد الباقي، ممثل مصري مسرحي مشهور.

فاكهة بشرية

كانت منجة وموزة من عائلة بطيخ ، من مركز كفر شكر القريب من مدينة بنها عاصمة محافظة القليوبية ، ولكن يعملان في إدارة معهد أزهري في مركز عاصمة المحافظة ، وكانتا منتدبتين من مديرية الشباب والرياضة إلى المعهد الأزهري؛ لقربه من مكان سكنهما. حياتهما موزعة بين حجرتين ، وصالة صغيرة بمطبخ ، ودورة مياه مرعبة التكوين من الشقوق ، ودهان الجير الباهت ؛ الذي يتساقط من السقف، علاوة على ماسورة المياة المتسربة على الدوام، بجانب مخرج مقعدة الحمام الأفرنجي.

خرجت موزة على المعاش ، وتعاني من الإمساك الشديد ، لدرجة أن فضلات الإخراج تتحجر في فتحة الشرج ، وتحتاج إلى حقنة شرجية ، وعملية جراحية في المسالك البولية ، تزوجت وطُلقت ولم تُنجب.

بينما منجة تزوجت وطُلقت ، وأنجبت أربعة أولاد ، شاب معاق، عمره ثمانية عشر عامًا، وهو الابن الوحيد الذي يسير بكرسي متحرك ، رغم أن بقية بناتها في صحة تامة، أكبرهن تزوجت ، والأخرتان في المرحلة الأخيرة من إتمام دراستهنَّ الجامعية.

منجة شخصية نكدية ، لأقل إساءة لها تدمع ، وتظفر الدموع في عينيها ، حتى وهي تبتهج، وتفرح ، وتضحك أو حتى في الحديث العابر دون مبرر، أو ربما يوحي داخلها بتذكر ذكريات حزينة أو سعيدة ، يستجلب دموعها سريعًا ، وغريبًا لمن ينصت لها، فيتعجب لأمرها بالفعل ، حتى أطلقوا عليها منجة أم دمعة.

كانت تطمح أن تعمل في المجلس القومي للمرأة ، وتتشدق وتتحدث كما تشاهدهن في التليفزيون ، وهن يصخبن ، ويُعبرن عن حقوقهن ، ويتألقن بالملابس والماكياج بين الجلسة ، والوقفة ، والابتسامات ، والجميع يلتقطون لهن الصور، ويقدمون الحوارات الصحفية ، والتليفزيونية ، خاصة المتميزات والناشطات منهن ، وتتمنى لو تتخصص بالدفاع

عن اقتناص حقوق المعاقين، مثل ابنها المكلومة من أجله.

ولكل من يشبه حالته بشكل أو بآخر، وفجأة تتحول الدمعات إلى دموع منهمرة ، وهي تتحسر على حظها الأسود من زواجها السابق لهذا المحامي المعتوه ، الذي كان يشتري كتبًا عن أخطار السحر ومميزاته ، ويحلم أحلامًا غريبة بالعفاريت ، ويدهن جسده بالزيوت المختلفة ، ويشاهد بعينيه المخبولتين على حوائط المنزل ، علامات الأعمال السحرية ، فيتهمها بأنها تعمل له عملًا ، ويضربها بالمنفضة التي انكسرت عدة مرات ، فقررت ألا تحضر منفضة إطلاقًا ، ولتحترق تنظيف المراتب والمفروشات ، التي تهبدها كل نهاية أسبوع في إجازتها من العمل الوظيفي.

فجأة أيضًا تنتحب وتولول على سوء حظها من عضو في المجلس القومي للمرأة ، إلى منجة أم دمعة ، ثم تنادي عليها موزة ، التي تقهرها أفعال أختها المجنونة ، من وجهة نظرها ، وتُشعرها أنها امرأة كارثية ؛ لأنها تعيش مع تلك المرأة عكرة المزاج على الدوام ، وهي عالقة في شوال فقرالواقع ، وسقف الأحلام الخيالي ؛ فيجعلها تعاني نفسيًا ، وتغرق موزة في

الأسى والحزن من أجلها ، فتداعبها بقولها :

ـ يا منجة ألم تستوِ بعد ؟!

فترد ، وهي ترسم إيماءاتها الحمقاء على شفتيها المبللتين من الدموع ، وتتنهد بسخرية :

ـ آه، لأ.. هه.. أصلي لسه على الشجرة.

أقوى من الزمان

كانت دنيا تعشق اللون الأصفر جدًا، وهي صغيرة ، كانت أغلب الفساتين بين الأصفر أو يشترك معها في ألوان أخرى، حتى أطواق رأسها والدوك ، ويستقطب حولها الهاموش ، وتزعق وتتضايق ، فتهشه ، حتى تتعب وتمل فتتركه ، ويصخب بها أطفال الحارة، وهم يضحكون على دنيا هاموش ، ويلتفون هائجين، مصرين على هش الهاموش المتطفل والتابع لسحر جمال ولون فساتين دنيا ؛ الذي يشج سمار جسدها الممشوق بوهج اللون الأصفر الزاهي والصارخ بانفتاحه على المواسم الأربعة اللاتي يفرضن حالته اللونية شتاءً خريفًا ربيعًا صيفًا. فهو ملك الألوان داخل روح وجسد دنيا بالذات، حتى تعاهد الهاموش الحبوب على اصطحابها فور خروجه من مأذق البرد إلى الربيع والصيف، وكأنه ينتظرها انتظار المحب والعائد إلى وطنه من رحلة غياب مؤقتة. ظل لونها المفضَّل لعامها الخامس والثلاثين، حتى منعتها أمها إجلال الفلاحة من مركز (سيدي

سالم) بمحافظة كفر الشيخ ، من ارتدائه بتعليل أنه أصبح لا يُناسب عمرها.

كانت إجلال تحكي لأمها عن مدى احتقارها لزوجها، وعدم رغبتها في معاشرته، وأنها تسير إلى الفراش كالبهائم التي تُساق للمذبح متضررة، ومجبرة. أخبرتها أمها، أن هذا حق وواجب، وأن السماء والملائكة سوف تلعنها، وما عليها غير الصمت، والتحمل والعفة.

لم تقتنع، لكنها أطاعت أمها فيما هو فوق احتمالها. وشعور خانق يجعلها تنفر، وتشمئز من هذا الجسد الجالب لها كل هذه التعاسة والشقاء. ووجدت انجاب طفلان هو طريق مختصر للخلاص منه، بالتواطؤ مع متاعب الحمل، ومنحتها رحلة الأمومة باعث تكافح فيه من أجل هذين الطفلين، فأحست بالحياة، والقدرة على مواجهة التحديات التي تواجهها. من أجل ابنة تقترب من العنوسة، وابن في عمر الثلاثين، ويعمل في محافظة (الغردقة)، ومتزوج من امرأة تكبره بخمسة عشرة عامًا دون علمها، روسية الجنسية من شرق أوروبا- تقريبًا أوكرانية وأنجب منها تؤامان : ولد وبنت.

كانت تريد أن تعود إلى موطنها الأصلي، لكن إجلال رفضت وأصرت على بقائهما في مصر، بل أخذهما منها للعيش معها في بيتها. وبين الشد والجذب تقاسما الطفلان، الأم تأخذ الولد وتعيش مع زوجها في مقر عمله، وإجلال تأخذ البنت لتربيها في كنفها ورعايتها مع خالتها العانس. وتدور الأيام ويشتد الخلاف بينها وبين زوجها بسبب المنزل، وهي تطلب حقها بالشراكة بينهما.

وبعد خصام طويل، وتعارك، ووساطة الأقارب والمعارف، تنال حقها، فما كان منه غير أن تزوج وأحضر غريمتها في النصف الذى نقل ملكيته لابنه الجديد من زوجته الثانية، وتتوه دنيا بين صراعات أمها وأبيها وأخيها وزوجة أبيها، التي تخشى على طفلها من إجلال وابنتها المتخلف عقلها بعد أن فاتها قطار الزواج، وقد رأت دنيا جالسة بجانبه وهو في عربة الأطفال يغوص في نوم ملائكي برئ في الجنينة الخلفية للمنزل ، التي تشبه حديقة صغيرة بها زروع من الياسمين والفل البلدي، وعندما حضرت زوجة أبيها ، أخبرتها دنيا بخوف أن ابنها سيختطف، وأنه كان يوجد شخص يحوم حول المنزل ، وقد جاء بقربه يسأل عن أبيه ، ولمن هذا الطفل المولود حديثًا ؟!

واشتعلت النيران بين الضرائر، واتهمت دنيا بأنها مجنونة، وبيت وقف، وتريد أن تخطف ابنها، فما كان من إجلال أن جذبتها من شعرها، وأسقطتها أرضًا وبركت عليها تصفعها على وجهها صفعات متوالية، ودنيا تجذبها وتجرها من تلابيب أكمام جلبابها، حتى سقطت، وصرخ الأطفال، وحضر الزوج ، وتم التصالح والتزام كل أسرة في شقتها، دون كلام أو حديث أو حتى سلام، كالأغراب المضطرين للعيش في منزل واحد من أجل الحياة لا غير.

بعد الفِراق تعود دنيا للذكريات بأحلام جديدة، تعاند بها، هوس الفقد، وشعور الشبق الذى يوجع قلبها المفطور، وهى تتخيل أنها تحقق أمنية ثمينة وغالية، تراود خواطرها بشغف. أن تسافرعلى سفينة كبيرة في رحلة طويلة، ولتكن من محيط إلى محيط تمخرعباب المياه المتدفقة في انهمارلا ينتهي، بلا حدود، بلا مسميات، تحت قبة السماء والشمس هذا الوجود الأول، الذي شيَّده الإله العظيم في بدء الكون. لتنغلق وتنفتح في وجه الأفق الواسع ، بامتداد البصر دون عناء، دون احجام، دون عيب ولا يجوز. كما فرضته عليها إجلال الفلاحة أنها كبرت ، وما عاد يليق بها ارتداء اللون الأصفر،حتى تنقذها سفينة الأحلام

كما تراها في أحلامها ، أو كما تشاهدها في الأفلام السينمائية ، وهي تتبختر وسط قمم الجبال والدروب والمسارب تتدفق وسط المياه الرغوة ؛ التي تتفجربقوة لتعصف بكل معارضين الحياة الدافئة داخل العيش في فتنة اللون الأصفر.

ثم تستقبل سفينتها الخيالية ، وقد ارتدت فستان أصفر طويل بدون أكمام، مفتوح على شكل حرف "V"، فيظهر من خلال فتحتة المطرزة بالدانتيل اللامع بداية الصدر وهي تستقر على نهديها السخيين ، وقد هزتها ذكرى تفاصيل تلك العلاقة الشاحبة، عندما أحبت في الجامعة شابًا طوال أربع سنوات، ثم تركها وتزوج بأخرى. وبعد الحنين واللقاء مرة أخرى تقول له :

- "لا تشغل بالك" فيهمس بنظرة قوية في عينيها، لينفرط الضعف ، ومرارة الخذلان ، والتخلي القابعة في قلبها. كخنجر مسموم لا يجف نزفه مهما مرت السنوات ، وأهدر عمرها كله. قائلًا بحب :

- لا زلت أشتاق لك.

- أنا أيضًا ...لكنك تركتني وتزوجت...

– لكني لا زلت أشتاق إليك...

– لكن لن أسامحك على الهجر والخيانة.

– لكني أحبك فعلًا.

– من فضلك لا تشغل بالك بي ، وارحل إلى الأبد ؛ إذا كنت لا زلت تحبني.

بينما هي جالسة على السفينة البيضاء ، وسط نسمات الهواء الهفهافة، والمياة الرائقة ، تحرسها السماء الزرقاء، والشمس العفية تطلق أشعتها الذهبية ، وتدندن بأغنية تحبها كثيرًا للفنانة (شادية).(أقوى من الزمان " لما كنا صغيرين"). وتنتظر صديقها الهاموش الحبوب أن يعود لأحضان لونه المفضل ، ليضوي، ويبرق باحتفاء أمام سطوع الشمس المتأجج ، ليتلون من اللون الأصفر إلى اللون الذهبي الملوكي .

تنويه : أغنية أقوى من الزمان ، للفنانة المصرية شادية / كلمات : مصطفى الضمراني. وألحان : الفنان عمار الشريعي. جزء من الأغنية : (رحت تاني للمكان / فاكرني بكل حاجة ، وبأحلى سنين هوايا / رحت تاني للمكان .. لقيت اتنين عايشين

نفس الحكاية ... يتغير الزمان ، يتبدل المكان / لكن يا مصر إنتي يا حبيبتي ذي ما إنتي / جميلة ذي ما إنتي / أصيلة ذي ما إنتي/ أرجعلك إنتي تاني/ يا صاحبة المكان/ يا أقوى من الزمان / الضحكة الحلوة إنتي / والحب الباقي إنتي/ وكل شئ يتغيرواحنا بنكبر ونكبر/ ونفارق بعضنا... وتبقي يامصر دايما طفل هيفضل صغير بنحبه كلنا... بنحبه كلنا).

تخيل رومانتيكي

اليوم حدث لي شيء غريب، وربما عجيب ، نادرًا ما يحدث معي أثناء الانهماك في العمل أو السير في الشوارع المزدحمة ، كان يومًا شاقًا كالمعتاد من الاستيقاظ مبكرًا للذهاب إلى عملي فى الإدارة التعليمية ، في محافظة الجيزة ، ومما زاد من شقائه أنني سأذهب مباشرة بعد العمل لزيارة أختي الكبيرة التي تسكن فى محافظة القاهرة في منطقة (حدائق القبة) ؛ لتهنئتها على حضور حفيدها الأول من ابنتها الكبيرة ، ويُسمى آسر. يا له من اسم جذاب ومؤثر فى نطقه ، ووجوده بين أسماء أفراد العائلة ، بأسمائهم الكلاسيكية ، وتبدلت مع موضة الأسماء الجديدة ؛ التي يختارها شابات وشباب اليوم ، وقد أصبحت انتقاء تلك الأسماء مثار جدل ، ونقاش بين الزوجين ، وأفراد العائلة.

كالعادة سرت بين زحام المارة الغادين والقادمين ، وكأنهم فى سباق دموي مع الحياة ، ودلفت بسرعة لأركب

الميكروباص المؤدي إليها ، وللأسف رغم أن هذا يحدث كل يوم ، وكل لحظة في الـ ٢٤ ساعة من حساب الزمن التقليدي، ونحن البشر اعتدنا على هذا التكرار المقزز، لكني ضبطت نفسي حانقة ، ومشمئزة من هذه المفردات التي تبعدني عن خيالاتي المحبوبة ، والقريبة إلى نفسي داخل عالم خاص بعيدًا عن أصوات جميع أنواع المركبات والزحام ، ولغط البشر، والباعة المستمر، والمزعج ، وعلى غفلة من استغراق شعوري بالتقزز.

فجأة امتعضت ، وإحتقرت نفسي ، ومن حولي ، وإرتفع صوتي يعلو على السائق ، لتجاهلنا داخل العربة ، بينما هو يحتسي الشاى من غرزة فى الموقف ، رغم اكتمال عدد الأنفار، ثم تراجعت ، بعد أن حمل عني المهمة شاب جالس بجانبي ، وإن كان عقلي هو الذى تراجع ، وليس تولي الشاب المهمة عني ، وهممت أسأل نفسي بهمس ما بي ؟ تجاوب معي أيها القارئ لقصتي ، وشاركني أيضًا السؤال ؛ فنادرًا كما أخبرتك فى بداية القصة ما يحدث لي هذا ، ضحك القارئ العزيز، وقال ما بك يا امرأة ؟ إذا أكمل لا مناص من ذلك ... أولاً اسمح لي صديقى القارئ.

أن استاذن هذا الشاب الأنيق ، والمهذب أن يستبدل مكانه بمكاني ؛ لأجلس بجوار الشباك ؛ لأستنشق بعض الهواء ، ربما يرفع عني بعض حر الصيف الموحش ، فقطرات العرق اللزجة تتخلل بوقاحة إبطاي ، وتنساب ما بين فخذاي الممتلئتين والملتصقتين ، وزمة التجاور ، تزيدهما التصاقًا ، وضيقًا يملأ روحي بهذه الجلسة المفروضة على كل امرأة دليل الاحتشام ، والأدب. فسخرت تبرمًا حتى الجلسة يفرضونها علينا ، ياله من مجتمع ذكوري بطريريكي ظالم يفرض سيادته ، وقانونه ليسجن المرأة داخل سجن الرجل المتعسف ، الأناني . ألا يتحدثن هكذا النساء المختصات بالدفاع عن حقوق المرأة ، لا أعرف ؟! لست مناضلة. إنما مجرد امرأة تافهة ، المهم نعود إلى قصتنا أيها القارئ العزيز، فتلك الأمور بعيدة عن أذهان من مثلنا من السيدات ، ابتسم الشاب الوسيم ، وبكل ذوق وخلق رفيع :

اتفضلي يا مدام ، ولا يهمك ، المهم راحتك ، وابتسم بلطف ، هدأت روحى من جراء هذه الابتسامة اللطيفة ؛ التي أشعرتني بقوة الأنوثة لدي أمام هذا الشاب الوسيم ، بل وأعاد لي احترامي لذاتي بعد أن احتقرتها لوقت. دون ذنب اقترفته ، وفتحت تلك الطاقة الزجاجية على أخرها ، وقد

سار الميكروباص ، لتهب عليَّ نسمات منعشة ، وبدأت كل الأصوات تبعد عن مجال ذهني ، وأدخل إلى غرفة خيالاتى لأستكمل حواري الداخلي معك أيها القارئ. حتى أخبرك بما أشعر به الآن ، وقد رأيتني على غفلة أرفع نظري إلى السماء ، فرأيت كتلاً من السحاب الأبيض تقاربت لتشكل طلة نورانية فاتنة ، أو ربما لتحصل على دفء أكثر بهذا التجاور بين ندف السحاب ، ويتناسق فى مساحات توحي ، بأن يد فنان واسع الحس أجاد رسمها فى لوحة لا نهائية للسماء بلونها اللبني ، والمائل للزرقة الصافية ، وينتشر في نواح واتجاهات أخرى متباعدة ، ولكن بانسجام وتواءم أيضًا ، ظللت أتأمل تلك اللوحة الطبيعية ، وكأنني لم أشاهدها من قبل ، وتعجبت لروحي الهائمة برومانتيكية لخزعبلات عقلي الباطن. بل وحكمت حكمًا خطيرًا : أن السحاب أجمل من السماء.

أصدقكم القول يا قرائي الأعزاء عن هذا الإحساس الجديد عن مشاعري نحو السحاب والسماء ، وكيف لم أدرك هذا طوال عمري ؟ ، وأعتقد أنتم أيضًا لم تدركون هذا معي بعد ؟، حتى تسلل السلام إلى روحي ، والهدوء إلى عقلي ، وكأنه أصبح كالصفحة البيضاء ، واشتعلت جذوة الأحلام ،

والأمنيات ، وأنا أتابع أشكال السحاب ، ولمحت واحدة منها تتمرد بالانفصال عن شقيقتها ، وتذهب إلى اتجاه آخر؛ لتشكل جزءًا خاصًا بها استقلالاً وحرية عن تبعيتها للكتلة القديمة ، وزال امتعاضي ، بل احتقاري لذاتي ، وللآخرين ، وشعرت أنني أصعد إلى السماء ، وأتجول بين السحب البيضاء البديعة ، وأتبختر فرحًا وانبساطًا لأعرف سر طبقات السماوات السبع ، وكنت قريبة من رب السماوات ، والأرض ، فترجيته قائلة :

- يا إلهي ... ألا ترحمني من القلق ، والحيرة ، ونفسي المشتاقة ؟! فأنا الحبيبة العاشقة للأمير؛ الذي يأتيني فى المنام ، وأحلام اليقظة ، وأنا فى انتظاره ؛ ليرفعني على جواده ، ويركض بى إلى أرض الأحلام ، أو إلى السماء عند رفيقاتي ، ورفقائي من السحب الجميلة ... يا إلهي ألا تفعل لي تلك المعجزة كما كنت تفعلها مع رسلنا ، وقديسنا ؛ لتبرهن بها على وجودك ، وأرى حبيبي الأمير ...

هكذا قرائي الأعزاء انتهت قصة هذا التخيل الرومانتيكي ، الذى نادرًا ما يحدث لي كما أخبرتكم في البداية ...

عائشة من دارفور

كم هو مؤلم أن يقول لك الآخرون " كوني قوية .. كوني قوية " ، وليس لديهم أية فكرة عن صعوبة ما أمر به أو أتحمله. بهذه العبارة المؤثرة . تفوهت عائشة السودانية بغضب عارم ، حتى تمنع دموعها أن تنهار، وهي تستحلفني أن أرحم ظروفها ، وأقف بجانبها ، ولكن كيف لي أن اساعدها ، فعائشة وافدة سودانية من دارفور ، وعند قيام هذه الحرب البشعة في ٢٠٠٣ م . بسبب نزاعات قبلية وعرقية. مات زوجها عام ٢٠٠٩ م ، وأحرقوا كل شيء ، وبالكاد استطاعت أن تهرب بأولادها الثلاثة . دونما أي أوراق أو أغراض ، ودخلت مصر عبر رحلة شاقة بمساعدة المفوضية لها ، ولولا رحمة الله لمات منها الأطفال الثلاثة المقيدون لدينا في المرحلة الابتدائية : الصف الثالث ، والخامس ، والسادس ، وظلت الأم المكلومة بغربتها ، وتشردها تكافح . فعملت كل الأعمال المتاحة لها من خادمة في المنازل ، لبائعة في المحلات ، لعاملة نظافة في

حضانة ، حتى أبدعت وتفننت في فن التجميل ، وفرضت موهبتها داخل أحد محلات الكوافير في مدينة ٦ أكتوبر، وخاصة في فنون صنع الوشم ، والتاتو، والرسومات الغريبة ، والبديعة للسيدات والفتيات بالحناء وغيره، على الكفين ، والبطن عند الصرة ، وكعوب القدمين ، وكل مكان يرغبن فيه حتى الأماكن الحساسة والمثيرة في المرأة ، و بمهارتها ، وإخلاصها ذاع صيتها فى العمل.

فى تلك المدينة التابعة لمحافظة الجيزة لمدة خمس سنوات. حتى استطاعت أن تعمل فى سنتر كبير في وسط البلد فى محافظة القاهرة ، ومن ثم نقلت السكن ، وأصبح لزامًا عليها نقل أطفالها الثلاثة إلى مدارس قريبة من العمل ، والسكن الجديدين.

تربت على يدي تستجديني :

– ألا تساعدينى يا أستاذة. أسحب الملفات ...

– لكن يا عائشة لابد من شهادة وفاة الأب ، حتى تستطيع الأم حيازة سحب الملفات ، ونقلهم كما تشاء إلى مدارس أخرى.

وانهارت أخيرًا ، وبكت بكاءً مريرًا ، وهي تقول :

ـ ياربي ... كيف تصدقوني يا ناس ... ارحموني يابشر ... ألا تعلمون ماهي الحرب ؟! ... ارجوكم ارحموني ... الحرب قتلت زوجي ، وأحرقت الأوراق ، وهدمت بيوتنا ، وشردتنا ، وفرقتنا عن أهلنا ، وأحبابنا ، ووطننا ... وبالكاد أنقذنا أرواحنا ، وأرواح أطفالنا .

الحلق الأسطوري

حبيبي : لو كان معي نقود كثيرة ، كنت أحضرت لك شيئًا من الذهب تضعه فى يدك أو فى عنقك حتى لا تنساني أبدًا ... وتظل تتذكرني كلما لامستها سهوًا أو اشتقت لحديث بيننا كان عذب المذاق ، ولا يذوب مع أضغاث الأحلام والأمنيات داخل أرواحنا ياحبيبي الغالِ .

حبيبتي : - ما ذاك الحديث ... يا حبيبتي ... حب الأشخاص ليس بالقيمة المادية ، ربما شيء بسيط ، وليس غالي الثمن ... ويبقى للأبد لأنه ممن نحب ونعشق ...وأنت وجودك فى حياتي بكنوز الدنيا .

حبيبي : - لا، إطلاقًا ... إطلاقًا حبيبي. هناك فكرة خاصة بي عن اقتناء شيء ذهبي ... لا تظلمني حبيبي . عليّ أولاً أن أحكي لك عن قصتي مع الحَلَق الذى يوشوش فى أذني ..

حبيبتي : – أي حلق يوشوش فى أذنك هذا ... حبيبتي .

حبيبي : – وهذا مغزى فكرة اقتناء الذهب.

حبيبتي : – ما هو ؟

حبيبي : – نعم ... أمي من عدة سنوات في يوم عيد ميلادي ، ألحت أن نذهب معًا لشراء حلق ذهبي ، واختاره بذوقي الخاص ، دون أي تدخل منها غير دفع ثمنه ، وأخذت وعدًا مني ألا أفرط فيه أبدًا ، أو أخلعه مهما حدث ، وتمر الأيام ، وأنا على وعدي ، حتى أحيانًا تتعثر ظروفي ، وتضيق أمور الحياة أمام عينىَّ ، فلا أجد سبيل للخلاص إلا ببيع الحلق ، فأنساق جرًا إلى محل الصاغة.

لكن أتذكر وعد أمي بتحسر، وأسمع صوتها يهمس في أذنىَّ بالوعد ، ومن ذاك الوقت لم أعد أجرؤ على التفريط به ، مهما ساءت الظروف ، وأظلمت الدنيا فى وجهي ، وكلما اشتقت إلى أمي ، أُلامس الحلق ، الذي بات كالتعويذة تحميني من كل سوء أو شر أتوقعه ، وقد تمثل صوت أمي داخله لايفارقني ، هذه الفكرة الأسطورية أوحت بها إليَّ أمي العبقرية التي جلبتها

ببساطتها ، وروحها العفية بالحب و الحياة ، دون أن تقرأ كتابًا مثلما قرأ كل العباقرة ، أو مثلما كُتب من كلمات عن الحب ... أدركت حبيبي فكرة قيمة اقتناء الذهب عند أمي ، فالذهب ليس فى قيمته المادية ، إنما فقط فى مدى جودته وقدرته على البقاء لأطول فترة ممكنة ، وهذا طبعًا بغض النظر عن قيمة الجواهر الأخرى التي لا نعرفها تمامًا حبيبي .

لعنة (صنمو)

توجد في محافظة أسيوط ، قرية تُسمَّى صنمو تتبع مركز ديروط ، تسعون في المائة من سكانها مسيحيون ، وبها إرهاب وعنف شديد، فالطفل من سن الثامنة يحمل سلاحًا، وأحيانـًا النساء، وخاصة الكبيرات في السن، يعرفنّ استخدام السلاح، المُعلق على الحوائط ، وتحت الأسرّة ، وفي كل مكان.

وفي إحدى السنين، إحترقتْ هذه البلدة الملعونة عن كاملها، من حرب شعواء بينهم وبين جماعة الإخوان المتطرفة ، والحكومة المتمثلة في المأمور، ونقطة الشرطة ، وجنودها بكاملها حتى أهم رجال البلدة ، لم تستطع أنْ تفعل شيئـًا حيال ذلك بتاتـًا.

ومع الوقت اعتادوا على ذلك ، وتمّ عقد اتفاقيات ومعاهدات صلح عديدة أهم شرط فيها هو حماية الشرطة ورجالها ضد أي عدوان، وانقلب الأمر ليُصبح رجال الشرطة

في حماية أهالي البلدة ، وهذا من سخرية الأقدار، مما يحدث في بلدنا مصر؛ ففعلًا مصر أم الدنيا ، وأم المعجزات.

كان يوجد رجل يُسمى (حيا الله) ذات شخصية قوية ، ونظرة نفاذة في فهم البشر وأحوال الدنيا، وبه خفة الدم المصرية المعهودة في طبيعة المصريين عامة ، وإنْ كانت تزيد عن الحد في هذا الرجل الحاذق بشكل خاص ، ورغم أنه أميَّ ، لكنه يتقن التحدث بخمس لغات من علاقاته المتنوعة ، والمتعددة مع الأجانب من مختلف الجنسيات ، حيث أنّ تلك البلدة مشهورة ببيع الآثار المصرية ، بل ودُعي أكثر من مرة لزيارة فرنسا من صديقه الحميم رضوان ؛ الذي أطلقه عليه (حيا الله) من حبه الشديد له ، بل وقام الآخر بإشهار إسلامه. وتزوج من إحدى بنات البلدة الجميلات.

وقد اعتاد (رضوان الخواجة) أنْ يعيش في البلدة شهورًا عديدة مع صديقه (حيا الله)، ولأنّ القرية بكاملها من مخارج وطرق وشوارع مرسومة في عقل (حيا الله) بدقة متناهية، يبحث وينقب بحذر حتى يصل لمراده. وفي إحدى المرات وصل إلى (نبات قوي) وهو ملك فرعوني أسطوري اخترعوه

رمزًا للحيوان، وينتمي إلى عصر تل العمارنة ، وهو عبارة عن أربعة قنينات : (النسر- الصقر- البومة -العرقوب). وطبعًا صديقه الفرنسي الأصل رضوان ، هو ما شرح له مدى قيمة تلك الآثار، فصنع بها ثروة أصبح بها سيد الكل على قريته ، والقرى المجاورة وذاع صيته واشتهر بفرعون ديروط كاملاً، وقد تحول إلى أسطورة منذ مولده.

(حيا الله) اسم غريب ، ليس له مغزى واضح ، ولكن ما الداعي إلى هذه التسمية غير سبب لابد الحكي عنه : أبوه كان لا يُنجب إلاّ البنات ، أنجب ثماني بنات ، ومات منهنّ أربع.. وحزن الأب حزنـًا شديدًا، فهنّ كنّ جزءًا منه حتى ولو كنّ بنات ، حتى جاءه (حيا الله). وأطلق عليه هذا الاسم الغريب ، وأحضر له التعاويذ والأحجبة لتؤمنه وتحرسه من أي شر أو عين حاسد.. والعجيب أنه كان جميلًا للغاية جمالاً أقرب الشبه بشدة إلى جمال بناته اللاتي بقينَ على قيد الحياة. وحرص الأب بشدة على رعاية ابنه الوحيد، الذي دفع له حزن العالم أجمع ، وكذلك دفع فدية لا مثيل لها بفقدان بناته الأربع وحسرته عليهنّ ، وقلبه المكلوم بوجع دائم، وانكساره أمام أفعال القدر. عافر، وقاوم وبدلّ الحزن بالفرحة بابنه (حيا الله).

الذي ينمو ويكبر بذكائه، ومحبة الجميع له ، وشطارة التاجر، وخفة الدم الزائدة، ووجهه الباسم المصاحب له في أصعب المواقف، وأقوى المصائب، ونفسه الشامخة وعقلة الكبير، وقلبه الفولاذي ، الذي عوّض الأب عن كل حسرة أو ألم، ومع كل هذا فإنّ (حيا الله) به حنان عارم لكل من حوله ، وينصت للجميع فكان بحق كالفرعون لا يحب قريته الصغيرة صنمو فقط ، بل ديروط وأسيوط كاملة، وشاء القدر الذي يفاجئنا دائمًا بغرائب الحياة، أنْ يتزوج من ابنة رجل اسكندراني، جاء لاجئـًا له ؛هروبًا من حكم عليه بالإعدام في جريمة بشعة.. حيث قتل زوجته، فعلها في الإسكندرية، وأنجب حيا الله منها ثلاثة أولاد، أطلق على البكري اسم صديقه الخواجة الفرنسي الذي أسلم. رضوان الإبن كان شبيه والده (حيا الله) في كل الصفات، وإنْ كان يفوقه في القوة الجسدية.. كان أقوى من ثور الساقية، واشتهر بساعده القوي، وعضلات من حديد، حتى أنّ أصحابه في إحدى المرات أقاموا بروح الفكاهة والممازحة مسابقة بينه وبين ثور الساقية، من يلف أكثر : الثور؟ أم رضوان؟ فكان رضوان الأقوى.. وهتافات الأصدقاء.. وأهالي البلدة تهتف رضوان أقوى من الطور.. رضوان أقوى من الكل.. يعيش

رضوان .. يعيش رضوان.

ومرّ الزمن، وسافر رضوان فجأة نداءً لروح الصعايدة المهاجرة والرحالة، الذين يشتهرون به في جميع بقاع العالم سواء داخل مصر أو خارجها، إلى رأس سدر في سيناء، وعمل ميكانيكي، وفتح ورشة صغيرة في مكان خال ومهجور على الطريق.. كافح وعافر الوحدة بالعمل، وبنى مسكنه بساعده القوي، حتى بدأ يُعرف بين البلاد المجاورة، واستجلب العمال الذين بدأوا يعمرون المكان بالزواج والإنجاب، ورضوان يدفعهم ويساعدهم بكل قوته الجسدية والروحية ، حتى أصبح سيد المكان ، فقد كان هو أول من حضر وأول من بدأ الحياة ، وشارك في بناء حياة الآخرين، وتوطدت بالتالي العلاقات مع كبار المسئولين من أعلى مسؤول مثل رأس المحافظ ، ومدير أمن المحافظة ، إلى أصغر موظف..

وأصبح لا شيء يقف أمام ثراء ونفوذ ومحبة الناس وسلطة رضوان. لا شيء، بل وتزوج إحدى بنات العائلات الكبيرة من عرب سيناء، وأنجب أيضًا ثلاثة أولاد.. وأطلق على البكري (حيا الله) تيمنًا بذكرى الأب، الذي ذهب عنه، ونساه ونسى

قريته (صنمو) تمامًا.. حتى جاءه مرسال من أبيه، حزينـًا، متألمًا لمرض شديد أصابه ، ويطلب رؤية ابنه قبل موته، وذهب على الفور شاعرًا بالندم ، ويكاد يبكي من الفراق الطويل عن أبيه ، مع انشغاله وانهماكه في صنع حياته الجديدة.. ونجحتْ حيلة الأب ، التي لم تكن كاملة الصدق.. هو مريض ، لكنه ليس مرض الموت ، كما ادّعى ، وأقسم الأب أنْ يظل مع الابن الغالي، أيامًا لا تُعد حتى يشبع منه، ويستمتع بمجلسه ، وهيبته الجديدة ، وكان لا يُفارق ابنه الحبيب لا في النوم ، أوالطعام ، والشراب، حتى شُرب الحشيش والأفيون الذي كان الأب يُدمنه، أشرك فيه ابنه، حتى لا يفارقه في هذه المتعة.

وفي إحدى المرات ، وأثناء التسامر، وممارسة التمشية في طرق القرية الوعرة والضيقة ، ذهبا إلى الخرابة القديمة ، التي كان يلعب بها ، ثم رضوان من بعده، وأثناء الضحك وتخيل الذكريات القديمة ، مرّ كلب أهوج سريعـًا للغاية ، فانتفض رضوان للمباغتة جدًا.. وكان ينظر إلى خزان (صنمو) الملعون بإمعان، هكذا كان يُطلق عليه أهالي البلدة ، وفجأة وقع رضوان في هذا الخزان بكل عبث، ومات رضوان.

كان ذاك الخزان ؛ هو لعنة بلدة (صنمو) ؛ فهو عبارة عن فتحة كبيرة وواسعة بها عمود على شكل (cross) خشبي ، كل مربع به دلو كبير، يملؤوه بالمياه للاغتسال ، أو أي ضرورة ، ويتم هذا برفع الدلو بحبل سميك ، ووضع طوبة ثقيلة في الدلو ، ثم يدفعون العمود الخشبي ، حتى يندفع تيار الماء ويمتلئ ، وتمرر المياه إليه من خلال ثقب في الخزان، ومكانه يتوسط الخرابة القديمة.. قال الأهالي أنّ به عفاريت وجان تلتهم أي أحد يقترب منه بشدة ، أو يتمعن النظر في عمقه ، حيث تقطن العفاريت في القاع ، فتناديه ، وتأخذه معها ، وإليها في قاع الخزان الملعون.

وطن .. كان

(سفرني ع أي بلد ... واتركني وانساني ... بالبحر.
ارميني ولا تسأل ... ما عندي طريق تاني).

من أغنية تتر مسلسل سوري.

أثناء عملي الوظيفي الروتيني ، كموظفة إدارية في شؤون الطلبة. أنتظر كراسات الغياب لليوم الدراسي ؛ لأفرغه في دفتر اليومية ، وخمسة سلوك ؛ التي بها أسماء جميع الطلبة ، والطالبات مقسمة إلى فصول دراسية ، أشغل وقتي بتصفح النت على موبايلي. لحين حضور الكراسات من الفصول ، بقراءة الأخبار في الساعات الأولى من صباح عادي مثل كل يوم ، وغدًا ، وبعد غد.

قال إبراهيم الرقاوي الذي ساعد في تأسيس (مجموعة الرقة) (سوريا تُذ بح بصمت). تلك المجموعة تعني بتسجيل

تجاوزات تنظيم داعش في المدينة ، وتسجل الآن : أن عناصر التنظيم مهووسون بالجنس. " وتابع الرقاوي في تصريح نشرته شبكة (سى إن إن). أن بعض عناصر داعش لديه زوجتان ، أو أكثر، ومع ذلك يحاول البحث ، وإيجاد عبيد من فتيات الطائفة الأزيدية ، وأضاف أن الرقة أشبه بسجن كبير ، النساء دون سن ٤٥ لا يسمح لهن بمغادرة المدينة... في الوقت الذي تم تسجيل ٢٧٠ حالة زواج قسري. أجبرت فيه فتيات بالزواج من عناصر التنظيم. " فأشار الناشط " : خسرت حياتي ... لامستقبل لي ، لا أملك شيئًا ، ولا أريد ذلك لي أو لمدينتي ، والظروف تدفعني للقيام بذلك ... أنا لا أريد الشهرة ، ونحن نحاول إنقاذ مدينتنا ، خلال الشهرين الماضيين قتل ٤٠ شخصًا على الأقل في الرقة. على خلفية تهم مثل : القتال بصفوف الجيش السوري الحر. ولكون الشخص مِثلّي الجنس أو ماشابه ....

... واتهامات أخرى ، وأخرى ، تقتل الآخرين بدون منطق أو مبرر .

إن كنت ناشطًا في مدينة الرقة ؛ فإن ذلك سيقودك حتمًا إلى الموت.

المصدر : قناة العالم : ٢٤ / فبراير/ ٢٠١٥ م / الموافق الثلاثاء.

خبر تال : نزوح ٦٠ ألف مواطن سوري من الحسكة من بطش تنظيم داعش الإرهابي. أصمت تماماً ، وأصاب بامتعاض شديد، وتأتيني رغبة في القئ .

يباغتني زميلاتي في العمل بعد أن طال صمتي غير المعتاد ، وقد تدفقت دماء حارة داخل جسدي ، وطفحت على ملامح وجهي إشارات ضيق ، وتكدر واضح . فصمما على إضحاكي بعد أن لاحظا التجهم ، وإحداهما تسألني بمرح :

- مالك يابت ... وشك أصفر كده ليه ... حد مات ليكِ ، ولا إيه فى النت.

لم أستطع الرد فصوتي مخنوق. لا أستطيع التفوه بشئ ؛ كمَنْ حطت عليه مصيبة، وفجأة ودون توقع. يضعن جزء من الطرحة على نصف وجهيهما دون العينين ، مثل ما يفعلن بعض السوريات المتواجدات في مصر بكثرة ، وأبناؤهم المدرجون لدينا في الصفوف. تحت بند الوافدين بصفحة خاصة بهم في السجل الكبير، وفي الإحصاء العام لعدد التلاميذ الإجمالي ، ويبدأن في تقليدهن :

ـ أنا من أدلب ، وتكمل الأخرى : أنا من حلب. كيف حالك يا أختي ؟ بدك شيء مني يا أختي ؟

فضحكت نصف ضحكة لعبث القدرعن ماذا كنت أقرأ ، وعن تمثيل زميلاتي لحديثهن ، حتى تختم الثالثة هذه المسرحية المتقنة الصنع ، بمشاهد مرتبة دون أي قصد منهن. قائلة بحماس ، وبرطانة لغوية كمَنْ يُلقي خبرًا صحفيًا :

– ألا تعلمون ... أمس تم تحرير محضر مطول لحالات تحرش جنسي فى سطوح المدرسة بعد اقتحامه ، وفتحه عنوة بمزلاك حديدي. أحضره أحد ثلاثة طلاب مصريين من المرحلة الابتدائية ، وولدين سوريين من المرحلة الإعدادية ، وتم ضبط الأولاد متلبسين ، و فصلهم من المدرسة ، وإحضار أهالي الطلاب لبدء التحقيق ، الذي صعدته المديرة إلى الإدارة ، ومنه إلى مديرية التربية والتعليم بمحافظة الجيزة .

بعد حديث الأخيرة توقف الضحك عنا جميعًا ، وتحول المشهد إلى دراما سوداء ، حتى لاحظت وجود بعض كراسات الغياب ، قد جاءت أثناء الحوار، والانصات سهوًا، فبدأت أدونه بكل حزن .

رحلة إلى مسقط رأسي

وأنا أصعد الدرج إلى منزل الطفولة ، والشباب ، والشقاوة ، بعد مضي سنوات العراك مع الحياة ، والانتقال إلى محافظة القاهرة مع زوجي حيث عمله ، وإن كان من نفس المحافظة ؛ لذلك فضلت أمي رفع الدعوى القضائية في محكمة بني سويف حرصًا منها على حفظ حقي قانونيًا في الشقة ورعاية الطفلين؛ لذا عدت مرة ثانية إلى مسقط رأسي لحضور جلسة محكمة الأسرة، لاستخراج ورقة الحضانة والولاية التعليمية لطفلي اللذين يمكثان معي الآن بعد طلاقي.. وقبل أن أرن جرس باب الشقة في الطابق الثالث، فتحت لي بابتسامتها الوديعة التي أفتقدها ، وتنساب بينها كل أوجاعي، وتكاد تصرخ روحي : آه يا أمي الغالية، ليتني أعود طفلة في حضنك، ولا أفارقه ، ولا أنمو وأكبر ؛ كي لا تدهسني أمور النصيب ، والحظ العاثر الشديدة الوطأة عليّ يا أمي... كيف لي أن أجتاز

دروب تلك الحياة الوعرة... كيف بالله عليكِ يا أمي ؟ بربك عودي بي جنينًا في أحشائك.

عاجلتني قولاً بعد حضن طويل ، وعناق حار جعلني أشم رائحة الطهي ؛ الذي تعده في وقت مبكر بعد أدائها صلاة الفجر حتى نتناوله غذاءً شهيًا سريعًا معًا قبل أن أسافر عائدة إلى طفليّ في وضح النهار؛ معللة هذا بأن (النهار سترة يا بنتي ، والليل عتمة وغفلة... ربنا يبعدنا عنها) ، ثم قالت بعفوية :

- حضرت في الميعاد كما أخبرك المحامي ، وحضرت الجلسة طبعًا... خلاص... تجاهلت نبوءتها بعتاب سريع :

- لماذا يا أمي تطفئين نور السلالم؟.. كدت أقع يا أمي.

ثم تذكرت الإجابة عن سؤالها :

- لا يا أمي لم أذهب إلى المحكمة بعد... جئت من موقف الميكروباص إلى هنا مباشرة ؛ لأدخل التواليت ، وأتبارك برؤيتك قبل أي شيء.

ثرثرت ، وقالت ببعض العصبية :

- طيب يا بنتي الحقي وقتك.

هرعت بعد الخروج من التواليت إلى الباب ، الذي ما زال مفتوحًا، وقبل أن أغادر درج الطابق الثالث. التفت أشاهد ابتسامتها الملائكية على وجهها الأبيض البشرة المنحوت بتجاعيد الشيخوخة ، كالأخاديد محفورة على الوجنتين بانتفاخات ؛ كالمخدات تحت جفني عينيها تمرق بنور براق رغم الوهن ، والضعف البادي على الوجه النوراني ، شعرت بوجد وحزن لشيخوخة أمي ؛ التي داهمت أفكاري في غمضة عين ، واغتمت نفسي رغم فرحتي بلقائها.

إن ظلال هذه الروح التي أعشقها مسها العجز والتآكل، وبالتدريج سيتلاشى هذا النور الوهاج من عينيها، وتحمل روحها العفية خمود مدفأة فارقت الحياة بهجران أحبابها، ولاحقتني الهواجس كالأشباح ، وأنا أركب التاكسي الأبيض، وتسمرت نظراتي بالدهشة التي لاحظتها في مرآة التاكسي ، وتساءلت في رعب صامت كيف ستفارقينني يا أمي ؟ هل ستموتين مثل كل الأخريات والآخرين؟ هل يا إلهي ستفعل هذا أيضًا مع أمي ؟ وامتعضت ، وفجأة تجدد شعوري بالاستياء. ثم حضرتني فكرة عن استفسار جذبني عن مدى تحقيق أمنيتي تلك ، هل أستطيع مثل أجدادي الفراعنة العظام

تحنيط جسد أمي ، وتخليدها في صندوق زجاجي نائمة مثل الملكات، وأضعه في حجرتها، وكلما اشتقت إليها أحضر؛ لأراها وأتحدث إليها ، وجسدها ماثل أمامي في زينة وأبهة وعظمة ، مثل جدتي الفرعونية الفاتنة نفرتيتي أو الأخريات؟ أفقت على نداء يبدو أنه تكرر قائلًا بتأفف :

– هي دي المدرسة اللي فيها المحكمة يا مدام ؟

– مدرسة إيه ؟ قلتلك محكمة الأسرة يا أسطى .. إنت نسيت ؟

ضحك ، وقال بتهكم :

ـ هو إنت مش من هنا يا مدام ؟

واستطرد مفسرًا :

ـ المحكمة اتحرقت في أحداث رابعة العدوية ، ونقلوها إلى المدرسة ، لغاية ما يكملوا بُنا المبني الجديد... وختم حديثه....

أي خدمة أخرى يا مدام ؟ تيجي أحكي لك تاريخ الثورة في البلد من ٢٥ يناير ؟

قلت تبرمًا وغيظًا من تهكمه اللاذع عليّ :

لأ... شكرًا... اتفضل الأجرة يا أسطى.

عدت مرة أخرى بعد حوالي ثلاث ساعات، وكالعادة تستشف حضوري ، وتفتح لي الباب ، وكان النور هذه المرة مُضاءً ، وقلت مبتهجة من خلاص الجلسة.

– ماما... أنا جائعة.. أين الغذاء ؟

– جاهز حبيبتي... ماذا فعلتِ ؟

– لا شيء.. قمت بعمل إجراءات طويلة حتى وصلت لسيدة منتقبة سألتني أسئلة كثيرة، وأجبت عليها بجرأة وشجاعة.

ـ ألست ابنتك ؟ وثقي أنني الفائزة، هذا حقي.

لدقائق معدودة صمتت ، ولم تعلق وهي تجهز طعام الغذاء الشهي ، وأقف على باب المطبخ أخذ منها الأطباق، ثم قالت بخفة.

– حبيبتي أنا أحضرت لكِ كل الحاجات.

– تمام. ماما بسرعه.

– إيه حبيبتي الساعة ما زالت ١٢ ظهرًا. الظهر لم يؤذن بعد.

– لا بد أن أسافر، وأكون في شقتي قبل أن يحضر طفلاي من المدرسة ، ولا يجداني.

– ألم تعطِ المفتاح لجارتك سميحه ؟

– أعطيتها ، ولكن لا بد أن أسافر الآن.. ها قد أنهيت غذائي.

ـ ولكنك لم تأكلي جيدًا.. سأضع الباقي في علب بلاستيكية ؛ لتأكليه مع الطفلين.

– المهم الآن اقرئي الورقة التي دونت فيها أشياءكِ ؛ لأتأكد أني وضعتها كاملة في الحقيبتين.

– أوك ماما. قرأتها كاملة.

ضحكت ضحكة طفولية بريئة ، وقد أدهشتني ، وهي تمزق الورقة على أرضية الحجرة.

- الحمد لله . لم أنسَ وضع شيء.

وضحكت منزعجة :

- أمي أنتِ ألقيت الورق الممزق على الأرض.

قالت باستخفاف ومرح :

- ولا يهمك أنا مَنْ أنظف الحجرة... هو إنتِ يعني من تكنسين الحجرة بدلًا عني؟ نزلت معي نجر خلفنا الحقيبتين اللتين ملأتهما بخيرات الله... عند الباب الحديدي الكبير للعمارة، أمسكت بي ، واحتضنتني بقوة ، وقالت وقد ترقرقت بعض الدموع في عينيها دون أن تنساب على خديها :

- لم أشبع منك يا ابنتي.

صمت برهة ، وقلت بانكسار، وأنا أنظر إلى الأسفل :

- وأنا أيضًا يا أمي.

عندما وصلنا إلى أول الشارع أشارت إلى التاكسي ، وهي تزعق لي :

ـ مع السلامة يا بنتي.. لا تنسي أن تتصلي فور وصولك ، وتضعي اللحوم والطيور، والخضار في الفريزر.

واستطردت تلح قائلة :

ـ من فضلك لا تنسي يا حبيبتي حتى لا يتلفوا.

في الميكروباص العائد إلى مسكني، ظللت أفكر في مدى قسوتي، وعاتبت نفسي أشد عتب لأني لم أجلس معها، وهاجمتني فكرة جنونية ؛ كمن هاجمه نحل يطن ويلسع في عقلي بفكرة طائشة ، لا بد أن أعود إليها ، وأقبل يديها ، وأمكث في أحضانها لليلة كاملة على سريرها كما اعتدنا النوم معًا ، واستمر هذا الشعور الثقيل يؤرقني حتى بعد أن وصلت إلى شقتي ، واتصلت بها أعتذر مرارًا وتكرارًا أن تركتها سريعًا. حتى تعبت من الألم. فنمت واستيقظت والشوق والحنين والندم يلازمني، ملسوعة محمومة بحمى الندم، وكان هذا تقريبًا في الساعة العاشرة مساءً، فقررت أن أكتب هذه الكلمات لك يا أمي، بعد أن زاد حنيني ، وتحول إلى اكتئاب يستعطفك ، ويرجوكِ أن تسامحيني يا أمي يا مسقط رأسي.

الخير والشر يا أطفالي

هناك في إحدى الغابات تعيش ثعلبة عندها ثعلبتين ، ثعلبة طيبة وتسمَّى هناء، وثعلبة شريرة وتسمى شيرين ، الثعلبة الأم الماكرة كانت تنتمي أكثر للثعلبة الشريرة شيرين ، ولا تحب كثيرًا الثعلبة الطيبة المؤدبة المجتهدة هناء ، التي تعمل في محل لبيع الدجاج وتنظيفه ، الثعلبة شيرين بالطبع لا أحد يحبها ، لأنها كسولة ولا تجيد أي عمل ، تستعيض عن هذا بالكذب والسرقة ، وأول ما نبدأ به حكاوي أفعالها السيئة هو الآتي ، ذهبت شيرين إلى السوق ، ووقفت في منتصفه وقالت افتراءًا : الحقوني اختي هناء ضربتني ، وأصابتني ...

وأخذت تصرخ بأعلى صوت مدعيه آلام شديدة في جسدها كله ، ولا تستطيع أن تقف من الألم. التف حولها الطيور الصغيرة من الأوز ، البط ، الدجاج ، والكتاكيت ، واستسلمت الطيور لشعور الرأفة والرحمة تجاه التمثيل المقنع ؛ الذي

أجادته شيرين ، رفعوها وحملوها إلى منزلها ، وكان جزاؤهم أشر جزاء ، ووقعوا في الفخ الذي أعدته الثعلبة الأم الخادعة ، قامت بحبسهم ، ولم ينج من شباكها غير الأرنب المسكين بعد أن قطعت الثعلبة شيرين ذيله أثناء محاولته الفرار من شباك الأم .

كانت لا تكف عن اختلاق حكايات مؤذية ، ومؤلمة لأصدقائها الصغار فى الغابة ، ذات يوم وبينما القرد الدكتور غير موجود في عيادته لسبب ما ، ذهبت شيرين إلى العيادة ، وغيرت ملامح وجهها لتبدو أشبه به ، جاءها للاستشارة مريضتين من الأوز، والدجاج ، قامت بخداعهما وحقنهما بحقنه مخدره حتى يناما ، ثم تنقلهما إلى الأم الشيطانة في المنزل لتذبحهما .

ظهر بطل القصة الآخر في الشر، الذئب المحتال الكبير ، اغتاظ وهدد الثعلبة أن يفشي ألعابها ، وأسرارها إلى أصدقائها في الغابة بما تفعله من ألاعيب ، اتفقا الذئب والثعلبة على احتكار الشر؛ قاما بفتح بقالة للحبوب تشمل القمح ، الذرة ، وعلف .... إلخ. من طعام الطيور الصغيرة ، بدهاء الذئب فتح باب خلفي يمر على منزل شيرين تجلس على بابه الأم

متأهبة لخطف أي دجاجه أو أي طائر مار، علم الطيور بأمر هذا الإختفاء المفاجئ. كلما ذهب أحدهم إلى محل بقالة الحبوب .

لم يتوان الذئب والثعلبة بمكرهما الأصيل عن التفكير بخبث لا نهاية له ، أذاعوا عن قيام سباق للجري بين الأوز والبط ، وشيرين : هي الحكم تحدد صفاره البداية والنهاية بينما على الناحية الأخرى ، الذئب ينقض عليهم أثناء سباقهم ، ويذهب بهم للثعلبة الكبيرة .

نشب الخلاف كشئ معتاد حدوثه بين الطامعين والفاسدين ، نفر كلاهما من الآخر ، وتخاصما ، لكن استمر نشاط شيرين الجهنمي ، حدث أن مرضت أختها هناء الطيبة انتحلت شخصيتها ، وأخذت مكانها في العمل ، وأنجزت خطتها وسرقت عددًا كبيرًا من الدجاج.

امتلأ الذئب غيظًا وحنقًا على شيرين ، فقرَّر أن يكيد لها مكيدة ضخمه بضخامة شرورها ؛ التي لا تنتهي عند ملك الغابة الأسد. يقضي بها على حياتها تمامًا ، وتتسع الساحة

لشره هو فقط ؛ دونما شريك في تقسيم الغنائم .

سمع الذئب أن ملك الغابة مريض للغاية ، ذهب يواسيه ، ويقدم رأي لعلاجه ، فأخبره مؤكدًا. أن شفاؤه يتكون من : مرارة بطة ممتزجة بدم ثعلبة أنثى ، تعجب ملك الغابة من هذا الدواء ، إلا أنه خضع لمشورته نتيجة آلام ظهره المبرحة ، علمت شيرين بما دبره الذئب عند ملك الغابة ، فكرت طويلًا كيف تخرج من هذا المأذق ؟ فقررت أن تذهب إلى ملك الغابة تستعطفه ، وتترجاه أن يعذرها لتأخرها في زيارتها له وهو مريض ، ادعاءً منها أنها ظلت تبحث وتنقب عن دواء يكون فيه الشفاء الحاسم .

نظر إليها ملك الغابة بدهشة ما هذا الدواء ؟

كانت الثعلبة الواسعة الحيلة والدهاء. قد حاكت خطتها مع القرد الدكتور ، أنه هو شخصيًّا من سيخبر ملك الغابة أن علاجه في مرارة ديك ، ودجاجة مع دم ذئب ماكر، وبذلك تغذت الثعلبة الماكرة بالذئب قبل أن يتعشى بها .

اكتشف القرد أنه خُدع من قبل الثعلبة الخبيثة لتتخلص من

الذئب ، انهار القرد غضبًا وسخطًا على الثعلبة الملعونة ، قرر أن يخبر أصدقائه الصغار بل والكبار ليجدوا حلا قاطعا لهذه الثعلبة الملعونة ؛ الذي استشرى شرها كالسرطان .

اجتمعت طيور وحيوانات الغابة ، على رأسهم الفيل ، والحمار الوحشي ، والقرد الدكتور ، والزرافة ؛ لتجهيز خطة محكمة ؛ لإنهاء عالم الثعلبة شيرين ، والأم المحرضة الخبيثة لكل أفعال الثعلبة تجاه الطيور الضعفاء .

بكلمة واحدة وبيد واحده تكاتفوا ، وصنعوا أمام منزلها حفرة كبيرة ذو عمق مميت ، وقام الحيوانات المترقبة للخطة بحذق ، بتغطيه الحفرة بأوراق الأشجار ، والفروع الكثيفة حتى لا تراها الثعلبه الماكرة ، لم تنس الحيوانات الثعلبة الطيبة هناء ، التي من الممكن أن تقع في شرك هذا الفخ دون أي ذنب ، بعث صاحب المحل الخروف الذي تعمل عنده في طلبها ، وأمرها ألا تترك نهائيا المحل حين عودته من مشوار مهم ، نجحت الخطة ، وسعدت جدًا الطيور الصغيرة لإحساسها الشامل بالأمان ، والمودة ، والحب بدون أي تهديد أو أذى لحياتهم ، أما الأم الفاسدة فقد تم عقد محاكمة عادلة برئاسة

مجلسها : الأسد ، والفيل ، والقرد ، وصدر الحكم بعد تأييد كل الحيوانات الكبار، والطيور الصغار بطردها من الغابة؛ لأنها شيطانة ملعونة، وجزاءها الموت وحيدة، وفقيرة ، استحقاقًا لما فعلته بابنتها شيرين من تحريض سيئ ، وما اقترفته في حق الطيور الصغيرة ، الذين لا حول ولا قوة لهم ، وعادت البهجة ، والسعادة ، والمرح إلى قلوب الطيور الصغيرة وللغابة .

بقلم الكاتبة المصرية

هدى توفيق

٢/ ٥/ ٢٠٢٢م الموافق الاثنين.

المؤلِّفة في سطور

هدى توفيق

من مواليد محافظة بني سويف (مصر)، حاصلة على كلية الآداب ، جامعة القاهرة (قسم اللغة الإنجليزية).

صَدَر لها عدد من المجموعات القصصية ، منها :

ـ أنَّى تصير رجلاً، عن عاقر وأحول ، مذاق الدهشة ، عدوى المرح ، حِذاء سيلفانا ، سلامتك يا راسي ، خيال عن وطن مغاير، الرقص على البحر ، فاكهة بشرية ...... إلخ.

وثلاث روايات هم :

(المريض العربي). ط١: ٢٠١٥ م ، (بيوت بيضاء). ط١ : ٢٠١١م)، والتي حازت على جائزة (المركزالأول) في عام ٢٠١٢م ؛ تحت إشراف الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ورواية (رقصة الحرية) ط ١ : ٢٠١٩م، ناصية القراءة (١)، قراءات ثقافية في الأدب العربي، ط١ : ٢٠٢٠م. ناصية القراءة (٢)، ط١: ٢٠٢٢م، دار نشر يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع. قراءات إبداعية وفكرية، ط٢ : ٢٠٢٢م، عن دار نشر يسطرون للطباعة والنشروالتوزيع.

فهرس القصص

نَخْب الدائرة المستديرة ٥
عَابر سبيل ٩
حُلمٌ كوميديٌّ ١٣
تحت نفس الشمس ١٩
رسوم متحركة ٣٢
الحائط القديم ٣٥
نرجس العاشقة ٥٠
قص ولصق ٧٤
عصا الشيخ مصطفى ٧٨
ثلاثي أضواء المسرح ٩٤
حذاء جدتي الذهبي ٩٩
نادية وصفي ١٠٥
حارة سَدّ ١١٣
أنا اسمي التحرير ١٢٨
المصيدة ١٣٩
أيوب المصري ١٥١
الأُمُومة ١٥٦
أحضرت الجديد ١٦٢
أنا الزّعيم ١٦٥
كذبة سمكة نيسان (إبريل) الشهيرة ١٦٨

المتمردتان........................ ١٧١
أين وطني ؟........................ ١٧٦
لقاء ووداع........................ ١٧٩
ترانيم الحزن الناصع........................ ١٨٣
سلامتك يا رَاسي........................ ٢٠٨
حذاء الصغيرة التي لم تأتِ........................ ٢١٦
عزبة التحرير........................ ٢١٩
أكره الثقافة........................ ٢٢٧
قصة مأساوية للغاية........................ ٢٣٢
حكاية السرير الظريفة........................ ٢٣٥
وطن صغير........................ ٢٣٨
وجوه تبحث عن مؤلِّف........................ ٢٤٤
أين هي السعادة ؟........................ ٢٥١
الشيخوخة........................ ٢٥٨
إمبراطورية الشمس........................ ٢٦٤
ريموت أم إنصاف........................ ٢٧١
ضريح العوانس........................ ٢٧٨
بحري قبلي........................ ٢٧٩
الاسم........................ ٢٨٠
المشاعر........................ ٢٨١
ألف باء........................ ٢٨٢
الاكتئاب........................ ٢٨٣
تورتيلا فلات........................ ٢٨٥

الأباجورة القطة........................ ٢٨٧
المعِطف ٢٨٩
الديست ومبيض النحاس ٢٩٣
نعناعة الفِراق ٢٩٥
حالة شعبيَّة مفرطة ٢٩٨
الثلاثاء الحزين ٣٠٦
عاصفة التنين ٣١٠
مسـرح مصر ٣١٣
فاكهة بشرية........................... ٣١٥
أقوى من الزمان........................ ٣١٩
تخيل رومانتيكي ٣٢٦
عائشة من دارفور ٣٣١
الحلق الأسطوري ٣٣٤
لعنة (صنمو)........................... ٣٣٧
وطن .. كان........................... ٣٤٤
رحلة إلى مسقط رأسي.................... ٣٤٨
الخير والشر يا أطفالي ٣٥٦
المؤلِّفة في سطور........................ ٣٦٢
الفهرس ٣٦٣

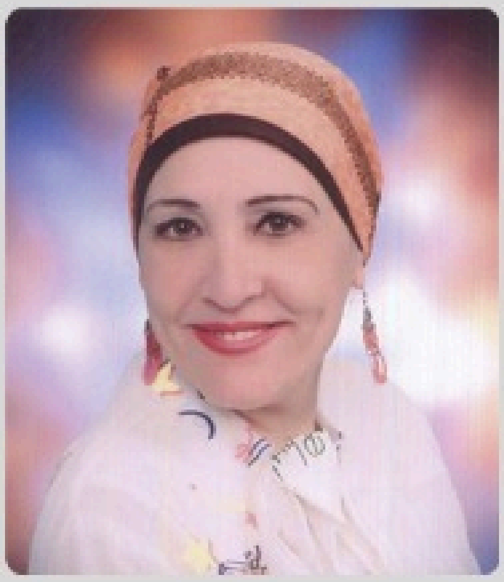

نعناعة الفِراق

مدينتي تسكن على حافة القلوب ، تزدحم بكل التعاسات ، والأفراح ، وحالات العشق ، والفتن ، والأفكار. بكل هذا الجحيم ، ولا ينبعث صوت البحر الهادئ الصافي ؛ إنه صافِ لأنه يحتضن كل الكوارث بأمواج متدفقة. تاركًا للشاطئ ذاكراته العطرة. أما الناس في بلدي ؛ فهم يعشقون حكاوي المصائب ، وGrass (المخدرات) ، والنساء اللاتي يتهامسن بها في الصباح ؛ حيث تنسكب ككوب الماء مع الإفطار ، ورشفات الشاي ، ودخان السجائر. أما في المساء يلوكون فراغهم واكتئابهم على المقاهي والنواصي . إنها تمارين للعيش من أجل التكيف مع الحياة بأية طريقة. حتى لو كان عمدًا مع سبق الإصرار والترصد . إذا ركبت طائرة ، ومر جناحها سهوًا على مدينتي ، ونظرت عن غير قصد . أول شئ سيجول بخاطرك أن تطلق عليها اسم " عابر سبيل " ، لقربها من محافظة القاهرة. وتتركز حيويتها في شارعين : الرياضي ، والبحر ...

تصميم الغلاف | ياسر علي
Bē.net/ yasseraligfx

يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع